أنطونيو لوبو أنتونيش



شرح الطيور

ترجمها عن البرتغالية:

سعيد بنعبد الواحد

مكتبة 1636

منشورات الجمل

رواية



لن ننسى غزة والشهداء

أنطونيو لوبو أنتونيش: شرح الطيور، رواية

أنطونيو لوبو أنتونيش



شرح الطيور

رواية

ترجمها عن البرتغالية:

سعيد بنعبد الواحد

منشورات الجمل



انطونيو لوبو أنتونيش: شرح الطيور، رواية، الطبعة الأولى
ترجمها عن البرتغالية: سعيد بنعبد الواحد

António Lobo Antunes: *Explicação dos Pássaros*, roman

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

إلى ماريلا ودينيش ماشادو،
صديقَيَّ ورفيقَي دربي.




MOHAMED KHATAB

الخميس

- يوماً ما، سوف أجنحُ إلى هذا الشاطئ، وتلتهمني الأسماك مثل حوت ميت - قال لي عند شارع العيادة وهو ينظر إلى العمارات الباهتة الحزينة في كامْبوليدي، إلى الحروف المتشابكة في اليافطات المضيئة المنطفئة، إلى بقايا الأحمر القاني لحفلات نهاية السنة على الواجهات الزجاجية، إلى كلبٍ راحَ في هذا الصباح من شهر يناير ينبشُ في كومة أنقاض عمارة مُهدّمة: خُشارة جصّ، قطع خشب، شظايا طوب من دون روح. كان يمشي انطلاقاً من شارع قطارات الترام، يشتم صناديق الفواكه في المحلات برغبة نورس ضبابية وشرهة، كما كان يفعل طفلاً وهو يعود من المدرسة، يتشمم الرائحة اللاذعة في الصيدليات أو الظل الداكن، بلون الدم اليابس، في الحانات حيث أحد العميان، والكأس في يده، يتابعه بنظراته بجفنَيْن قلقين جامدين مثل جفون رجال السياسة على الملصقات، ثم فكَّرَ إنهم يأخذونني إلى المستشفى ويدفعون نيابة عني المزلاج النحاسي الأصفر (لا تزعج نفسك، لا تزعج نفسك، لا تزعج نفسك)، يجبرونني على الانتظار في قاعة مملوءة بكراسي جلدية بها مسامير كبيرة صفراء (كراسي خاصة بمجالس العزاء، أدركتُ)، طاولة ذات قوائم تنتهي بقطع فلينيّة، ستائر ثقيلة مثل تجشؤ قاضٍ من القضاة،

حيث الزوار غير المرئيين الذين يحضرون مراسيم دفْني يتهامسون بشدة في الزوايا، بينما آخرون يتحدثون بصوت خفيض مع خادمات نظافة مُغْبرات يجب أن ينظفن أياديهن بنافضات ريشية ويخرجن من جوارير بُطونهنّ أكواماً من رسائل قديمة وعلب خياطة مدسوسة بداخلها. فتاةُ المقسم الهاتفي، النحيفة والدميمة، المختبئة وراء مكتب الصيدلية مثل بوم في مغارتها، ترسم قلوباً نشوانة على دفتر ملاحظاتها: لا بد أنها قد ذهبت إلى السينما مرّتيْن متتاليتين مع نفس الموظف قصير النظر في وزارة المالية الذي يسكن غرفة يكتريها في حيّ «بينْيا دا فْرانْسا» ويتابع بالمراسلة دروساً في اللغة الإنجليزية منكباً على دفتر يعج بالتزيينات (*my garden, my uncle*) أمام فنجان قهوة فارغ. - قال لها اسم أمّه بينما الفتاة تخرج لسانها وتجتهد في رسم قلب ضخم يشبه اللواصق التي توضع على قوارير السائل الخاص بتلميع المعادن في عهد جدته: فيلق من الخادمات يرتدين بذلات عمل رمادية يُلمّعن بحماس مقابض الأبواب في الطابق السفلي: لا تضع يدك، أيها الفتى، وإلا شكيتُك إلى أخواتك. كانت الخادمات تفحن برائحة الصابون الأزرق والأبيض، والسكر الأصفر والخبز المُكرّر. وعند المساء، أبناء عم جنود لهم أصابع غليظة مثل أصابع المزارعين أو الرعاة يأتون ليتلمّسوا خلسة صدورهن قرب بوابة الحديقة.

- الغرفة الثالثة على اليسار - أخبرته البومُ وهي ترسم سهم إله الحب بابتسامة بريدية ذابلة: لا بد أن أُذُنَي موظف وزارة المالية تحترقان أمام عملية جمع صارت مستحيلة فجأة، ثم تجاوز ما يشبه مكتباً به ممرضتان تهدلان، متكئتين على دولاب كأنهما زوجان من الحمام على حافة سطح: واحدة تأكل حلوى وهي تُقوّس يدها لتجمع الفتات، بينما الشمس التي تخترق الزجاج تمنح المريلتيْن

المنشّيتين بياضاً طباشيرياً ناعماً. صادفَ رجلاً متوسط العمر يحمل عند مستوى عينيه كيس بول كان يفحصه بفضول تأمّلي، كأنه يفحص عقرباً ميتاً. رائحةُ الكحول، والخوف والأمل التي تميز المستشفيات كانت تتقدم وتتوارى في الممر، تشبه رائحة بحر نعسان تطفو فوقه أنّات صامتة لمرضى تخنقهم تنهيدات الحزن التي يصدرها أفراد عائلاتهم: لا أريد أحداً هنا عندما يأتي دوري: أطردهم بتقطيب حاجبي حيث لا أستطيع رؤيتهم، حيث لا يصلني عطفهم الحزين، عنايتهم المفرطة، وتلك الجفون التي تصفرُّ مما يصيبهم من رعب الموت. أبقى وحدي، أنْفي صوب السقف أفرغُ ذاتي ببطء من نفسي: اسمي، مكان ولادتي، سنّي، والأبناء الرماديون الذين يقدمون كل هذه التفاصيل في الممر.

- صباح الخير أمي - قال.

ثم سرعان ما فكّرَ كم صرتِ نحيفةً، اللعنة، وهو يرى أوتار العنق، الجبهة المفرطة في الشحوب، عروق الذراع البارزة، القزحيتين الخضراوين المدورتين الغارقتين في الوسادة ترقبانه، والعرق اللزج على الأنف. كان الخاتم يرقص في الإصبع: من منا سيسحبه من إصبعها قريباً ويضعه فوق الصحن الخزفي على منضدة غرفتكِ، تحت المرآة الغارقة في القلادات، والأقراط، والخواتم؟ لا أملك ربطة عنق سوداء تليق بمراسيم الدفن، عندي فقط تلك الرمادية المنسوجة من أعياد ميلاد بعيدة، تعود إلى ذلك العهد حين كان ما يزال يرتدي سترة، يأخذ نفسه على محمل الجد، يكتب مقالات طويلة وبغيضة تعج بمفاهيم ثرثارة، نظريات غامضة، ومقاربات عبثية لن يقرأها أحد أبداً. لمس الإصبعُ غيرُ المرئي للناشر ذراعَهُ لمساً خفيفاً.

- ربما يمكن استخراج شيء مفيد من هذه الدراسات.

- كيف حالكِ؟ - سأل بصوت محبط وهو يلاحظ أمّه ويفكّرُ **الدموعُ** انتقلت إلى الجهة الأخرى من عينيْكِ، إنها تسيل داخل رأسكِ، نحو حنجرتك، بحرقة كحول لاذعة.

- ألا ترى أن شكلها أحسن؟ - سأل فجأة صوتٌ على يساره ثم رأى، جالسة على الأريكة الوحيدة في الغرفة، بين السرير والنافذة، بنت عم بعيدة، وكتاب مفتوح على ركبتيْها: **أراهنُ** على أنك الشخص الوحيد من أفراد العائلة المستعد لمصاحبة شخص يحتضر. ملتصقة بالنوافذ، كانت تظهر عمارات حي أموريراش: **هل** ستكون على قيد الحياة عندما يأتي دوره؟

- إن وجهها أكثر احمراراً - أكّدتُ ذلك - وهي أكثر سمنة. وإليّ أنا، يغمرني الخجل: **سامحيني**، أمي. عندما كنتُ طفلاً وأصابُ بالزكام، كنتِ تحملين إلى غرفتي مذياع فيليبس الذي يملكه والدي، فأظلُّ في حرارة الحمى المخدرة أستمع للبرامج التي تقدم الأغاني التي يطلبها المستمعون. الإذاعة الجديدة مستمرة. عندما يرن الهاتف. ماذا تريد أن تسمع؟ **يفكّرُ** يومئذ كان شعرُكِ بنّياً جداً، وحركاتك واثقة تماماً. لم تكوني لتسمحي، تخيّلَ هو، لأي سوء أن يصيبنا.

- والصغيران؟ - سألت الأم من مسافة متريْن لا ينتهيان. كانت هناك قنينتان صدئتان من الأكسجين عند طاولة السرير، مكنسة كهربائية لتنظيف المفرزات قرب المغسلة، وباقة أزهار في مزهرية زجاجية متعددة الجوانب فوق منديل.

- إنهما بخير، يا أمي، كما ينبغي. ليس هناك من مشكلة.

- كلما ذهبت لآخذهما من المدرسة يسألان عنكِ - ثم داهمهُ

يقينٌ بأن أمّهُ قد انتبهت للصمت، للوقفة الثانية، للكذب. كانا يصعدان إلى السيارة في تزاحم، يتدافعان مثل جروَين ليعانقاه. حارسة المدرسة، بدينة برأس خلد تبتسمُ؛ في المحلّ المجاور امرأة طويلة شقراء تداعب بأظافرها الطويلة الحمراء قارورة عطر ضيقة: كم تُهيجين قضيبي!

- أين تريدان أن تذهبا لتناول الغداء؟

- في مطعم بوني.

- في الحانة.

لكن المرأة الشقراء تقترب من الباب فيتحول الحنان فجأة إلى رغبة هائجة لذلك الوجه الخزفي، والتنورة المُعرقَلة التي تسجن مروحة سميكة من لحم الفخذين. خلال سنوات طويلة، كان رفيقه في طاولة قسم المدرسة الثانوية يهمس في أذنه:

- إنهن لا يحلمن سوى بهذا الأمر: تمسكُ الفِراش، تصرفُ بأسنانك، ثم إلى الأمام وإلى الخلف، إلى الخلف، إلى الأمام، إلى الخلف، إلى الأمام، إلى الخلف، أفهمتَ، حتى تولي اللوحات وجهها نحو الجدران.

- لا بد أنهما قد كبرا - أكدت بنت العم من عمق الأريكة وهي تخرج كنزتها من كيس بلاستيكي. صار تنفس أمه صفيراً صعباً، خفيضاً، لا يُسمع. سلاميات أصابعها، زرقاء، تتحرك ببطء فوق الملاءة وتزحف مثل حشرة.

- هذا المساء، يا أمي، سوف أذهب إلى طومار لحضور مؤتمر، وسأعود يوم الأحد مساء عند العشاء. حاولي ألّا تقعي في غرام هذا الطبيب الهندي الماكر خلال هذه الأيام الثلاثة: لا أريد بقراً مقدساً في عائلتي.

يا لها من قلة حس الدعابة، اللعنة، إنك عاجز عن قول أدنى مزاح مسلّ، لامَ نفسهُ، نكات ثقيلة كأنها قطرات معدنية تسقط في أحواض الأرق، سخافات غبية من المجلات: يجب أن أحيّن ذاتي على عجل في مجلة «شارلي إيبدو». بنتُ العم تنشر بعناية نهديْها فوق الركبتيْن.

- الهنود ظرفاء للغاية، في منتهى الرقة. هل لاحظت شاربيه، يا فيرناندا؟

- أورام رئوية ضخمة - صرّح الطبيب - ونزيف جنبيٌّ كبير (كأنه يشير إلى لوزتي رجل من الأسكيمو لا يعرفه أحد منهم). من الأفضل أن تستعدوا لما هو أسوأ.

كان يعرض صور أشعة، يقدم تحاليل، يعطي شروحات منمّقة. كانت دقّةُ ربطة عنقه تثير حنقي حدّ السكتة الدماغية: أرغبُ في فك أزرار عنقه بجرّة عنيفة، وأودّ أن أمرّغ أناقة قميصه المُفرطة: أمّي على حافة الموت وهذا الأبله لا يبالي بشيء.

من الوسادة، كانت العينان الخضراوان تحدقان إليه من دون رأفة.

- هل صدر كتابكَ؟ - همستْ بصعوبة.

تدحرجت عربة من الضمادات في الممر وهي تصرُّ، فارتطمت العلب الممتلئة بالصمت الرخو للكمادات كأنها علب حليب. من الغرفة المجاورة كانت ترتفع شكوى موقّعة، تموجات أنين، احتجاج امرأة يرتفع وينخفض: كمِّمُوا فمي حتى لا أصيح. أجابها على مضض:

- ليس بعد، يا أمي، هناك مشكلات رقن كثيرة، والمسودات

مليئة بالأخطاء - وهو يُفكّرُ سوف ينزل عليّ النقاد بغضب عجزهم، بمتابعاتهم الشحيحة، المجهولة، الجافة، من دون صور، على صفحات جرائد المساء. وعندما أبدأ بالتعفُّن، سوف يعتبرونني كاتباً أساسياً، سيطلبون مني مقابلات، سيكتبون عني، وسيختارونني لأكون ضمن مقابر أعمالهم المختارة. تقدّمَ خطوة ولمس يد أمه: يد مسامية، من دون دم، خفيفة وخشنة مثل جذور الكروم الجوفاء.

- لم يعد الناس يحبون التاريخ، ولا الشعر - تنهدت بنت العم وراء إبَر النسج، وهي تصنع قميصاً فظيعاً، بألوان مثيرة وأشكال مربعة، لن يرتديه أحداً أبداً (شكراً جزيلاً، لست بحاجة إليه في هذه اللحظة، لكني أظن أنه سيعجب كثيراً فرانسيسكو). لم يعودوا يحبون روايات من دون فضائح، وكلمات نابية، وجنس: كلما كانت مدنسة، أعجبتهم أكثر.

رائحةُ المستشفيات، فكّرَ، تنزل ثقيلة على جبيني، تزعجني، تصيبني بآلام غريبة: عندما أجريتُ عملية في ظهري، رأيتُ قيحي بأم عينيّ في سطل، فاجتاحتْني رغبةٌ قوية في التقيؤ، منبطحاً على بطني فوق السرير. كان الجرّاح يتحدث مع مساعده وهو يفتّش تلك المادة القُطْنية التي صارَها جسَدي، والآخرُ يلاحظ حذاءيه القماشين اللذين يشبهان حذاءي حميريْ سيرك زائفين يؤديهما اثنان من الكومبارس. فتاةٌ ترتدي تنورة من الأثواب اللامعة تمسك شمسية وتتجول فوق سلك حديدي عال، يضيئه منوارٌ بنفسجي وأصفر. وفوق المدرجات الفارغة، بهلوان باذخ بفم أحمر يجرب آلة ساكسفون.

- وأبي؟ - سأل، فتطايرت الكلمات طويلاً أمام شفتيه كأنها مقامات موسيقية.

والدُه، بمعطف وجفنين مخططين بالفحم، تقدم نحو

الميكروفون بحركات دقيقة كأنه رئيس التشريفات. قمعٌ من الضوء ينزل من السقف كان يلاحقُه.

- ما الهدف من كلمات التقديم؟ - صاح وهو يداعب بعض الشعيرات المتناثرة على صلعته وسط صفير مكبرات الصوت الزاعقة - إنه فنانٌ برتغالي.

- عمل كثير في المكتب - قالت الأمُّ - لا بد أنه سيمر قريباً إلى هنا.

- لقد اتصلتْ كاتبتُه ثلاث مرات - أوضحت بنت العم - هو من أرسل تلك الباقة من الأزهار الملفوفة في ورق السيلوفان المشدودة بخيط وردي.

وفجأة، ازداد حجم المزهرية ذات الجوانب: مدّ الأب يده نحو ستارة مبشورة فخرج هو وأخواته من الداخل راكضين، يرتدون ملابس تتاريّة، في دوّامة من الدوران والقفز.

- صمت - أمر الأب - إنني أقرأ الجريدة.

صلعةٌ حادة، وجه عابس، رائحة عطر وتبغ أمريكي في ملابسه: ثم، من حين لآخر، أسفار الأعمال، استغرقتُ سنوات طويلة لأفهم سببها، أمي متحصّنة في غرفتها، مستلقية فوق السرير (صداع نصفي، لا شيء، سوف آتي بسرعة لتناول العشاء)، زيارات الطبيب النفسي، اليوغا، الحمية الغذائية، لعب الورق، التمارين الرياضية. وعيناي الخرساوان في ظهرك تسألانك لماذا لا تعود مبكراً إلى البيت؟

- ربما سيمر قريباً - تنهدت أمُّه - ربما سيمر قريباً إلى كل مكان.

كان المرض قد صقل حواف صوتها، فصار لطيفاً، ناعماً، رقيقاً كأنه أغنية قوقعة: موزار، «*La mer ou l'écho de vos rêves*» **البحر**

أو صدى أحلامكم: إعلان لماركة من مشغل الأسطوانات الفرنسية قرأها في مجلة عند طبيب الأسنان. اقترب من النافذة، ألقى نظرة على الخارج: امرأة بمريلة تنتف ريش دجاجة في الزقاق (رأس الحيوان يتدلى ويتأرجح على إيقاع حركات السحب والجرّ) وكلبان يجلسان على قوائمهما الخلفية ينظران إليها من بعيد بشراهة خنوعة. وعمارات حيّ أموريراش القبيحة تمضي على غير هدى في الضباب: يا لها من مدينة مقرفة، لماذا لا أرحل من هنا ما دام الوقت ما يزال يسمح بذلك؟

- وجبة الغداء - صاحت امرأة مرحة، تحمل صينية فوق ذراعيها: حساء دجاج، شريحة سمك الغبر مع نوع من الخُضر الخضراء، إجاصة، صحن مقلوب يغطي كأس ماء. احتفت أخواته في شقلبة أخيرة، ثم جرّب والدُه الميكروفون وهو يخدشه بظفره.

- طعام يليق بالمرضى - صاح باتجاه جمهور يتشكل من بنات عم بعيدات ينسجن جالسات من حوله على مقاعد خشبية. حذار، يا فيرناندا، لا تجازفي. نطلب من جمهورنا العزيز الصمت التام خلال هذه الوجبة الخطيرة.

بدأت المرأة المرحة ترفع رأس السرير بالمقبض، مثل أولئك الرجال أصحاب البذلات الزرقاء الذين يضعون حصان الجمباز للقيام بتمارين القفز. ربطةُ مريلتها المُنشّاة ترتعش على مؤخرتها كأنها جناح فراشة سجينة.

- من سيلتَهِمُ كل هذا الغداء اللذيذ؟ - سألت بنبرة مضجرة ومسلية كأنها نبرة معلمة في المدرسة - حساء لذيذ، شريحة سمك رائعة، إجاصة شهية، أكلة لذيذة، من دون نسيان تناول الكبسولة قبل الأكل والقرص عند نهايته، هذا كل ما في الأمر.

- أزيوبْس - زعقَ الأبُ متباهياً وهو يدير طاحونة صغيرة بذراعه.

- أخواتُك أيضاً اتصلن - قالت الأم وهي تسحب بعناية شوك سمك الغبر على شكل أقواس ناصعة البياض - هذا المساء، مع كل الأشخاص الذين أكدوا لي أنهم سيمرون، ستشبه الغرفة نادياً ترفيهياً يوم ثلاثاء المرفع[1]: سأتسلى كثيراً.

فرقة موسيقية من الأقارب المسنين، يرتدون معاطف مزركشة برقائق فضية، يعزفون لحن بوليرو بطيئاً قرب المغسل بتعابير باردة أو شيئاً ما مضجرة لعازفي الحانات. وعلى الضوء الخافت لعاكس النور الورقي، المغطى بالبقع، فوق منضدة السرير، كان الأطباء والممرضات، والأعمام عابسين يتحدثون بصوت خفيض جداً يمضغون قطع كفتة مغروسة في قضبان، يُقرّبون ويُبعدون، بطريقة غير منتظمة، وجوههم الشاحبة والقمرية. كان الطبيب الهندي يرقص مع بنت العم التي تنسج بعفة تليق بمنتجع مياه صحية، عندما ينقلون موائد قاعة الأكل من أجل ليال كئيبة على نغمات آلات كمنجة حزينة.

- صمت - كرّر الأب - إنني أقرأ الجريدة.

ابتسمت أمه بطريقة غير منتظرة: كانت الطفولة تنساب متثاقلة من فمها، كأنها الماء ينزل على أخشاب مائلة.

- لا تقلق - قالت - إنهم يعتنون بي جيداً هنا.

كان يغادرُ البيت بحقيبة تغطيها لاصقات فنادق أجنبية فتبقين

---

(١) ويسمى أيضاً ثلاثاء الاعتراف لدى المسيحيين، وهو اليوم السابق لبدء الصوم الكبير. (المترجم)

وحدَكِ، صغيرة في ركن من السرير الواسع، تقرئين كتباً إنجليزية سميكة غامضة، روايات، حكايات حرب، على الغلاف رجل وامرأة يقبّلان بعضهما بوقاحة. ثم يعود بعد ثلاثة أو أربعة أيام، ببشرة سمراء، وبقايا ضوء غريب في قزحيتيه الضّالتين. في الصباح، أذهبُ لأرقبه وهو يحلق وجهه مرتدياً سروال منامته، عاري الصدر، مفتوناً بلمعان شفرة الحلاقة. كان يستعمل شفرة «**أزيفيشيكس المفضل لدى الرجال الذين يبتسم لهم النجاح**»، ثم يغرغر بشراسة، أنفه إلى أعلى، ليحارب التسوس، والقيح والروائح الكريهة: عندما أكبر سأُسكت الجميع لأقرأ الجريدة. كلابُ حيّ أموريراش، أمام العيادة، تشتمُّ في الضباب ريش الدجاجة، بقايا دم، وكومة لزجة ومقرفة من الأحشاء. أمي تحدد صفحات كتابها بتذكرة ترام، تطفئ الضوء، وأنا واثق أن عينَيها ما تزالان جاحظتين في الظلام، لامعتين مسمرتين مثل عيون الأموات في الصور. بدأ هاتفٌ يبكي مثل طفل على طاولة صغيرة بالقرب منه.

- نعم - أجابت بنتُ العم التي أمسكت السماعة بسرعة فيل استحوذ على ربطة جزر - نعم، نعم. لا، أمضت ليلة جيدة، سيأتي الطبيب ليراها مع بداية الزوال. إن طرأت مستجدات، سأخبرك.

الأب، الذّنْب العابر للأب، انشغالات الأب وسهوه، العاشقة التي لا يعرف عنها سوى الصوت الأجش الدافئ، كأن مصباحاً كحولياً يُسخّن حنجرتها باستمرار. مرة كل شهر، كانا يتناولان الغداء معاً في مطعم قرب مكتبه، من دون كلام، يأكلان في صمت، في حرج ملموس ومتزايد. الصّلعُ المنكفئ على الصحن يلمع مثل إبريق شاي. الخدّان المطاطيان ينتفخان ويتجوّفان بينما هو يمضغ، فتعود بي الذكريات إلى أيام الطفولة البعيدة في الضيعة (في الظل المتحرك

للأشجار على الأرض، رائحة جافة للأوراق والتراب)، ورجل شاب، نحيف، مرح، تتعالى صيحاته في هدوء ما بعد الظهيرة، يهرولُ نحو البيت يحملني منفرج الساقين على كتفيه. يُفكّرُ: **لنُعد** الشريط إلى الوراء، لنبدأ من البداية. بنتُ العم تغطي السماعة بيدها.

- هل تريدين أن تقولي شيئاً لزوجكِ؟

طقمُ السمك يرتعشُ من دون ردّ، فأمسكُ الآلة:

- بابا.

تأتي مقاطع الكلمات من الجهة الأخرى وتتناهى إلى سمعه واضحة دقيقة كأنها مناظر طبيعية منقوشة بمسبر على لوحة برونزية.

- كيف حالها؟

الرجل الشاب، النحيف والمرح، فسح المجال لرجل مسن بدأ يصير بديناً ويملّس باستمرار شعره المتناثر على صدغيه.

- أحسن حالاً، يا أبي، أحسن. لا تقلق.

منفرجَ الساقين على كتفيكَ، كنتُ ألمس تقريباً أغصان أشجار الكستناء برأسي التي تحيط بها هالة من الضوء مثل قديسي المعجزات، بينما خلودُ صورة يُجمّد ابتسامة أستعيدها، سنوات كثيرة بعد ذلك، في مرآة غرفتي، عندما أتهكم من ذاتي بتكشيرة لاذعة: كم كبرتُ، اللعنة، وكيف بدأ شعري - جاء دوري - يتساقط أيضاً: أحاول أن أخمن سنّ والدي في تلك الفترة (هل كنتَ أصغر مني كما أنا اليوم؟) لكن الصوت الصادر عن الثقوب الصغيرة للسماعة يشوش على تخميناتي.

- علمتُ أنك ستذهب لبضعة أيام.

كان يسمع صوت الآلات الكاتبة في المكتب وأشخاصاً منكبّين على الموائد، مزيل روائح الكاتبة يُحوّل الفضاء الفارغ، والقاعات،

والجدران، إلى إبط واسع دافئ نُتف شعره: هل ضاجعتها أيها العجوز؟

- ماذا؟ - يسأله والدُه.

- لا شيء. كنتُ أقول إنني أغادر في هذه الأثناء بالضبط نحو طومار. ندوة حول القرن التاسع عشر، أنت تعرف ذلك.

حكت لي أختي أن لك بيتاً آخر، أطفالاً آخرين، تلفازاً آخر، لوحات أخرى، مائدة نرد أخرى، علبة أخرى من «**أزيفيشيكس المفضل لدى الرجال الذين يبتسم لهم النجاح**»، جريدة أخرى. الكتابةُ نشاط سخيف، هل فهمتَ، عندما لا يفوز المرء بجائزة نوبل: أكمل دراستك أولاً. كان ثمة صمت فأجاب صوتُ الرجل الأصلع بتردد:

- صراحة، في هذه الهواتف لا نسمع أي شيء.

- لا يهم، إنني أغادر في هذ اللحظة نحو طومار.

- همهم - دمدم والدُه مرتاباً.

فتكهّن بعينيه الداكنتين، وراء النظارتين، وهو يخمن دون أن يصدق: **كان** يجب أن أكذب عليك، كان يجب دائماً أن أكذب عليك، لم تكن تطيقُ فكرة أن أكون مختلفاً عنك، أن أخربش أبياتاً شعرية، أنني أفضل أن أكون أستاذاً في ثانوية بئيسة في الضواحي، براتب زهيد، بدل العمل في المقاولة، أنيقاً أرتدي ربطة عنق، مثل باقي أفراد القبيلة. أحياناً، كنت أواسي النفس بفكرة أن الرجل الشاب والمرح الذي كان يتجول معي في الضيعة قد يكون فهمني: كنا نقترب معاً من السور المغطى بقطع القناني الزجاجية فنظل هناك، مفتونيْن، ننظر إلى قرد الجيران المشدود إلى بيته بسلسلة كلاب، شجرة التين المعلقة فوق البئر، الهدوء بلون الخزامى عند نهاية

الظهيرة وراء التماثيل الخزفية في الحديقة والكراسي الطويلة الباهتة للأسرة، المتناثرة هنا وهنالك فوق العشب. طيور الطاووس في الغابة تطلق صيحات قلق هناك بعيداً:

- إنها تخاف من الليل - يقول والدُه - إنها تخافُ أن تحلم.

يُفَكّرُ الرجل الذي كان يحملُني منفرج الساقين على كتفيه ربما كان يدرك ذلك، كان يدرك ذلك بكل تأكيد: من يعرف طيور الطاووس يفهم شاعراً سيئاً من مسافة بعيدة. يُفَكّرُ تبّاً، كل ما كان بودي أن أقوله ولا أفلح في قوله. يُفَكّرُ انعدام الشجاعة ورطة كبيرة.

- متى ستعود - سأله والدهُ كأنه يحرك غصناً قاسياً في جرح متعفن.

- يوم الأحد، أظن - قال.

ثم، غاضباً من نفسه، صحّح (كما ترى، أنا خائف منك، لم أخلق لأُسيّر مقاولة) بتأكيد جازم:

- يوم الأحد، بكل تأكيد.

يوم الأحد كان هو تعب الضجر، غرفة اللُّعب غير المرتبة، الجسد يموت من السأم المتلكئ في الأركان. أمُّه تلعب الورق مع صديقاتها في الصالة وسط بريق الأساور والأقراط، الأفواه المصبوغة بأحمر الشفاه تتحدث مثل ببغاوات عن أطفال، وخدم، ووظائف الأزواج. أمي. ها هي الآن هنا، في خريف كامْبوليدي، تحتضر في غرفة عيادة أمام صحن به أشواك وجبة الغداء وضعته بنت العم قرب المزهرية قبل أن تنغمس ساهية في نسجها.

- على أي حال، اترك رقم هاتفك - أمره والدُه - أنت تعرف ما يجري في مثل هذه الحالات: قد يكون ضرورياً الاتصال بك في أي لحظة.

صديقات لعب الورق ينفجرن ضحكاً في جوقة، مائلات إلى الوراء فوق كراسي مخملية حمراء: عنقود من الوجوه البيضاء، يُفَكِّرُ، حول جثة البهولان المسكين الذي كان حذاؤه، المؤثر والسخيف، يشير إلى خيمة السيرك المثقوبة. شكّل زوجان من أعمامه حماراً يركضُ وينهق وهو يدور حول الحلبة، يحرك يميناً ويساراً مُشاقة عُرفه الوردية. أمينُ البيت المتزين بلباس غريب، شاربين مزيفين وجلد نمر من البلاستيك يستعرض وُشوماً رُسمت بقلم الحبر على ذراعه فيرفعُ، وسط زوبعة من التصفيقات، السريرَ حيث كانت تحتضر أمه، نحيفة وخفيفة مثل عصفور في فصل الخريف.

- طبعاً، أبي، في مكتب الاستقبال - وعدهُ.

يضع أبي السماعة دون أن يجيب فأحتفظُ بالهاتف صامتاً ملتصقاً بأذني، جامداً مثل محار بعيدٍ عن البحر. الصوت الضجر لعاملة الهاتف يسألُ:

- هل طلبتَ مكالمة؟

فينظرُ هو إلى الآلة، مندهشاً من الجدجد المتكلم الذي يسأله من الداخل بحزم: آه، مفتش الضرائب، لو أنها تسلطت عليه، ستُذيقُه الأمرّيْن.

- لا، شكراً، انتهيتُ للتو - تمتمتُ بسرعة وأنا أضع السماعة (درينْغ، تعزف الرّنةُ متعبة)، أواجهُ من جديد في المرآة وجههُ الذي يشيخ، شعره المتناثر الدسم على الدوام رغم غسيل الشامبو المتوالي، تجاعيد ما تزال شابة في الثلاثينيات تشق دروبها في خديْه وعلى جبينه: قريباً سوف أكون هالكاً. يُفَكِّرُ في الرجال المسنين بلباس السباحة على الشاطئ، بأثداء مترهلة وبطون رخوة يقفون على سيقان دقيقة لا شعر يغطيها، يركضون نحو الماء في مرح أخرق،

وفي أولئك الرجال الذين يرتادون مطاعم فاخرة رفقة فتيات شابات يوشوشون لهن فوق شرائح اللحم كلاماً حميمياً معسلاً، يظنُّ أنه في الشهر الماضي رأى امرأة شقراء تسوق سيارة والده كأنها تملكها فثار دمه يخفق بقوة في صدغيْه، غاضباً: أهداها بيتاً وأنا أكتري شقة من غرفتين في كامْبو دي أوريكي، أربعة سكان في كل طابق، أكياس الأزبال دائماً منفوشة قبالة مدخل العمارة، كلاب ضالة، غجر، أوحال، ملابس منشورة على النوافذ، رخوة وقبيحة، تزيد من حزن الصباح، كتب وجرائد في كل مكان، منافض سجائر متسخة، رائحة الطعام المقلي في المطبخ: ليذهب والدي إلى الجحيم. يجلس على سرير أمه ويداعب قدمها فوق الملاءة، بعظامها الضيقة، بأصابعها وعظام ساقها الناتئة. أمي العجوز. عينا المريضة، اللتان يعكرهما ضباب داخلي، ترقبانه من قريب ومن بعد في الوقت ذاته مثل الحيوانات السجينة في حديقة الحيوانات. رغوة وردية تنتفخ وتخبو عند طرفي الفم. يُفَكّرُ كم هي بعيدة فترات لعب الورق، كيف اتخذَ وجهُكِ كثافة غير متوقعة، وكيف يرتعش عنقك الواهن.

- أنا ذاهب، يا أمي.

لم يكن لدينا وقت، كلا، نخصصه بعضنا لبعض، وها قد فات الأوان، فات بكل غباوة، وبقينا هكذا ننظر إلى بعضنا، ساهميْن، غريبيْن، تُعيقنا أيادي غير ضرورية من دون جيوب ترسو فيها، نبحث في رؤوس فارغة من كلمات حنان لم نعرف كيف نتعلّمُها، إشارات حُبّ تُخجلنا، إشارات حميمية تُخيفنا. شاحنة تشغل نافذة الغرفة عن آخرها في صباح من الخمول، وجه السائق معتم وغير مبال يكاد يلتصق ببياض الستائر المصفرّة، بجلد المرايا الزجاجية، بقطع الأثاث المحايدة ذات اللون القشدي، بزرّ الجرس المعلق فوق

السرير في إحباط مجدول. المرأةُ الشقراء التي تقود سيارة والذي اخترقت السقف، عصا في يدها، تمشي بتوازن فوق حبل حديدي مشدود: حذار، دولوريس، لا تجازفي. سُحب طباشير صغيرة تسقطُ من حذائها المذهب الخاص بالرقص عند كل حركة دوران.

- إلى يوم الأحد، يا أمي - قال، ثم فَكّرَ بيننا لا يكون أبداً سأراك قريباً، دائماً إلى يوم الأحد، إلى يوم الجمعة، إلى يوم الثلاثاء، إلى الشهر القادم، إلى السنة المقبلة، ثم نتحاشى بعناية أن نواجه بعضنا، نخاف بعضنا من بعض، نخاف مما نشعر به تجاه بعضنا، نخاف من قول أحبك. اختفت الشاحنة ومكانها ظهر من جديد طلاء الواجهات المقشرة والحزينة لحيّ أموريراش، وبرزت الشرفات القبيحة، وشحوب السماء المنتفخ الأمغر، يافطة حلاق تتأرجح: صالون غوميش. لحقت به بنت العم في الممر، وبنبرة سرية:

- الطبيب يعطيها أسبوعاً آخر، على أكبر تقدير، يا عزيزي.

- ضرب السُّداد كل قلبها - شرح الطبيبُ الهندي وسط الحلبة لكل أفراد العائلة الذين كانوا يصفقون بحماس في المدرجات.

أخرج من جيبه شيئاً أحمر، مدوراً، يدمي، ثم عرضه بتثاقل من حوله.

- المرجو من الحضور الكريم أن يلاحظوا هذا الشيء بعناية.

حمارُ الثوب الذي شكّله اثنان من أعمامه ذهب راكضاً ليشتم القلب، فصدّهُ الطبيب بضربة حذاء ضخم. السروالُ الواسع جداً والقصير أكثر من اللازم كشف عن جوارب بخطوط حمراء والشعر الكبير المزيف في الساقين. حاملُ النقّالة الذي أخذ أمه إلى العيادة، تنكّر في زي بائع بالونات، وراح ينتقل من صف لآخر بكُراته

المُلونة. ظهرت ممرضة وهي تجري، تمسك إبرة في يدها، ثم اختفت في غرفة من الغرف الخلفية، فاضطر هو وبنت عمه أن يلتصقا بحائط الممر المعتم الذي كانت بعض بقع الشمس الشاحبة تتراقص هنا وهناك في سقفه.

- أسبوع على أكبر تقدير - كررت بنت العم - هل رأيت كيف تذبل من ساعة إلى أخرى؟

- هذا القلب سيّئ - صاح الهندي بنبرة دهنية لمروّض أفاعي في مهرجان شعبي، خلال فترة فاصلة وسط قهقهات الجمهور الذي يضحك من الحمار الممدد على الأرض، وبطنه إلى أعلى، يخبط بقوائمه - هذا القلب سيّئ، لكن، سيداتي سادتي، ما هو القلب الصالح؟ حسناً، هلا تفضّلتم ولاحظتم قلبي.

أخرج من تحت قميصه كرة لبديّة مجعدة تنتفخ ويزول انتفاخها بوتيرة إيقاعية، تحركها آلية معينة، ثم رفعها عالياً حتى يتمكن الجمهور المختار من رؤيتها، وإن أراد أحدهم أن يلمسها فلينزل إلى الحلبة، وفي تلك اللحظة نفسها برز كائن يرتدي ممسحة من وراء ستار وهو يتعثر، فاختطف منه الكرة بضربة كف سريعة ثم اختفى راكضاً عبر باب صغير يمشي على ساقين هزيلتين.

الموتُ، فَكّرَ. كنتُ دائماً أتخيّلهُ ملاكاً. أو امرأة ذات شعر أشقر. أو رجلاً طاعناً في السن، يحمل منجلاً في يده.

- أترك رقم هاتفي في مكتب الاستقبال في حالة ما إذا احتجتم لتتصلوا بي - قال لبنت العم التي تنظر إليه بحدقتَي دجاجة باهتتيْن لاذعتين: يجب أن أكون في طومار قبل موعد الغداء. ألصق أذنه بالباب، ولم يسمع شيئاً: لا بد أن أمه قد دخلت في نوم خفيف، تقطعه قفزات يقظة، نوم سنجاب، وسط مجلات غير نافعة خاصة

بالمرضى. أسبوع على أكبر تقدير. على طول الممر، كانت الجدران تحدق إليه بحقد: اذهب حالاً. دكتور أوليفيرا نونيش، دكتور أوليفيرا نونيش، صاح صوتٌ من ورائه. في الحجرة، ممرضة تحمل حلوى، تجلس على كرسي بعجلات، تعتني بأظافرها، تنفخ بطرف شفتيها على الأظافر التي صبغتها للتو.

عاملةُ نظافة ترتدي بذلة بنية، مطوية عند الأمام، تدفع آلة تلميع الأرضية كأنها قاطعة عشب من دون محرك: يا للسخافة أن يحتضر المرء صباحاً، ساعة تناول القهوة بالحليب والتنظيف الناعس للبيت، عندما يكتسي العالمُ الحجمَ المسالم لفنجان قهوة فارغ، وكم هو مؤسف أن يتوقف الإنسان عن التنفس قبل إشارة منتصف النهار، الذي هو بمثابة رأس بوجدور[1] الزمن، ساعة نفْض السجادات في الشرفات وحين يقوم الباعة المتجولون بوزن السمك والفواكه بحركات نزاهة كبيرة ومثيرة في خريف كامْبوليدي الرطب. خربش رسالة على قطعة ورقية (إن كنتم بحاجة لي، أنا في المكان كذا) وتركها لعاملة الهاتف النحيفة، دفع الحاجز الذي كانت مفاصله تصرّ مثل رُكَب صدئة وخرج إلى الشارع الرمادي تحت سماء رصاصية. في محل الحلاقة المفتوح، كانت المعادن تلمع، تتكاثر في المرايا، المقصات ترفرف فوق الشعر، تفتح وتغلق مناقيرها المشحوذة. بحث بعينيه عن نافذة غرفة أمه فاكتشف صفاً من حافات نوافذ متشابهة، تشققت صباغتها، مالت ستائرها، غاب الحَمامُ عن سطوحها،

---

(١) يظهر اسم رأس بوجدور، جنوب المغرب حالياً، في ملحمة «اللوزيادة» التي ألفها لويش دي كامويش سنة ١٥٧٢. ويرمز إلى مكان مجهول وبعيد، محفوف بالمخاطر. (المترجم)

وصارت مدخنتها السوداء تؤُحّ: من الأفضل أن تموت في البيت، على السرير الزوجي حيث كان يحلو لي أن أنام حين كنتُ صغيراً، في الأسابيع التي كانت تصيبني الحمى، أحاول أن أضبط جسدي الصغير مع ذلك الخندق الذي يحفره جسدُ والدي، بينما كُنْتَ تقفُ قرب الصوان، تضيفُ أرقاماً إلى سجل به مربعات وله غلاف أسود. جمراتٌ محتضرة في الموقد ترتعش من حين لآخر برجّات برتقالية. اللوحات في الصالة داخل إطارات خشبية منحوتة تمثل مناظر طبيعة، التواءات أنهار، أشجاراً، وكنائس في الأفق. وها قد جئتِ لتنهي حياتكِ بعيداً عن طاولة لعب الورق، بعيداً عن الكلاب الخزفية والصور الدائرية للأطفال المعلقة بما يشبه شجيرة فضية، بعيداً عن الخادمات، بعيداً عن كلاب الصيد، وصورة القديس يوحنا المعمدان الزيتية في قاعة الأكل. ممرضةُ الحلوى تنفخ على أظافرها المصبوغة، متكئة على مكتب والده، ورائحة الأدوية المقرفة تفسد عليه الأكل. أخذ يصعد ببطء الشارع نحو محج الترام: ركنتُ السيارة بشكل غير قانوني، جزء في القارعة وجزء في الطريق، يا إلهي ساعدني كي لا أؤدي غرامة. كانت كآبة الصباح تتسرب إلى وجوه المارة وملابسهم، حركة السير تنساب من دون صخب على طول جانبه كأنها حيوان ضخم متعدد ووديع: أولاً نحو الشقة في حيّ كامْبو دي أوريكي ليأخذ ماريلْيا، ثم طريق لا تنتهي نحو طومار، تعج على الدوام بالجرارات، والشاحنات، والدراجات النارية، والكلاب: ساعتان أو ثلاث ساعات داخل السيارة بالقرب منها، فماذا أستطيع أن أتحدثَ معها عنه كل هذا الوقت؟ إنني آخذكِ معي إلى طومار لأقول لك إنني لم أعد أُحبّكِ. يتخيلن بسرعة أن هناك امرأة أخرى: ليس هناك من امرأة، أريد أن أبقى وحدي لبضعة أشهر، كي أفكر،

وبعد ذلك سوف نرى، حاولي أن تفهمي. وجهُها الصامت، المتوتر، القاسي، يلومني في صمت عن أربع سنوات من الانتظار المحبط: دائماً الابتداء شيء سهل جداً والانتهاء شيء في غاية الصعوبة: وبعد المكالمات الهاتفية التي لا تنتهي، والاتهامات، والتوسلات، والصيحات، تأتي المساومة الأبدية المقنعة: إن حدثَ لي شيء ما فلا تشعري بالذنب. وصل إلى أعلى الشارع، قرب كشك يديره شخص متسخ يستعمل عكازيْن ويحمل شعار فريق بينفيكا، تنقصه عدة أصابع في يده اليسرى يقفز على رجْل واحدة مثل جرادة عرجاء. قبالته، رجل محترم يتصفح بتردد مجلة إباحية، تأخر كثيراً عند صورة بالألوان في الصفحة الوسطى، فتذكر أخواته المتزوجات منذ مدة، جديات، يمارسن النسج، ويُعدن إنتاج نموذج أمهن (نفس النوع من الصديقات، نفس النوع من الاهتمامات، لعب الورق، العطلة في منطقة الغرب، الأبناء): ألقى نظرة من فوق كتفه على الرجل المحترم. يا إلهي، ثديان ممتلئان، ثم فَكّرَ كيف هو حالهنّ في السرير مع أزواجهن، ينتظرن، في خنوع، أن ينزعوا ساعاتهم، يفرغوا جيوبهم، يخلعوا ملابسهم، يطوون بعناية سراويلهم فوق الكرسي، ليتمددوا في الأخير، بطونهم إلى أعلى، يفكرون في الصعوبات المالية لمقاولاتهم: أنا، على الأقل، أعرف دائماً متى تريدين ممارسة الحب، يا ماريليا، أشعر في عنقي بتنفسك المنزعج، أستعيد عجلة جسدك القلقة في دمي، أرى الاحتضار السائل في عينيك، أطفئ الضوء، أشكالٌ غامضة تتداخل في الظلام الأزرق، ذراع تتحرك، مرفق، رعشات أقدام، وأنا مثل قلم حبر «بارْكيرْ» في غمده الآن، الآن، الآن، الآن، الآن، الآن، أسْرِعَ من هذا، انتعظي، آه، كم هو حلو. يُفَكّرُ هل يكفي هذا؟ يُفكّرُ لا أرغب أبداً

في العودة إلى البيت بعد الدروس، أصعد السلالم، أدير المفتاح في القفل، تظهرين في إطار باب المطبخ تحركين شيئاً ما في القدر، سلام، حبيبي، ها هي قطع الأثاث المعتادة، الأشياء المعتادة، تلفاز يشتغل صامتاً وشخص بعيني سمك الغبر المقلي يخطب في صمت بداخله، أنا ذاهب، وداعاً، أو أبقى، ما هو البديل، وللذهاب أين، سأكون سعيداً وحدي، هل أستطيع أن أكون سعيداً وهذا القلق ينخر دواخلي على الدوام، هذه المغص الروحي، هذا القلق في الأحشاء، أدير زرّ الصوت، انضمام البرتغال إلى السوق المشتركة، أُسكتُه من جديد، ظهور الكتب تثير غضبي، العدّاد يثير غضبي، الدمى القماشية تثير غضبي، الأريكة الرخوة جداً تثير غضبي، أقترب من النافذة لأتأمل هدوء الشارع، السيارات الجامدة تحت المصابيح الكهربائية، الجلْد القمري للعمارات، كيف يفعل الآخرون ليصدقوا الكذبة، هل يعيش الأزواج الذين أعرفهم راضين عن أنفسهم، هل يفلحون في غسل أسنانهم في الصباح بأمل نسبي، ما الحل عندما لا يكون ثمة شيء يمكن معرفته، اكتشافه، ابتكاره، كانت أربع سنوات رائعة جداً، سامحيني، لكن أظن أنه من الأحسن أن نفترق، وأنتِ، القدر في يدك، فاغرة الفم في البداية، ثم يتجعّد جبينكِ من الشك وعدم التصديق، لا بد أنك شربتَ، قالتْ، لم أشرب شيئاً أقول أنا. على أي، اتركْ هذا الحديث لما بعد لأنني الآن لا أملك صبراً لأستمع إليك، تقول، لا يمكن أن أكون أكثر جدية من هذا، أقول، ويرتعش صوتي، اذهبْ إلى الجحيم، تقول من المطبخ وهي تعدل لهيب الغاز، ومربعات الخزف تضاعف صياحها، تكسره ألف شظية حادة، تنسخه فسيفساء دقيقة من الغضب، أجلسُ على الأريكة وأفكّرُ يا لها من خيبة هذه الصالة، كم هي حزينة هذه النسخة من لوحة بيكاسو من

مرحلته الوردية معلقة على الحائط، وكم هو قبيح مكتبكَ ذو الجوارير، الرجل المحترم يغلق المجلة ويضعها من جديد فوق رفّ الجرائد الذي كانت خلفه طفلة صغيرة من ثماني أو تسع سنوات تعض سندويشاً بلحم الخنزير وهي تحدجني بحدقتيها الواسعتين المسمرتين والداكنتين، يُفَكّرُ سوف تمطرُ، هذ الرطوبة في الجو تنذر بنزول المطر، فتبهتُ بنايات حيّ أموريراش أكثر من ذلك، وتزداد شحوباً، وقبحاً، وشيخوخة، وحزناً، يجد سيارته، من دون أي غرامة على الزجاج الأمامي، بين دراجة نارية وسيارة أمريكية من سنوات الخمسينيات لها زجاج أخضر، وبداخلها رجل قصير يضع قبعة على رأسه، يزين من دون شك معصمه بسوار، وسلسلة، وخمسة خواتم، وصورة زوجته وأطفاله يُفَكّرُ فينا ونحنُ فوق لوحة القيادة، لا بد أنه ينتظر عشيقته التي تعدل شعرها عند الحلاق في الطابق الثاني على اليسار، والرجل القصير ذو القبعة منشغل بأزرار المذياع في سيارته، دفق من الموسيقى، والصفير، والأصوات المشوهة تصدر مخنوقة من الداخل، فتحْتَ الباب من جهتكَ، جلست خلف المقود، كم هو غير مريح هذا المقعد والآن إلى حيّ كامْبو دي أوريكي لآخذ ماريليا والأمتعة، ليست لكَ أي رغبة في الذهاب رفقة أحد، فندق طومار، الوجوه المألوفة وغير المألوفة، فوضى الوصول، طول الليل الفظيع إلى جانبكِ، ملتصقاً بالصخرة النائمة لكليتيْكِ. نزل عبر شارع أرْكو دو كارفالياو يفرملُ دائماً (ثمة شيء ما لا يشتغل في هذه الكومة من الخردة، يوماً ما سوف أحطّم عظامي على جدار وتنتهي المشاكل، والتردد، والدروس، والكتابة، والتجشؤ المقرف لهؤلاء النقاد الأوغاد) ثم حوّل الاتجاه عند إعلان مضيء بعد أن تجاوز مخفر الشرطة حيث جندي رصاصي مسالم يحمل رشاشة ويحرس المدخل،

واتجه نحو شارع أزيدو غْنيكو عبر هندسة الحيّ التي لا سحر لها، بمقشداته ومحلاته الرديئة التي تفوح برائحة دفاتر المدرسة والجبن الجبلي الفاسد. أمام عمارته، كان جماعة من الأطفال يلعبون الكرة فوق الزفت. عجوزٌ رفقة كلبها البدين وفي يدها كتاب صلوات دخلتْ إلى محل الحلويات المجاور لتشتري خبزاً محمّصاً للقربان المقدس. السماءُ تنفرج في الجهة الأخرى من النهر وسط غليان قاتم للسحب: براز مداخن بارّيريْرو، فكّرَ، ليحيا البرتغال الصناعي. من بيت أحد أصدقائه كان يُرى الرصيف والمعامل في الضفة الأخرى، وفي المساء أنحني من النافذة بينما الزملاء يتحدثون عن الأدب، والسياسة، والموسيقى، سكارى بكونياك رديء وسجائر فرنسية مقرفة من دون مصفاة، ينظرون إلى السماء القاتمة من فرط الفحم: كان ذلك في السنة الأولى التي عشنا فيها معاً وفي تلك الفترة كنت أرغب بقوة في جسدكِ فأظل جامداً، واقفاً في الصالة، أراقب بدهشة حركاتكِ، ابتسامتكِ، الانحناء الضيق لكتفيكِ. اللعنة، كم مرةَ كتبت اسمكِ بسبابتي بينما الحروف تنزلق نحو إطار النافذة، كأنها تذرف دموعاً طويلة تشبه سيقان خشبية طويلة. أغلقَ السيارة وعبَرَ الشارع نحو تلك العمارة على شكل جارور التي يكرهها وفَكّرَ حيّ كامْبو دي أوريكي يسكن عظامي بشكل لا رجعة فيه، أظن أنني لن أستطيع العيش بعيداً عن هذه المجموعات من البنايات القبيحة التي لا طعم لها، بعيداً عن هذا السجن الكئيب ذي الواجهات المشابهة بطريقة غير متساوية، التي بنيت بورق مقوى لا قدر له وديكور حزن خنوع. والدُه، يرتدي بذلة مرشد، بلحية لم تُحلق وحذاء لم يُلمّع، أشار إلى البيت بسبابته المستعجلة، يتبعه سرب من اليابانيين المبتسمين وقصيري النظر:

– عاش هنا أربع سنوات قبل أن ينفصل عن زوجته الثانية وهو

في سن الثالثة والثلاثين. لم يكن له أطفال ولم تحدث شجارات عائلية: لم ينتبه الجيران لأي شيء، ولم تعلم حارسة العمارة بالخبر إلا بعد أسبوع. غادرت زوجته ولم تحمل معها سوى ما كانت ترتديه من ملابس بالإضافة إلى فرشاة الأسنان، اكترت شقة في حيّ ساوْ سيباشْتياو ثم غادرت التعليم. يبدو أنها تنوي الهجرة إلى أنغولا: أضعفت الشيوعية دماغها.

- هل وصلتَ؟ - صاحت ماريليا مندهشة. كانت هناك حقيبة مفتوحة فوق السرير (نفس الحقيبة يوم عرفتُك، الأمور لا تتغير كثيراً) وصدرها يختفي في دولاب الملابس الذي عُلّقت ببابه الزجاجي ربطات العنق والأحزمة التي لم أكن أستعملها أبداً: لم أكن أرتدي سوى قمصان بمربعات، سراويل جينز وسترة مبطنة بالفرو، بذلة أهل اليسار السياسي: والدي غني، وهذا يمنح قيمة لاختياراتي الطبقية. رائحة خفيفة عذبة تتسرب من الجوارير وعطرُك يعم كل مكان، حتى غيابَك حين أتذكّرُكِ. مثلاً، أتحدث مع أحد التلاميذ فتزورني تلك الرائحةُ بقوة حتى أنني أبحث عن يدك فوق ذراعي، لكنك غائبة، أتحسّس الهواء الذي يلفّني بحركة منحرفة لكنك لستِ هناك، وبعد ذلك، شيئاً فشيئاً، بقدر ما تبتعد عني بداخلي، أكف عن التعثّر بعطرك، وتذكر تجاعيد وجهك حين تشتغلين، أكف عن التحسر عن غيابك عندما أتناول الغداء وحدي في مطعم المدرسة. بدأت أمي توزع أوراق اللعب، تدير رأسها نحوي وتقول لي:

- لم نوافق قط على ذلك الارتباط.

- كيف حال أمك؟ - سألت ماريليا وهي ترتب كومة من القمصان. لم أكن أنتظر أن تصل بهذه السرعة.

كانت أمي ترفض استقبالك فتجيبينها بتكشيرة متعالية: أنا لست

بحاجة إلى هؤلاء النازيين الحقراء، لكن حين أذهب إلى هناك لأعياد الميلاد أو لحفلات الميلاد، كنت ترمينني بتلميحات غامضة. أنت لست سوى بورجوازي بليد، محافظ لا يستساغ، سوف أشتكيك إلى **الحزب**. ذات مساء، أغلقت على نفسها في المرحاض لتبكي، فتلصص عليها من ثقب القفل: كانت تنظف بورق صحي جفنيها اللذين انتفخا فجأة: كم كنت أرغب في أن أُقبّلكِ، أحبّكِ أحبّكِ أحبّكِ، أمارس الحب في عين المكان، واقفاً، على مربعات الخزف، وأتحدث عن تعقيدات الحياة التي لا أفهمها.

- العيادة لا تُعطيها أكثر من أسبوع - أجابها - المشكلة أن أسبوع العيادات لا يتجاوز أبداً ثلاثة أيام.

- لم أكن أبداً أتصور أن نهايتي ستكون على هذا النحو - أكدت أمي وهي تقدم الشاي لصديقاتها في إبريق شاي فضي لجدتي - كنتُ أتصور أي شيء آخر أكثر متعة، أكثر تحضراً، شيئاً مختلفاً، بعيداً عن هؤلاء الممرضات الفظيعات بأظافرهن المتسخة وهذا الطبيب الأسود الذي يشبه زوج ماهاليا جاكسون[١].

- ألم تلاحظن أنه لا تنقصه سوى القبعة العالية؟ - سألت أختي الكبرى بضحكة شرسة - سوف نغنّي جميعاً في جوقة روحية أغنية زنجية.

- أخرجْ من الجارور ما تريدُ أن تأخذ من سترات - قالت ماريليا - أنا وستراتك لا نتفاهمُ جيداً: لدي الانطباع بأنني أختار منها دوماً تلك التي تثير سخطك.

- لم تكُن تملك أي حس بالألوان - قالت غاضبةً بنتُ العم في

(١) مغنية أمريكية من أصول إفريقية (١٩١١-١٩٧٢). (المترجم)

العيادة وهي تُلبس أمي المرحومة تنورة سوداء وخضراء بلون الخس كما لو أنها تُلبس دمية قماش كبيرة. المسكينة كانت بنت أحد أفراد الحرس الجمهوري وكان سوء الذوق يسري في دمها.

أول شيء لاحظتُه في بيت والديْكِ (كنا نأخذ الحافلة كأننا نقصد نهاية العالم) كان هو لون الجدران وكثرة المناديل، ساحرات من الخزف وتماثيل سانشو بانثا برونزية بدل الكتب، يا ماريليا، ثم الحديقة الصغيرة المهملة أمام البيت التي كانت القطط تعبث فيها بخطواتها المخملية الخفيفة. جلستُ بخجل فظيع على أريكة ذات مسند مزين بتخاريم منسوجة بالصنارة، كأس بورتو في يدي، أتحدث مع والدِكِ بينما أنتِ وأُمُّكِ تحضران مائدة العشاء، مناديل بها تخاريم، أواني لامعة، صحون صغيرة مملوءة باللوز وقطع الشوكولاته. اليدان الضخمتان لعضو الحرس الجمهوري تتأخران، محرجتين بدورهما، عند أزرار قميصه، **ألا** تريدان أن تلتحقا بالمائدة: حساء، لحم مشوي، نقانق معلبة ترتعش كأنها ذقن مزدوجة تضحك، وأخوك الأصغر الذي لا تفارقني عيناه، مرتاباً، المصباح ذو الحديد المسبوك في الشرفة الخارجية، **ليلة** سعيدة، شكراً جزيلاً، ومن جِديد الحافلة، الفارغة الآن، نحو وسط المدينة والنهر هناك في الأسفل، جامداً، تسكنه عيون القوارب.

- سوف نصل إلى طومار متأخرين جداً - قال.

يوم الأحد، إذن، كان يذهب إلى بيت والديْها، ناس من دون تصنّع، ولا بهرجة، يستقبلونني بلطف، ندرس معاً جالسيْن على أدراج حجرية في الحديقة الصغيرة خلف البيت، ترتدين فستاناً بأزهار يُبرزُ وركيْكِ، وعبر الزجاج الكامد لباب المطبخ كنا نلمحُ أمك تصارع المقالي تحت ساعة حائط كهربائية تتقدم عقاربها من دون

ضجيج، معجلة بالغروب؛ ويبرز والدُكِ داخل إطار النافذة ينتعل خفَّين ويرتدي منامة **ألا** تأتيان هنا إلى الداخل، كان يشتغل في شبابه مُوجّهَ قطارات في شركة السكك الحديدية، والآن صارت البنت مهمة، تحضر أطروحة دكتوراه وتعطي دروساً للأغنياء في الكلية، تساهم في نفقات البيت من دون احتجاج، تفتح محفظتها، **خذوا**، خذوا. ومع ذلك، فَكّرَ، أنتِ تنتمين حقاً للوسط الذي تتحدرين منه، لم أر في حياتي قدمين كبيرتين مثل قدميك، بأظافر مسطحة وعريضة، بها شقوق كثيرة، مثل طائر من فصيلة كفّيات القدميْن في الجهة الأخرى من الملاءة أو تنخسين فخذيّ إن أنا تمددتُ، **هيا**، هيا، يا حبيبي، جلدك ناعم جداً، وقضيبك هو الأجمل.

- أحْضرْ أدوات الحلاقة ولن يبق سوى أن نغلق الحقيبة - ردّت ماريليا.

- إن الارتباط بين شخصين ينتميان إلى طبقتين اجتماعيتين مختلفتين دائما ما ينتهي بالفشل - قالت أخته وهي تنظف فم طفلها الأصغر بمريلة تزينها صورة ميكي.

نعم، لكني قبل خمس سنوات، كنتُ مثالياً مفعماً بالحماس، مغفلاً بعض الشيء، خرجتُ نصف مصاب من زواجي من توشا أومن بالثورة، فَكّرَ وهو في الحمام يُدخل في علبة بلاستيكية الشفرة، رغوة حلاقة، فرشاة الأسنان، مشط الأسنان الذي يرافقني لا أدري منذ متى، الشامبو الذي سوف يمنح رأسي الأصلع شيئاً من اللمعان. ظهر وجهه المنشغل العابس، ظهر في المرآة. عرّابتُه، وهي ترتدي لباساً مثل سيدات كلاب صغيرة مروضة، ترج بقوة قرطيها الطويلين وتشير بإصبعها إلى إطار مخملي نحو الجمهور.

- صدقوا أو لا تصدقوا، ولكنه كان رضيعاً جميلاً.

زوجُها، المتنكر في هيئة مهرج، برز من خلفها، سحب الرباط المطاطي لسرواله ذي المربعات فانبجس خيطان مائيان من عينيه.

- من كان يستطيع أن يتنبأ بأنه سينتحر بهذا الشكل؟

الوجهُ في المرآة حاول رسْم ابتسامة كأنها زهرة في كتب للأعشاب، مرّرتُ إصبعاً محبطاً على صلعي المبتدئ. يُفَكّرُ ما الذي نبدأه في الثلاثين؟ كان له صديق قد يأويه في بيته، اقترح عليه أن ينام في سرير في الشرفة المغطاة (لدينا أطفال، ولا نملك شيئاً آخر، هل فهمت، سامحني) خلال الأسابيع الأولى، لكن وبعد ذلك؟ التلاميذ، غرف الكراء، السينما من حين لآخر، والفراغ.

- هناك دائماً أمل - صاح والدُه بردائه المُذيّل وقبعته الدائرية وهو يخرج دفقاً من أمطار قطع نقدية من أنوف الأطفال الجالسين في الصف الأمامي.

- ماذا إذن، هل سيكون ذلك اليوم أم يوم الغد؟ - سألته ماريليا من الغرفة.

يُفَكّرُ ليس لديكِ أدنى فكرة عما أحضرُه لكِ. أو ربما لا يهمك ذلك في شيء، فالناس لا يمكن التكهن بهم، لا أحد يعلم. عندما قالت لي توشا إنه من الأحسن أن نفترق، كنا في الصالة معاً، يدها في يدي، نتابع برنامجاً مسرحياً على التلفاز، وفجأة، بينما كان عجوز ذو لحية على وشك أن يفتح فمه، سمعتُ صوتكِ مكان صوته، صوت هادئ، مهذب، من دون حواف:

- أودّ لو تغادر مع نهاية الشهر.

الملامحُ في المرآة صارت مدورة من الدهشة، ثم اطمأنت. لا تكن بورجوازياً أكثر من اللازم، ربما يسمح لك الطلاق في النهاية

بكتابة تلك الدراسة حول سيدونْيو بايشْ[1] وفِكْرِهِ، التي طالما كنت تخطط لإنجازها.

- لا أشعر نحوك سوى بالصداقة - قالت توشا - وحين لا نشعر بأي شيء، بِفْفْفْ.

ترك يدها وأشعل سيجارة.

يُفَكّرُ وماذا الآن؟

- مشكلة هذه الشاب - قالت الأم وهي تحصي النُّقط مبتسمة - أنه لم يفلح قط في أن يحبه الآخرون.

نهض ليطفئ جهاز التلفاز (تقلّصت الصورة، ثم تقلّصت، وتقلّصت، وتقلّصت حتى لم تعد سوى نقطة مضيئة على الشاشة) وراح يمشي جيئة وذهاباً بين الأريكة والصوان. يُفَكّرُ **أنا** عاجز عن التفكير، لن أفلح أبداً في أن أفكر في هذا الأمر، لا يمكن أن نأمر هكذا شخصاً، بعد كل هذه المدة. **ارحل**، تعاملني كما لو أنني نفاية، قطعة خراء تُكنس من الشارع. حقد هائل يكبر في أحشائه، إن كنتِ تتصورين أنك ستنتزعين الطفلين مني، يمكنك دائماً أن تفتشي جيوبك. يُفَكّرُ **أيتها** الساقطة الدنيئة لا بد أنك قد خططتِ لكل هذا مع صديقاتك منذ شهور وشهور؛ مسارات، همسات، اتصالات هاتفية بأحد المحامين المعروفين، مؤامرة خسيسة بين عاهرات. ما كنت ستخوضين وحدك في وقاحة من هذا الحجم. كنَسَ بذراعه كل ما كان فوق الصوان الإمبراطوري: صور وأشياء خزفية تكسرت محدثة ضجيجاً فوق الأرضية.

---

(١) سياسي برتغالي (١٩١٨-١٩٧٢). تقلد عدة مهام قبل أن يصبح رئيساً للجمهورية. طبع تاريخ البرتغال الحديث بشخصيته المثيرة للجدل وأفكاره المتطرفة المحافظة. (المترجم)

- ما كل هذا الهراء؟ - صاحَ.

أغلق العلبة البلاستيكية وعاد إلى الغرفة. كانت ماريليا قد أغلقت الحقيبة وظلت تتأمل، جالسة على السرير، سُبْحة الخرزات في الأنبوب الزجاجي لحوض الأسماك والسمكة الشفافة التي كانت ترتعش مثل ورقة، هناك بالداخل.

- لا بد أنه يعاني من الحمى - قالت.

- هذه السمكة يبدو دائماً أنها تعاني من الالتهاب الجيبي - أجبتُها وأنا أرتب العلبة البلاستيكية داخل الحقيبة. أَعطيه كل ست ساعات قرص تراسيكيلن وضعيه له في الماء ليذوب.

المصعد ذو البابيْن المعدنييْن وصل يرتعش مثل قارب صغير. على الصف العمودي أزرارٌ سوداء فوق لوحة من الكْروم وبينها زرٌّ أحمر نُقشت عليه كلمة «إنذار»: كلما ولجَ هذا رقّاصَ الضّغط المهترئ تجتاحهُ رغبة مجنونة في أن يضغط على الزرّ الأحمر ويسمع ما يتصور أنه ضجة مرعبة تنطلق من صفارة إنذار داخل ثكنة رجال المطافئ ويردم البيت تحت أنقاض صيحاتهم. وتخرج حارسة العمارة البدينة الشعثاء من غرفتها الضيقة، مسلحة بمكنسة عدوانية خاصة بالمناسبات الكبرى. سحب أمتعتهُ نحو المصعد، أغلق الدفتين وضغط على زرّ الطابق الأرضي، وظلّ الاثنان محتجزين داخل ذلك التابوت الجنوني الذي ينزل وسط مطبّات نحو الشارع.

- هل وضعتَ وقوداً في السيارة؟ - سألتْهُ.

- لا تثر مشاهد سخيفة - قالت له توشا وهي تفرغ محتوى منفضة سجائر في وعاء فضي. ولا تُكسّر كل الأواني. فكّرْ شيئاً ما في الجيران.

- مع مزاج مثل مزاجكَ، ما الذي يمكن أن ننتظره؟ - سألتْه

الأختُ الصغرى، وهي ترتدي عمامة وسروالاً فضفاضاً، تمشي حافية القدمين فوق سجّاد من شظايا القناني. وأحد أبناء أختها، بسرّته العارية، يتبعها يعزفُ على الطبل.

حركت الأمُّ معصميها الأبيضين بياضاً فظيعاً فوق ملاءة العيادة:

- المسكين - همست قائلة - لقد ولد من دون بوصلة.

- نعم، لقد وضعت الوقود - أخبرها بتشنج - تفقدت الإطارات، وماء البطارية، وزيت المحرك، وتوازن العجلات، كما طلبت باللاسلكي من كل سائقي البلاد أن يفعلوا الشيء نفسه. إن تفضلت سعادتكم بمرافقتي، فإننا نملك إمكانية كبيرة للوصول سالمين.

يُفَكّرُ لماذا أتوتّرُ كثيرا، ولماذا، يا إلهي، أتوتّر كثيراً مع الآخرين لأي شيء تافه؟ فجأة، من دون سابق إنذار، من دون تحكم، تجتاحني موجة غضب، فتنتفخُ خصْيتاي، تنعقد أمعائي بفعل الغازات، ويجتاحُ تنمّل غريب أصابعي فأبدأ في الصياح من دون سبب.

- الكلبُ النبّاح لا يعضُّ - قالت توشا كأنها مشوهة في واحدة من تلك المرايا المتموجة في المهرجانات الشعبية، على خلفية من الضحكات والصراخ - إن لم ترحل، فسأرحل أنا - أضافت بكل هدوء وهي تلف سيجارة. ظلت ساقاها الجميلتان مشبكتين كالعادة، وكان جفناها المخفضان يمددان نصفيْ قمريْن من الظلال على خديها. يُفَكّرُ أنت جميلة جداً. يُفَكّرُ ماذا سيقول ولداي عن كل هذا؟

أغلق دولاب السيارة بضربة قوية (كان المفتاح دائماً يدخل بصعوبة، كأن شيئاً ما يقاومه من الداخل) فبدت له الواجهات

الرمادية تحت سماء شارع أزيدو غنيكو الداكنة فارغة من أي شكل من أشكال الحياة، محايدة تماماً وعمياء. ربّات بيوت متوسطات العمر يركضن على الأرصفة يسحبن أكياساً ذات عجلات صغيرة تقفز فوق حجارة غير متساوية. غجري عجوزٌ لم يحلق وجهه وثملٌ حدّ الموت يحاول عبثاً أن يصعد فوق مقعد عربته المتهالكة. يُفَكِّرُ أهذه هي الحياة؟ تزوجت توشا مرة أخرى (شخص يضع نظارتين، غبي نوع ما، ما الذي أعجبها في هذا الوقح؟)، كان يزور ابنيْه مرة كل أسبوعيْن، يضغط على الجرس في الأسفل وينتظر، اليد التي تسمك القدّاحة ترتعش، وفجأة يلتف الطفلان حول ساقيه سلام بابا، هل نذهب إلى حديقة الحيوانات يا بابا، هل نذهب إلى السيرك يا بابا، وتلك النظرات المغرقة في الحزن، شبه السائل، للزرافات. يتناولان مثلجات وفستقاً، يشتريان بالونات، لا يهتمان بعجول البحر، ثم على الساعة السابعة مساء يرنّ الجرس، ينفتح الباب فيما يشبه تجشؤاً كهربائياً، ويختفي الصغيران راكضين، وقد نسياه، فيشعر بالهجران حتى أنه يرغب - يا له من أمر مزعج - في البكاء.

- بالنسبة ليوم من أيام وسط الأسبوع، هناك حركة سير كثيرة - قالت ماريليا وهي تبحث عن قطع العلك في المحفظة.

- مشكلتُه أنه لم يؤمن يوماً بأي شيء، لم يزرهُ الإيمانُ المقدس في يوم من الأيام - أكد عرّابه، الموشح بمسوح القس، وهو يعمد التابوت (مجموعة من المهرجين الأقزام متنكرين في هيئة نساء يلتزمن الحداد كانوا ينتحبون ويصرخون في ركن وهم يلوحون بمناديل حمراء كبيرة) والإنسان الذي لا يؤمن بأي شيء، أعزائي المسيحيين، هكذا تكون نهايته - ختم وهو يفتح ذراعيه وسط ضجة من الصنوج.

ألقت ماريليا ورقة العلكة من النافذة المثلثة وراحت تمضغ

بصوت مرتفع. غادرا لشبونة وراء طابور من الشاحنات العسكرية التي تعج بجنود لهم وجوه طيور حادة وقلقة. يُفَكّرُ ليست لدي أدنى رغبة في الذهاب إلى المؤتمر، وليذهب القرن التاسع عشر إلى الجحيم. يُفَكّرُ لن تتصوري خطاب الوداع الذي سوف أستظهره عليك غداً أو بعد غد، الجمل المسرحية الجميلة، وقفات الصمت الثقيل المشحونة بإيحاءات دقيقة، الحركات المدروسة، بينما أنتِ، واقفة وسط الحقائب في غرفة الفندق، تنظرين إليّ ذاهلة.

- لا تحلمي بطلاقي منك - قال لتوشا وهو يدفع بقدمه شظايا الخزف تحت المائدة. أما أنك سئمت مني، أيتها العاهرة، فلا عليك، سوف أمدك بكل أسباب السأم مني.

- ألا تأتيان للعشاء؟ - سألت أمُّ ماريليا وهي تُدخل رأسها من نافذة المطبخ مثل عصفور ساعة حائطية. كانت الشمس تتخثّرُ قشرات كبيرة خضراء فوق الأشجار، رائحةٌ دهنية لأزهار البغونية والأموات تأتي من المقبرة المجاورة، ونحنحة فرد الحرس الجمهوري تهز الجدران. أما والد توشا، عكس ذلك، لا يَؤُحُّ أبداً، يرتدي صدرية ويضجر لأيام متتالية في مكتبه يستنشق غبار كتب ضخمة قديمة ويشرب ويسكي بلون البول من قنينة تحمل بطاقة معقدة. أمي كانت تلعب الورق مع أُمّهِ التي كانت تعاني من أحد أمراض القلب يجبرها على الإيماء برأسها على الدوام كأنها تقول نعم، ويبدو أنها في شبابها هربت لبضعة أشهر مع ابن عم لها، ضابط في البحرية يدعى طوماس. والآن صارت امرأة عجوزاً غير نافعة، تكاد تكون مؤثرة، تغطيها الحلي، تترك الأوراق تسقط من بين أصابعها بخرق ما كان يغري أي ملازم.

أُفَكّرُ إنني أدخنُ كثيراً، إنها أول سيجارة أشعلها منذ بداية

الرحلة، بينما منازل منعزلة، أعمدة تلغرافية، سائق دراجة منفرد، هنا وهناك، تنزلق من هذه الجهة أو تلك من غطاء محرك السيارة كأنها مياه شقتها مقدمة سفينة. حقولٌ خريفية مسرنمة تنتشر، من دون أدنى عظمة، عبر تلال حقيرة مدورة تشبه جماجم صلعاء: شقة شارع أزيدو غْنيكو تبتعد عنهما، بكتبها، بملصقاتها المعلقة على الجدران، وطرادة الماء المعطلة على الدوام.

- لم يؤمن بأي شيء قط، لم يؤمن حقاً بأي شيء قط - كرّر عرّابُه راكباً حماراً زائفاً، ودموع تنهمر أخاديد داكنة على وجهه المطلي.

القرن التاسع عشر، فَكَّرَ، من ذا الذي ما زال يهتم بالقرن التاسع عشر؟ نصف دزينة من الستّينيّين الأغبياء، بعض الفتيات المفرطات في القبح الفظيع، أجنبي أو أجنبيان غافلان تكلفت الكلية بمصاريفهما، نساء عفنات، يستطعن الحديث لمدة اثنتي عشرة ساعة متتالية أمام حشود سكرانة بالنومٌ عن نزول مينديلو[١].

- سيجارة أخرى؟ - سألتهُ ماريليا، مندهشة - انظر إلى لون أصابعك!

الطبيب الهندي يعرض صورة صدر بالأشعة أمام النافذة:

- سرطان الرئة - قال مُشخّصاً المرض - أراهن أنه من النوع الخلوي. ما زال بعض الوقت لتذبل ووداعاً لكل أمل. حينئذ سوف تُعقم غرفة أمك وسيكون السرير الفارغ جاهزاً لك أنتَ.

---

(١) إشارة إلى حدث طبع الحرب الأهلية البرتغالية، عندما نزل الليبراليون بزعامة الجنرال براغانْسا في مدينة بورتو يوم ٨ يونيو من سنة ١٨٣٢. (المترجم)

وإلا، يا توشا، كُنّا يوم السبت مساء نخرج للنزهة على الطريق الساحلي في سيارة بيجو القديمة التي أهداني إياها والدي، الأشكالُ الداكنة، الهندسية لمخازن رصيف الميناء تنتصب ضخمة على ضفة النهر، أبواب السيارة ترتطم وتهتزّ مثل الصفائح المعدنية لعربات قطار «قصر الأشباح» الذي يجول بين رؤوس الأموات والهياكل العظمية. كنت أود أن آخذك إلى غينْشو، لكن خصيتَيَّ كانتا تؤلمانني، فاضطررت لأوقف السيارة عند قارعة الطريق حيث كان يُسمعُ البحرُ وحيث كانت الريح توجه للزجاج لكمات رملية قوية. كنت أودُّ أن أقبّلك في العتمة التي تفوح برائحة حشو مقاعد السيارة، المطاط المحترق وأعقاب السجائر الباردة، وهناك في الأسفل تنكسر الأمواج فوق الصخور في حقد عارم. كنت أودُّ خصوصاً أن أغادر كل تلك الأماكن المضاءة نحو باحات مواقف السيارات المقفرة أو نحو الأزقة المتقاطعة في حي كاركافيلوش المأهول بفيلات داكنة، وأبحث عن نهديْك بيديّ، عن ثنية فخذك، عن اللعاب من دون طعم في فمك. حينها قالت توشا أودُّ أن أذهب لأرقص، وفي النهاية، دخلتُ مستاء، أمشي وراءها، داخل مغارة صاخبة، مضاءة بأضواء متقطعة، تعج بأشخاص لهم أشكال غير واضحة يجثون فوق مناضد خفيضة أمام أطباق من الفُشار. يُفَكِّرُ **هل** تزوّجتُ لأنني كنتُ أحبكِ أم لأن الجميع كانوا يتزوجون وقتئذ، أخواتي، بنات عمي، أصدقائي، صور أزواج شبان ومجموعات بكؤوس في الأيادي، وموائد عريضة تفيض بالمأكولات؟ يُفَكِّرُ **هل** تزوّجتُ بسبب الدوار الذي أغرقتني فيه رائحةُ جسدك، حركاتك البطيئة المائلة، ذراعاك غير المباليتين، الجامدتان، من دون حياة؟ يُفَكِّرُ **هل** تزوّجتُ لأنني كنت واهماً أنني سوف أتحكم في شيء ما، في نفسي على الأقل،

في أكل ما يحلو لي، والنوم متى شئتُ، وألا أدين، اللعنة، بتبريرات لأي أحد؟ يُفَكِّرُ كنتُ في العشرين من عمري، فهل كنتُ أريد أن أضع خاتم زواج في يدي، أختار بدلاتي بنفسي، أكون راشداً، أذهب لأتناول العشاء في بيت والديّ وأنتِ إلى جانبي، قصية، عابسة، صامتة؟

- لم أحبه كثيراً قط - قالت توشا وهي تطفئ سيجار الحشيش في المنفضة - لم أكن أطيق هوسه بالكتب.

- يا لها من عائلة جافة لهذا الشخص - قالت صديقتي الأولى مرتدية لباس لاعبة عقلة وهي تدهن يديها بمسحوق الطباشير. كانت شبكة سيرك كوليزي تلقي بظل هندسي مائل على وجهها. لم أستطع قط أن أحب هؤلاء الناس.

وفي انتظار ذلك، أتفهمين، ليس لديّ من شيء آخر أقدمه غير أنفة والدي القصية، حصص لعب الورق لأمي في الصالة الغارقة في الدخان، القهقهات الواضحة المؤثرة لأخواتي، صمت الطابق ولونه العسلي صيفاً، قطع الأثاث التي تغطيها خرق ملاءات مغبرة. البيت، الحديقة، القداس في كنيسة سانتا إيزابيل، شارع ساو دومينغو إلى حدود شارع لابّا المنسحق تحت الشمس: حينئذ، يُفَكِّرُ، أدركتُ أنني كنتُ ميتاً، وأنني لا أستطيع بعد أن أتظاهر بأنني ما زلت على قيد الحياة. حدث موتي الأول يوم عيد ميلادي، عند المائدة، وأنا محاط بالجميع، بمن فيهم توشا، متنكرين في هيئة فرقة من البهلوانيين البلغاريين، يضحكون ويصيحون، يحاصرونني بلكنتهم الغريبة على خلفية فوضى من المزامير والطبول. للحظةٍ توقفت ماريليا عن المضغ، أنزلت زجاج السيارة لتلقي بعلكها إلى الخارج، بحركة سريعة، بحثت عن وضعية مريحة لردفيْها ثم قالت:

- ألا يمكن أن نتوقف لتناول قهوة؟

مقصف على جانب الطريق، منضدة شرب طويلة، بعض الموائد والكراسي، بعض القناني المليئة بالحلوى، رجل بدين، تائه في شساعة الظهيرة، يطارد الذباب بخرقة متسخة. وراء ستار تزينه قطع خشبية، امرأةٌ عجوز تتكفئ على دلو بلاستيكي تقشر حبات بطاطس. كلبٌ مصفرّ، بعينين مشوشتين من فرط الرّمص، يتردد أمام الباب ويطوي بلطف إحدى قوائمه على طريقة إصبع يمسك فنجان شاي. اقتربَ منّا الرجل البدين يعرج بطريقة مائلة.

- قهوتان - طلبتُ منه.

يُفَكِّرُ هل تكون المرأة العجوز أمّهُ؟ أخته؟ زوجته؟ ربما تكون زوجته: في المساء يتدافعان وهما يدمدمان فوق سرير ضيق جداً، مفكك أكثر مما ينبغي، ملتو، منحرف بسبب المعارك التي لا تنتهي، ونوبات الأرق الحقود، والعناق السريع فوق الفراش المترهّل. وضع الرجل فوق المنضدة فنجانيْن، ملعقتيْن صغيرتيْن، ظرفَيْن من السكر ثم سحب بقوة رافعة معدنية. الكلبُ، يطاردُه زنبور عنيد، تبخّرَ خلال الظهيرة، ثم فَكَّرَ عندما اشتريتِ آلة تحضير القهوة، يا ماريليا، وجلبتها إلى بيتي، أدركتُ للمرة الثانية أنني هالك، ما الذي أستطيع القيام به كي أفلت منك؟ ثم جاء الدور على الحقائب، وفرشاة الأسنان المجهولة التي ظهرت إلى جانب فرشاتي في الحمام ثم امتلأ حبل الغسيل بالسراويل والأقمصة التي لم تكن لي.

- أين تريدينني أن أذهب - سألَ توشا.

- إن التردُّد - قال الطبيب النفسي الذي يرتدي ملابس مروض النمور، كرسيٌّ في يده اليمنى وسوط في اليسرى - يُعدُّ ميزة أساسية من شخصيته. إن سألتموه إن كان يفضل أن يعيش أو أن يموت،

سيظل ساعات متتالية وهو يتجول في غرفته، يداه في جيبيه، دون أن يعرف الجواب. جرِّبوا ذلك.

ضرب الأرض ضرباً عنيفاً بسوطه، تقدّم نحوي خطوتيْن، منكمشاً ونحيفاً فوق قاعدة متعددة الألوان، ثم سألني بصيحة دوّى صداها.

- هل تريد أن تعيش؟ هل تريد أن تموت؟

تراجع إلى الوراء، بذراعين مفتوحتين أمام بداهة صمتي، ثم رفع حاجبيه نحو جمهور اكتسب ثقته:

- هل رأيتم؟

- قهوتان - قال الرجل البدين وهو يضع الفنجانين فوق الصحنين. كان صمتٌ حزين يمتد من المقصف نحو المنظر الطبيعي في الخارج، الذي تشبع تماماً برطوبة كثيفة لفصل الخريف، الذي كانت الأشجار تتخلص منه بصعوبة كأنها أصابع ضيقة تنبثقُ من عقدة وخليّة. كأن السماء، عند مستوى الأرض، كانت من نفس نسيج الريح.

- أرسلناه عند الطبيب النفسي ليجري له اختبار توجيه مهني - شرحت الأم وهي تضع نظارتيها المشدودتين إلى عنقها بسلسلة كي تنظر إلى الورقة التي تشير إلى نقط اللعب - وقد قام بتشخيص كامل لحالة ابني. رجل متميز. أخبروني أنه تابع دراسته في سويسرا: هنا التعليم رديء جداً.

شربا القهوة وهما ينظران عبر الباب. كانت مدينة سانتارين تبدو بعيدة، غير واضحة، ترتعش في الأفق البعيد، تنعكس في طبقات متتالية من البخار. في واجهة العرض الزجاجية المعلقة على الحائط كانت تتراكم أكوام من الشوكولاته القديمة في علب منقطة ببراز

الذباب. جالت قزحيّتا ماريليا الحضريّتان عبر الفضاء المجاور بحثاً عن شوارع.

- هل نغادر؟ هذا المكان يصيبني بالاكتئاب.

مرة أو مرتين في الأسبوع، لا أعرفُ بالضبط، كانت تذهبُ لترى طبيبها النفسي لعقد لقاءات سرية مطولة. رأيتُه مرة واحدة: شخص تافه، أنثوي، قصير النظر، يحمل محفظة تحت إبطه ويرتدي معطفاً بالياً: عن أي شيء يمكنها أن تحدثهُ؟ عن طفولتها في أوليفايش؟ عن حكايات حبها الأولى في الكلية، المفاجئة والخرقاء؟ عنّي؟ وماذا يمكن لذلك المخنّث أن يفهم عن شخصي؟ يُفَكِّرُ ربما يحمل في محفظته ملفّها، وملفّي، قصة علاقتنا الصعبة من دون أوهام ولا حكايات. يُفَكِّرُ الملف رقم ٣٢٦ الخاص بالمدعوة ماريليا فلانة وفلان، ونحن هناك بداخله، عاريِيْن بكل وقاحة من خلال مصطلحات تقنية وعبارات جوفاء، وتعميمات لا تشبه وضعنا في شيء. فكّرَ أن يجري وراءه، ويجرده من أسراره التي لا بد أنها ترنُّ مثل حصّالة: فهنالك تلك الظهيرة يوم وجهتُ إليك صفعة غاضبة، هنالك هزّات جماعك موسومة، مرقّمة، مرتبة ترتيباً زمنياً أو وفق درجات حدتها أو حسب معيار غامض بشكل مرعب، لكن قبل أن أتمكن من التحرك كان الطبيب النفسي قد قفز داخل ترام ممتلئ عن آخره واختفى.

- كم؟ - سألَ الرّجُلَ الأعرج.

طفلٌ صغير جداً، حافي القدمين وعورته في الهواء، دخلَ إلى المقصف بمشية عرجاء مثل مشية بطّ: الفضاء الفاصل بين أنفه وفمه كان يلمع من مخاط زجاجي. شعرُه الوسخ الأشعث ينمو في كل الاتجاهات على طريقة شجيرة شوكية. عمُّهُ الذي يرتدي ملابس

ساحر خلع عباءته وأشار إلى الطفل بعصاه ليكون أضحوكةً للجميع:

- والآن، سيداتي سادتي، سوف أحول هذا المخلوق اللطيف إلى أستاذ في الثانوية.

- صباح الخير، زميلي - قال متوجهاً إلى الطفل، فنظر إليه الرجل الأعرج باندهاش.

تأكد من أن توشا تلاحظه قبل أن يوجه ركلة أخرى إلى الكرسي الذي انقلب، وسقط جريحاً جرحاً مميتاً، وهو يطلق صهيلَ حصانٍ يُذبحُ.

- لا تحلمي بأنك ستفصلينني عن طفْليَّ.

كانت ماريليا تنتظره، جالسة داخل السيارة، تستعد لتعرّي مرة أخرى واحدة من قطع علْكها الذي لا طعم له والذي يبدو أنها تتغذى عليه. كانت السيارة الواقفة تشبه ضفدعاً نائماً.

- يمكنك أن تراهما متى شئت - قالت توشا. استيقظ أحد الطفلين بسبب الضجيج وراح يبكي عند نهاية هذا النفق الذي صار عليه الممر.

- تصرّفٌ نموذجي لأصحاب الشخصيات الضعيفة - شرح الطبيب النفسي وهو يستعرض هيروغليفيات أحد الاختبارات - تناوب بين التوسلات الطفولية والعدوانية المتهوّرة: شخصية مسالمة لكنها ضجرة.

- شخص مزعج - قالت الأخت الكبرى متنهدة وهي تلعب الورق مع أمها. حاجباها المرسومان نحو الأعلى يبدوان كأنهما على وشك أن يطيرا من سهل البودرة الذي يشكل جبينها.

- هل أديت ثمن القهوتين بخرزات ملونة؟ - سألته ماريليا - لدي انطباع بأن هذا الشخص لا يعرف ما هي النقود.

ثمة جانب مرير فيكِ لا أستطيع أن أفهمه، فَكَّرَ، وأنا إلى جانبكِ في السيارة، تحت ظل أخضر، شفاف، بنكهة نعناع شجرة قصيرة، ذات أغصان أفقية، كان يجهلُ اسمها، مرارة تجعلكِ فجأة حادة، لاذعة، شبه متوحشة، تقطرين سُمّك في زاويتك مثل واحد من تلك العناكب الضخمة، المختبئة في أزهار البنفسج، في حديقة والديّ التي كنتُ أقتلها بضربات الحجارة من بعيد، خوفاً من شرّها المظلم. الطفل ذو القدمين الحافيتين، الماثل الآن أمام السيارة، كان ينظر إليهما بحدقتيْن مسمرتيْن حارقتين كأنهما حدقتا عجل. بعيداً، كانت آلة لإصلاح الطريق تنفث دخاناً وسط قدور من الزفت، وثمة شعور بأنه في مكان ما هناك تنفّسُ الماء. السماء الداكنة الصقيلة تمتزج بالتراب الرمادي على شاكلة وجه من دون ملامح يلتصق بانعكاسه. ربما ترجع مرارتُك إلى أنك لم تكوني سعيدة قط، فَكَّرَ، إلى والديك، إلى زواج لم ينته بشكل جيد، غياب المال، اليأس من عدم القيام بما يريده المرء. وهناك بعيداً، وراء التلال، تعالى صفير قطار.

- وماذا لو تغيّبنا عن المؤتمر؟ قالَ فجأة.

التحرُّك بمستطيل يحمل الاسم مرقوناً بالآلة الكاتبة مشدوداً على طيّة المعطف، متابعةُ مداخلات عالمة، الضجر التام، تحمّلُ خُطب لا تنتهي عند عشاء الوداع، استحمال المصور وفرقعاته العنيفة من الماغنسيوم حول المائدة. كانت تُسمع بشكل واضح العجلات وهي ترتطم بقضبان السكة وغناء من نوطتيْن لعصفور وحيد. كانت ساعة لوحة القيادة تشير إلى الحادية عشرة وعشرين دقيقة منذ أن ارتطم بشاحنة حين لم يحترم إشارة الضوء الأحمر: كانت ساعات جامدة من يوم قديم جداً، بعد افتراقي بقليل، يوم كنت أجدك مزعجة فقط،

يا ماريليا، وكنت أنام في غرفة اكتريتُها قرب مقبرة «برازيريش»: عند المساء، أفتحُ النافذة فتتقدم نحوي أشجار السرو العمودية المتصلبة حتى سريري، تلفها هالة ريح الموت المنبعثة من باطن الأرض.

- كان بوسعه أن يأتي عندنا - قالت أخته الصغرى وهي تسحب تنورتها بكلتا يديها حتى لا تظهر فخذاها - لدينا غرفة شاغرة، كنا نستطيع أن ننقل الصغار إلى مكان آخر. ألحّ كارلوس كثيراً عبر الهاتف، لكننا نعرف كيف هو: لم يهتمّ قط بالأسرة ومنذ أن أصبح شيوعياً بدأ يحب أن يلعب دور الفقير. يبدو أنه قد بحث لنفسه عن ثقب في مكان ما.

- ماذا؟ - قالت ماريليا مندهشة - لا نذهب إلى المؤتمر؟

- لنتحدث بكل وضوح - طلب من توشا - كل هذا خطأ كامل وإن لم تجدي أي رجل يثير اهتمامك لا أرى من سبب لنفترق. لمجرد نزوة؟ لأنكِ سئمت؟ أنا أيضاً، لأكون صادقاً، لكن فكّري قليلاً في الطفلين. بيدرو طفلٌ صعب، وسيعاني بشكل فظيع.

الشابُ ذو الوجه الممتلئ بُثوراً، في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمره، الذي يشغل الأضواء الكاشفة ذات الألوان المتعددة، انحنى فوق ما يشبه الشرفة:

- أنا لا أتذكّر والدي. انفصل عن أمي قبل فترة طويلة، وسمعت أنه ذهب ليعيش مع زميلة له ثم مات بعد ذلك بقليل، خارج لشبونة، في نُزل ما. ربما تكون لأخي ذكريات أكثر وضوحاً، لكن ينبغي التنقل إلى كندا للحديث معه: يشتغل في شركة للحواسيب. لا أعرف عنوانه، ولا نراسل بعضنا أبداً.

- نعم - قلتُ بسرعة - هل تدركين ما يمثله ذلك من متاعب؟ لنغير وجهتنا ولنقْضِ نهاية الأسبوع في مكان هادئ، من دون

واجبات، من دون أشخاص، من دون حاجة للكلام. كلا، أربعة أيام، هل تتصورين ذلك. هناك نُزُلٌ جميلة بالقرب هناك لم تطأها أقدامنا قطّ.

كانت آلة الزفت تهتزّ مثل قاطرة مريضة، تنفث شرارات برتقالية بين عجلاتها. كانت هيئة بشرية تجثم هناك في الأعلى، وتتحكم في هذا الهيجان من اللهيب بصوت منتحب. مرت المرأة العجوز خلف المنزل، أفرغت ما في السطل في حفرة ثم عادت إلى الداخل، مقوسة الظهر، تمشي بخطى صغيرة لما تعانيه من داء المفاصل. ظلّ الطفلُ بعورته العارية، مفتوناً يتفحصهما بمحجريْ عجل حارقيْن. وشيئاً فشيئاً، بدأ لون السماء الرمادي الموحّد يتلاشى فيما يشبه تشابك غيوم.

- حيّ كامْبو دي أوريكي - قالت أمه وهي تتثاءب وتجمع أوراق اللعب في علبة بلاستيكية دستها في جارور طاولة اللعب - من ذا الذي يفكر في أن يسكن في كامْبو دي أوريكي؟

بحركة من يده، طلب كارلوس من السائق أن ينتظره لحظة ثم دسّ نظارتيه في الجيب الخارجي لمعطفه:

- رغم أفكارنا المتناقضة تماماً (وكانت كلمة تماماً، على فمه، تبدو كأنها تخفق مثل قلب، وتحتها سطر أحمر) لم أدخل قط في جدل مع صهري. في الحقيقة، كان بريئاً مسكيناً، رجلاً مفعماً بالنوايا الحسنة استغلّهُ الاشتراكيون. اقترحتُ عليه مراراً أن يأتي ليسكن في البيت، لكنه دائماً رفض ذلك. لا أتحمل أي مسؤولية فيما وقع.

- نتحدثُ؟ - قالت توشا ضاحكة - لقد اتخذتُ قراري، وليس لديّ ما أقول لك.

- هذا أمر يثير الشهيّة - قالت ماريليا - شهر عسل بعد أربع سنوات، ما الذي أصابك؟

فَكَّرَ **عندما** كنتُ صغيراً، كان عمال الترميم يلوحون لنا بإشارات وداع من قارعة الطريق، متكئين على فؤوسهم التوراتية، فنسحق أنوفنا على زجاج النافذة الخلفية لنراهم يختفون في دوامة من الغبار. يُفَكِّرُ في تلك الفترة، لم أكن أتردد بعد في الانخراط في **الحزب**، أساعد في إقامة القداس قبل الذهاب إلى الثانوية، في الكنيسة الفارغة، وكان البطُّ دونالد هو حيواني المفضل. يُفَكِّرُ **بدأت** الشكوك لاحقاً، قلة سخائي وخوفي من السجن أو الحلم بدأ لاحقاً. ضع توقيعك هنا: وفجأة داهمني الخوف من خيانة والديّ والقطيعة مع الأغبياء المعطرين، فمنعني من الانخراط، وأجبرني على ابتكار تفسيرات غير مجدية، مواسية، كانت تهدئني بستالينية رخيصة. الأصدقاء الملتحون قصارُ النظر، أصحاب العقيدة المُلحّة، كفّوا شيئاً فشيئاً عن معاشرتي وملء منافضي بأعقاب السجائر وشحن روحي بالمكاسب المجيدة التي حققها وطن الاشتراكية. تنهدت توشا الصعداء، وبدأت تدعو بكل حرية زملاءها الأغبياء وأصدقاءها الذين يجهلون الشك، الذين كانوا يجتمعون حول صيحات فرقة جيفرسون إيربْلين[١].

- كان، مع ذلك، يتمتع ببعض الخصال - قالت أخته الوسطى، عازبة وأستاذة التربية الموسيقية في إحدى المدارس الثانوية (صنوج، مثلثات وأشياء تافهة أخرى من نفس الفصيلة، والتلاميذ منخرطون بكل حبور في غناء صارخ). كان يعشق شوبان، مثلاً. أيام الثلاثاء

---

(١) فرقة موسيقى روك أمريكية من فترة الستينيات. (المترجم)

كنا نتناول الغداء معاً وعند وقت التحلية أدندن له أنغام رقصة بولونية (رأسانا متقاربان، وجهها القبيح الذي يغني في المطعم الممتلئ بالناس. الأشخاص الذين ينتظرون مقعداً وهم واقفون ينحنون ليسمعوا: لم تكوني قط صعبة ولا مغرورة، فَكَّرَ: **لماذا** لم تجدي لنفسك زوجاً).

وهي تتشابك، كانت السحب تتخذ سُمْك ورق مقوى: لن يتأخر المطر كثيراً. أمعن النظر فلاحظ بيتاً آخر (شبه خرب) بعيداً، بوابة، وبقايا جدار.

- لقد ضقتُ ذرعاً بالقرن التاسع عشر، هذا كل ما في الأمر - قلتُ - ثم إننا لا نخرج أبداً، نبقى دائماً في حيّ كامْبو دي أوريكي، مثل حيوانات الخُلد، في ذلك الثقب الفظيع المليء بالكتب، نلصق ركابنا الباردة بنفثات دخان المدفئة. هيا بنا لنرى البحر.

- بيدرو سيكون على ما يرام معي - قالت توشا وهي تدير لي ظهرها، وتمسح إبرة مشغل الأسطوانات بمكنسة خاصة - ما لا يتحمله هو شجاراتنا التي لا تنتهي.

- ولكن، من يتشاجر في هذا البيت؟ - أجبتُها - أنا لا أرفع صوتي أبداً. قبل قليل، فقدت صوابي شيئاً ما، سامحيني، لقد انتهى ذلك.

- عدوانيةٌ/ خضوعٌ، عدوانيةٌ/خضوعٌ، عدوانيةٌ/خضوعٌ - تلفّظ الطبيبُ النفسي وهو يحرك سبابته مثل بندول إيقاع - إن النساء يكرهن الرجال الذين يمكن التنبؤ كثيراً بتصرفاتهم، ويعشقن قدراً من المفاجأة، فأي نوع من المفاجآت يمكن أن يحتفظ لنا بها مزاج كهذا؟ لا شيء.

- ردِّدُوا معي جميعاً - صاح الأب وهو يتوجه إلى جمهور أليف

بحركات مبالغة لرئيس جوقة. جناحا معطفه يموجان وفق حركاته - ردِّدُوا معي عندما أقول ثلاثة. والجُملةُ هي: يمكن لأي كان أن يتكهن بحماقاته.

- ليست المسألة أن يكون بيدرو على ما يرام - أكّدتُ - من البديهي أنه سيكون على ما يرام: ما يهمه في سنه هو أن يكون أبوه وأمه معاً.

- إن لم يكن دائماً حاضراً في البيت، المسكين، فلأنه لم يكن يستطيع ذلك - شرحت الأم بابتسامة حزينة، جالسة في زاوية على أريكتها قرب موقد النار - أنتم تعرفون ما هي الأعمال. لكنه كان مهتماً أيما اهتمام بتربية الصغار: كان يتصل بالهاتف كل يومين.

- مات في مدينة أفيْرو، لا أعرف أكثر من هذا - صاح شابُّ الأضواء الكاشفة، يداه على شكل قمع حول فمه - تزوجت أمي ثانية من صديق مشترك، ذهبا ليعيشا في سويسرا، فتكلّف بنا جدّي وجدّتي من جهة أمي. يبدو أنها تسكن في لوزان، وحيدة مثل كلب، من حين لآخر، ترسل لي شوكولاته محشوة، أقدمها للبواب المصاب بمرض السكري الذي يعشق الحلويات.

- لنرى البحر؟ - قالت ماريليا - أنا أرى شارع أزيدو غْنيكو كل صباح، وأشتمُّ روائح الجثث في صناديق القمامة خلف السيارات، التي نسيها عمال النظافة.

- هل تسمعينني؟ - سأل والدُه بنبرة تسلّط خفيفة في صوته - ما هي النقطة التي حصل عليها في الرياضيات؟

- لا فائدة من ذلك - حذرتهُ توشا - حُججكَ لا تهمني.

- إن حصل على نقطة سيئة في الجغرافيا - أمر الصوت الخفيف - احرميه من السينما ثلاثة أيام أحد متتالية.

يُفَكِّرُ من أين كُنتَ تتصلُ بنا يا أبي؟ من هامبورغ، من باريس، من لندن، من مدن كبيرة تحت المطر؟ من غرفة فندق، كأس ويسكي في اليد، امرأة شابة ترتدي معطفاً جلدياً، تشبه واحدة من تلك الممثلات السينمائية التي نجدها في علب العلكة، تجلس على كرسي، في انتظارك؟ يُفَكِّرُ كنتَ سعيداً، أنتَ سعيدٌ، فماذا تطلب من الحياة؟ ذات يوم، عند نهاية الظهيرة، كنا في المزرعة فإذا بسرب من الطيور يطير من فوق شجرة الكستناء قرب البئر نحو تلك البقعة من الغابة التي استحالت زرقاء مع بداية الليل. كانت الأجنحة تخفق بحفيف أوراق تُحرّكها الريحُ، أوراق صغيرة، دقيقة، متعددة، مثل أوراق قاموس، كنتُ أمسكُ يدك، وفجأة سألتُك اشرح لي ما هي الطيور. هكذا، ليس أكثر من هذا، اشرح لي ما هي الطيور، طلبٌ محرجٌ لرجل أعمال. لكنك ابتسمتَ وقلت لي إن عظامها تتشكل من زبد الشاطئ، وإنها تتغذى على فتات الريح وإنها، عندما تموت، تطفو وظهرها إلى أعلى، عيونها مغمضة مثل النساء العجائز أثناء العشاء الرّباني. وأنا أتصورُ أنك بعد خمس أو ست سنوات لم تعد تهتم سوى بنقط الجغرافيا والرياضيات تولّدُ في نفسي ما يشبه دواراً غريباً، انطباعاً عبثياً، كأن الطبيب الهندي يلتفت نحوي على حين غرّة ويقول لي فجأة: لديك سرطان.

- حدثوني قبل مدّة عن نُزل في خليج أفيْرو - قلتُ - يمكن أن نجربه، ما رأيُكِ؟

سماءٌ رمادية، أرضٌ رمادية، المطر الذي لا ينزل، والذي لن ينزل بكل تأكيد في الأيام القادمة، كما يتبيّن من تنفّس الأرض القلق، شبه الرّبوي. كان وادي سانتارين يشبه ستائر قطنية متراكبة تموج هادئة في برودة منتصف النهار. الطفل ذو العورة العارية راح

يركض، فاغر الفم، نحو المقصف. في الداخل، لا بد أن الأعرج كان يغسل الفنجانيْن في المجلى الرخامي، على ضوء الوابل الجاف والمزعج المتسرب من دفة الباب.

- في لوزان، وحيدة مثل كلب - كرّرَ شابُّ الأضواء الكاشفة. كان وجهه البشوش يبدو كأنه يبتسم لفكرة امرأة عجوز، شعرها أشيب، تحمل حزمة جرائد تحت إبطها وتسحب كلباً مائلاً إلى البياض من طوقه.

- لم أومن قط بذلك الزواج - قال والدُ توشا بينما كان يحصي التذاكر التي لم تُبع وهو داخل ما يشبه كوخاً مستنداً إلى مقطورات خيمة السيرك - كان كلاهما شخصين غير مستقرين، هشّيْن، خاصّيْن. عاجلاً أم آجلاً، كان إعلان انفصالهما سينفجر.

- كان يعشق شوبان - قالت الأخت الموسيقية - كان يذهب إلى ساوْ روكي ليستمع إلى كورال مؤسسة كولبنكيان[1]، يظل جالساً في الخلف، ينظر بدهشة إلى جدران الكنسية التي يبدو أن الغناء كان يبرز منها. في الحقيقة، نحن مثل نعجتين منبوذتين في العائلة.

- أفييْرو - قالت ماريليا - حقاً، ولِمَ لا أفييْرو؟ لا بد أنك تخطط لشيء سيّئ، أود أن أعرف كيف سينتهي: حتى لو كان الفيلم رديئاً، سوف أشاهده حتى النهاية.

يُفَكِّرُ تركتُ رقم هاتف فندق طومار في العيادة، إن حدثت أي مشكلة لن يجدوني، سيصطدمون بتعقيدات من الأسماء، وفوضى من الصيحات. يُفَكِّرُ أمي لن تحتال عليّ هذه المرة كما تفعل عادة في نهاية الأسبوع، لقد بدأت تهتم أيما اهتمام بأناقة مشاعرها منذ أن

(١) مؤسسة ثقافية وسط لشبونة أسسها كالوست كولبنكيان وتضم متحفاً وعدة مرافق ثقافية أخرى. (المترجم)

افتقدت أشكال الجمال الأخرى. يُفَكِّرُ لم أُقدّم قط أي شيء لعصبة محاربة السرطان، كنت أتحاشى الفتيات الأنيقات اللواتي يداهمنني عند زوايا الشوارع، يمددن لي شقوق علبهن المعدنية، مُلحّات، سخيات، سليمات، أتحاشاهن لأنه، في نظري، الدولةُ هي التي، عذرٌ رائع كي: أُسلّمُ لأيادي هيئة غير محددة واقعاً ملموساً يفزعُني.

- يمكن أن تحدث أشياء كثيرة في مدة ثلاثة أيام - قلتُ لماريليا من دون اقتناع، كأنني أكذب على طفل - ثم نحن بحاجة لنرتاح، ونتحدث.

طبيبُ التوليد المتزوج من أختي الأخرى أشعل غليونه: أصابعه اللزجة كانت سميكة وكثيفة مثل أخطبوط.

- ربما يكون مرض والدته قد لعب دوراً في كل هذا الأمر. شخصياً، لا أعتقد ذلك: منذ عدة شهور وأنا أجده غريبا.

- لم أكُفَّ قط عن حُبّكِ - صاح في وجه توشا وهو يوجه لكمة غير مجدية إلى علبة مسامير. (كنا قد اشتريناها في سينْترا) وليكن في علمكِ أنني لن أتخلى عن كل هذا من دون سبب وجيه. أشعل محرك السيارة واستأنف الطريق بهزة خفيفة. بدأ المقصف الرديء يصغر خلفهما، واختفى نهائياً قرب ظل شجرة يشبه حوض ماء لا فائدة منه. من الأحسن أن نعرج نحو كويمبرا، فَكَّرَ، إن شعرنا بالجوع، نأكل شيئاً ما أثناء الطريق في واحد من تلك المطاعم المكتظة في القرى، بمناديل ورقية فوق موائد معدنية مطلية، وليذهب إلى الجحيم القرن التاسع عشر بنبلائه ذوي الشوارب وثوراته الدامية التافهة. تجاوزا آلة الزفت التي تهتز كأنها قدر والأشخاص الذين يُرمّمون قارعة الطريق بما يشبه حبوباً سوداء تغلي تحت الإطارات. حبات حصى صغيرة تقفز مثل حبات البَرَد فوق واقيات العجلات.

الشجيرات تُضاعفُ عشوائياً حركاتها مثل غرقى قلقين، بقيت المدينة على اليمين منغلقة على نفسها مثل لغز.

- ابحثوا له عن أستاذ دعم لمادة الفيزياء إن كان ذلك ضرورياً - أمر الصوتُ الخفيف - لا أريد لابني أن يبقى مكتوف اليدين مثل شخص عديم الفائدة.

- إنه لم يفهم قط المبدأ الثاني من قانون الديناميكا الحرارية - كشف رجل مسن، دفترُ مسائل رياضية من مستوى القسم الثاني مفتوح أمامه ومرْكب داخل قنينة فوق رفّ الكتب - ربما كان موهوباً في المواد الأدبية، لا أجادل في ذلك، ولكنه كان دائماً فاشلاً في المواد العلمية المحضة.

على أي، ينبغي أن أخبركِ أنني سأرحلُ، فَكَّرَ، وسيكون ذلك أسهل بالنسبة لي بعيداً عن شقة شارع أزيدو غْنيكو، بعيداً عن البيت الذي أنشأناه معاً، بعيداً عن المكالمات شبه الأبدية من رفاقك في الحزب، بعيداً عن تلك الأجواء المخدّرة، المدمّرة، الخَصّاءة، المُشكّلة من الأشياء المألوفة. أمامي أيام الجمعة، والسبت والأحد كي أستجمع قواي في غرفة نُزل مجهول وأنا أنظر إلى مياه الخليج تنساب في بطء نحو البحر. صهري الذي يشتغل إطاراً صوّرَ فيلماً عن هذا المكان: نوارس وقوارب في الصباح الأزرق: كانت آلة العرض تشتغل، تيكْ تاكْ، تيكْ تاكْ، في الظلام، ونحن، مستقيمين كما ينبغي، جالسين في صمت، بوقار من يتابعُ مشاهد من «يوم الحساب» انطلاقاً من مقصورة في الطابق الأرضي. أختي، في إحدى الشرفات، ترسمُ حركات وداع محتشمة.

- إن كنتِ تظنين أنه لا حل لهذا الأمر، سأرحل، إذن - قال لتوشا - لكن، ساعديني في جمع حقيبتي، على الأقل.

- شخص غريب الأطوار - صاح شابُّ الأضواء الكاشفة - تمكن من العيش لبضعة أشهر مع تاجرِ قطعِ تُحف أثرية روسي واثني عشر من الكلاب الدلماسيّة.

خلع الطبيب الهندي بعناية القفازين المطّاطيين السميكين الخاصين بعملية التشريح.

- ما عدا الحجارة في المثانة، لم أجد أي شيء في جسده. إن لم ينتحر لعاش لمدة ثلاثين أو أربعين سنة أخرى من دون مشكلات عضوية.

- أفييْرو - قالت ماريليا وهي تفتش في محفظتها بحثاً عن قطع العلك. (كان وجهها يؤلمها مثل شعور بالذنب) - على الأقل، سوف أعرف ما الذي كنت تدبّره منذ مدة طويلة.

يُفَكِّرُ هل يظهرُ هكذا بشكل أحسن، إذن، قلقي، ترددي، شكوكي، دفق المرارة الذي ينخر أحشائي من حين لآخر مثل حمْض، بعد العشاء، ويمنعني من كتابة أطروحتي حول سيدونْيو بايش، يدفعني نحو النافذة لأتأمل الليل المعتم، المُروَّض، المألوف في الحيّ، الكلاب التي تشتمّ الصناديق، شاحنات القمامة الضخمة بأضوائها الساطعة فوق السطح؟ يُفَكِّرُ ينبغي أن أصوت لمصلحة اليمين، أرتدي ربطة عنق، أشتغل مع والدي، أتجول في حانات إسْتوريل رفقة حاملي أسهم أجانب صاروا بُدُناً تماماً، يتقيأون بقايا العشاء على بذلة السائق الخنوع، رفقة فتيات شابات بأفواه مفرطة في الأصباغ، ثملات أيضاً، يترنحن فوق أحذية كعب عالية جداً. يُفكِّرُ ينبغي أن أكون عالم اقتصاد، أتزوج امرأة غنية، أدير بنكاً، أتصلُ من بعيد وأشترط أن يحصل أبنائي على علامات جيدة في الرياضيات، أهدّدُهم بأيام أحد من دون سينما وأشكال حظر مأساوية أخرى بعدم

حضور الحفلات، والخروج مع زملاء القسم، للرقص.

صهرهُ طبيبُ التوليد يبتسمُ: كان يحمل ملقطاً كبيراً من الورق المقوى يلوّح به في الهواء مهدداً أمام الجثة:

- هيا، سوف نستأصل هذا الحزن.

- بوقاحة، كان يغادر مائدة الأكل وسط وجبة الغداء - قالت أمّه وهي تطلي بطبقة من الصباغة البنية ظفرَ خنْصرها - كان مختلفاً تماماً عن أخواته.

- شيوعي - أسرَّ القسُّ بصوت خفيض، خوفاً من أن يسمعه أحدهم - أُسرةٌ جدية، كاثوليكية جداً، وتنجبُ كارثة كهذه. عندما كان طالباً، كان يوزع في السّر مناشير في كل أرجاء الكلية، يخربش شعارات سياسية على الجدران وكاد يدخل إلى السجن.

- لو لم يكن والدُه رجلاً نافذاً - قال شخص يرتدي معطفاً وهو يحاول أن يخبئ وجهه بذراعه - لانتهى به الأمر وراء القضبان.

أنزلت توشا ذراع مشغل الأسطوانات بسبّابتها وعادت لتجلس: صوتٌ زاعق أغرق الصالة وهو يصرخ عالياً:

- لن أساعدك في جمع أي حقيبة - قالت - أنت تعرف أين هي الملابس، والجوارير، والكتب. تدبّر أمرك.

- أي شيء لديكِ ضد أفيْرو؟ - سألَ ماريليا - هناك، تأتي عشراتُ وعشراتُ النوارس لتحط فوق سطح النُّزل، فوق القصب، فوق الوحل على الضفاف، فوق مياه الخليج، فوق القوارب الراسية. عندما كنتُ صغيراً، كان والدي يشرح لي الطيور، يحدّثُني عن أعشاشها، وعاداتها، وكيف تُحلّقُ. لا ترسمي تكشيرة على وجهك، كنّا معاً مختلفيْن وقتئذ. لو عرفتِه حينئذ، لفهمت ذلك.

كان قد أخذها معه إلى بيت الوالدين للعشاء، وشعر طوال

الوقت، أثناء تناول مقبلات المارتيني، ثم على المائدة، وبعد ذلك في الصالون، وأيضاً أثناء الوداع عند الرواق، من جهة تربيتهما الراقية المعادية ودهشتهما أمام هذه المرأة التي ترتدي لباس بونْشو وتنتعل حذاء خشبياً وتضع بدلة اليسار المتطرف، ومن جهة أخرى الغضب البروليتاري لبنت أحد أفراد الحرس الجمهورين التي تبالغ بعناد في تصرفاتها السيئة وتستعمل عيدان الأسنان حدّ الإفراط. يُفَكِّرُ لماذا كل هذه الحاجة لإثارة سخط والديّ، لإهانتهما، وجرح مشاعري من خلالهما؟ صحيح أنني بورجوازي (لا أعرف جيداً ما معنى أن يكون المرء بورجوازياً)، كنتُ متزوّجاً من امرأة بورجوازية وهناك بعض الأمور، أتفهمين، لا يمكنني أن أتخلص منها: طريقة معينة للنظر إلى الأمور، نوع من الحشمة في التعبير عن الأحاسيس، تصرفات لائقة عند الأكل، عادات ارتداء الملابس، ولغةٌ يراقبُها اللاوعي.

- لم يكن شخصاً سيئاً، وعربوناً على ذلك كان يسعدنا سعادة كاملة - قال رجل ضخم ذو لحية يرتدي قميصاً قطنياً، تحيط به ملصقات عدائية حمراء تمثّل رجالاً يرفعون قبضاتهم ويلفُّ أجسادهم دخانُ المعامل - حتى الشرطة لم تكن تفكر في أننا كنا نُشكّلُ خلية وبيننا ابن مدلّل مثله. بدأت الأمور تسوء فيما بعد، عندما بدأ يأخذ الأمور على محمل الجد، عندما أراد أن يتنكر في صورة ماركسي وراح يتجول حاملاً مناشير محظورة تحت إبطه، مناشير سخيفة جداً فاضطررنا لإبعاده شيئاً ما.

- أريد دائماً أن أعرف - قال صوتُ والده في الهاتف - إن كان الذنب ذنب أستاذ الدعم أم ذنبك أنتَ؟ نقطة سيئة أخرى وأُخرجُك من الثانوية بكل سرعة وهدوء.

يُفَكِّرُ هو شي مينْ، ماوْ، تشي غيفارا، لينين، وهذا الخائن تروتسكي بلحْن مثل لحن حورية بحر وهو يتحالف مع الطبقات المهيمنة، بدل الجغرافيا، والرياضيات، واللغة الفرنسية. اجتماعات حامية، يلفها دخان السجائر، اليقين من الخلاص القادم، والنهائي. يُفَكِّرُ **كانوا** كلهم يفوقونني سناً، كانت أسرتي في خدمة الرأسمال، لا يطلبون أبداً رأيي، فهل كانوا يأخذونني على محمل جد؟ يُفَكِّرُ لم يكن لديّ قط من أتحدث إليه، توشا تتثاءب من النوم إن حدثتُها عن مكتسبات البروليتاريا، أخواتي يتمرغن مع خطبائهن في الأرائك، الأصابع مشبكة، والسيقان مكشوفة، بشهوة سائلة، في فترة معينة كفّت إحدى صديقات أمي عن القدوم للعب الورق، أرملة صهباء لها أطفال في سني، طويلة القامة، نحيفة، أساورُها ترنٍّ، ويقال إنها كانت تخرج مع والدي، يأخذها في أسفار إلى الخارج ويقدمها على أنها زوجته.

– الشيء الوحيد الذي سنتحدث عنه – قالت توشا – هو نفقة الطفليْن. لديّ هنا اقتراح من المحامي. سوف أعرضه عليك.

– الطيور – قالت ماريليا – ماذا كنتُما تعرفان عن الطيور؟

تابعا طريقهما نحو كويمبرا وسط حركة سير مزدحمة، شاحنات كبيرة تتسلق بصعوبة طرقاً صاعدة تحفّها أشجار قبيحة صارت نحيفة من الجفاف تحت سماء شاحبة في الصباح: لن تمطر السماء، لن تمطر ثانية على هذه الأرض، وسيترك البحر مكانه لفوهات عميقة، نفيذَة ومغبرة يتصوّرُ القمرَ من خلالها، وفوقها يُخيّمُ، جامداً، صمتٌ حجري في ليلة خالدة. بدت له كويمبرا مدينة تافهة وغير منسجمة، بها رجُل أمن واحد مكلف بحركة السير يحرك هائجاً ذارعيه، مُعلّقاً فوق ما يشبه كرسي عرش، وأعمدة بها سهام كثيرة تشير إلى لشبونة،

ليريا، أفييْرو، بورتو، فيغيرا دا فوش وأماكن أخرى نسي أسماءها. توقفا ليأكلا في مقهى حيث كان رجال بشعر أشيب يجلسون أزواجاً، مثل فراش دود القز في علب ورقية، ويلعبون الدّاما أمام كؤوس فارغة. وعبر زجاج النافذة، كان يرى رجل محطة الوقود المجاورة يفرك يديه وسط مخلفات وسخة يبحث عن النقود في محفظته الجلدية التي يتقلّد بها. كانت العمارات تتشابك عشوائياً وهي تتسلق التل، كأنها قطع دومينو تمزجها يدُ الصُّدفة. شعرتُ بألم خفيف في المعدة، نوع من الحنين الدقيق جداً: الجوعُ، فَكَّرَ، لا بُدّ أن ذلك من الجوع. أو أنني بدأتُ أشيخ. أو أنني مريض، مثل خيول جرّ العربات التي لم تعد تصلح لشيء. إن الطيور، كان أبي يشرحُ وهو مستند إلى خرزة البئر في الضيعة، تموتُ ببطء، من دون سبب، دون أن تنتبه لذلك، وذات يوم تستيقظ وبطونها إلى أعلى، مناقيرها مفتوحة، تطفو في الريح.

- صغيراً، كان طفلاً سهل المراس - قالت الأمّ وهي تفحص بعناية أظافرها - يتعامل باحترام، مرح، ولا يبكي أبداً. أصبح غريب الأطوار بعد أن كبر. خصوصاً بعد أن بدأ يحشر نفسه في أمور السياسة.

- لم ينضمَّ قطّ إلى الحزب بسبب غياب الحسّ النضالي لديه - قال الرجل الضخم الملتحي ذو القميص القطني - مغرق في الأنانية، مفرط في البورجوازية، كثير الخوف. كانت تنقصه الشجاعة، الطاقة، القوة، القناعة، وغريزة الصراع. كان يوزع المناشير، يلصق الإعلانات، يهدئ ضميره الشقي، هذا كل ما في الأمر. إن شيوعياً حقيقياً، أيها الرفاق، لا يقدمُ على الانتحار.

كان نهر مونْديغو عبارة عن قناة وسط الرمل، خيط محتشم يشق

طريقه بصعوبة وسط أعشاب الوحل: أسوار مسودّة تكبح بلا جدوى انعدام الماء. كان رجل محطة الوقود، راكعاً، يفحص عجلتيْ دراجة نارية. أخذ رجل، من أصحاب الشعر الأشيب الذين يلعبون الدّاما، يؤُحُّ وفجأة اتخذ خدّاه المتدليان لوناً بنفسجياً.

- كان من الممكن جداً التعرف على الجثة - قال طبيب التوليد وهو يشير إلى التابوت الضخم من الورق المقوى وبه أربعة مشاعل مُستعارة في الزوايا الأربع - تلك الخصلات المتفرقة بلون الغائط، ذلك القميص الأزرق والبنفسجي، ذلك الحذاء الضخخخخخخم الممزق، كان هو. بل لم يكن من الضروري فحصُ القفّازيْن وحمّالات السروال ذات اللون الأحمر. ميتٌ، بطنُه إلى أعلى، فمُه فاغر، مثل طائر من الطيور، عاجز عن التحليق.

وضعه والدُه من جديد منفرج الساقين فوق كتفيْه (كان وجهي يلمس تقريباً أشجار الكستناء) ثم توجه نحو البيت. كانت أمه تنتظرهما، باسمة، جالسة في الصالة، ورواية ما فوق ركبتيْها: رجُلاي، كانت تقول، ولم يكن ثمة من تجعّد، ولا كدر، ولا حزن متسلل إلى نظرتها الصافية. كانت العصافير تختبئ في الغابة، وأخواته بأردافهن الصلبة حينئذ، يتحدثن عن خطبائهن في الغرفة.

- كان يرتبك كثيراً في بعض متعددات المخارج في الجبر - قال أستاذ الرياضيات متبرئاً - وحين يرتبك تلميذٌ في متعددات المخارج في الجبر، ما الذي يمكن القيام به؟

- رغم ذلك، بقينا نلح لبعض الوقت - برّر الرجلُ ذو القميص القطني نفْسَهُ أمام جمهور صامت - فكثيرٌ من الثوريين الحقيقيين ينحدرون من نفس طبقته الاجتماعية. كلفناه بمهام ثانوية، سمحنا له بحضور الاجتماعات، وعند نهاية السنة الدراسية اخترناه أميناً

لاجتماعاتنا، لكنه بدل أن يشغل نفسه أولاً بالطبقة العاملة والمطبوعات، كان يكتب أشعاراً، يتلكّأ، ويتكاسل. إن كان فيديل كاسترو من نفس عرقه لكان باتيسْتا ما يزال في السلطة إلى اليوم. بل الأفظع من هذا كله، أيها الرفاق، أنه أغرم بفتاة أرستقراطية تافهة.

- أقترح مبلغ عشرة آلاف إشْكودو[1] شهريا - قالت توشا - (كانت أسطوانة إيريك بورْدون[2] تقترب من نهايتها) - يمكن لأبويك أن يساعداك.

- لا أحد يستطيع أن يخرج من ذهني أنك تُدبّر شيئاً ما - أكدت ماريليا من فوق شطيرة خبزها المحمص - كلما كنت تخطط لشيء ما ترسم على وجهك تلك الابتسامة الوقحة التي تجعلني مجنونة من الغضب.

دون أن يجيبها، طلب الحساب من نادل طويل جداً ذي حركات متصنعة ينحني على الموائد بنعومة القصب، يبحث عن النظرات بحدقتيْه الوديعتين مثل حدقتيْ كلبة. يُفَكِّرُ هل سبق لنا يوماً أن تغازلْنا، هل أغرم أحدنا بالآخر؟ يرى وجهها القاسي، المتسائل، يديها بكفيهما العريضتين وأصابعهما القصيرة الغليظة، صدرها الممتلئ بشكل مدهش، ويُفَكِّرُ لماذا نحن معاً منذ أكثر من أربع سنوات؟ بدأ كل شيء يوم هجرتْني توشا، فشعرتُ أنني وحيد، متخلى عني، لا أصلح لشيء، جدران غرفتي المأجورة تضغط على رأسي، كنت تُدرِّسين مادة السيميوطيقا في الكلية، وذهبنا معاً مرات عديدة إلى السينما، كنت أحب طريقتكِ الجافة الخالية من الحماس في النظر إلى الحياة، نزعتك العملية الراسخة، رائحة جسدك في

---

(١) العملة البرتغالية الرسمية قبل بداية التعامل باليورو سنة ٢٠٠٢. (المترجم)

(٢) مغني روك بريطاني من مواليد ١٩٤١، شارك في عدة أفلام. (المترجم)

العتمة، كنا نتحدث عن كل شيء وعن لا شيء، ترتبين سجائرك في شيء ما مصنوع من القصب، ويوم الأحد الموالي ذهبتُ لأزوركِ في البيت، فتعرفتُ إلى والديكِ، زميلٌ قلتِ وأنت تقدمينني ذات يوم، من دون إرادتي تقريبا، كنا قد تبادلنا قبلات في السيارة بعد نهاية ندوة، لن أنسى أبداً عينيك الجاحظتين قرب عينيّ، لم تكوني واثقة مني، تظنين أنني ما زلتُ متعلقاً بتوشا، مغرماً بها، تائهاً، وشيئاً ما، اللعنة، كنتِ مُحقّة. يُفَكِّرُ ربما يكون ذلك لأنك كنتِ منخرطة في الحزب، لأنكِ قضيتِ السجن وتمثلين بطريقة ما خلاصي، الانتقام من الخوف الذي يمنعني من الفعل، الارتباط ببنت أشخاص يخضعون للاستغلال كما كان يُطالبُني بذلك ضميري؟ بعد ذلك، ظهرت شقة حيّ كامْبو دي أوريكي، ألفان وخمسمئة إشْكودو ليست ثمن كراء باهظاً، سنتقاسم كلفة الكراء، وتأتين لتعيشي معي، يوم الأحد أذهب للبحث عن الطفلين ورائحة جسدك تلاحقني، كنت تمنعينني من تحسس نهديك، توقّفْ، توقّفْ، توقّفْ، توقّفْ، وأخيراً، بعد معركة طويلة، طويتُ جوربيْك حدّ الكعبين، تخلصتُ من تنّورتك، مزّقتُ (هل فعلاً مزّقتُ) سروالك الداخلي فوق الأريكة الضيقة جداً، ضربتُ مرْفقي مع الأرض فانتشر عبر ذاتي ما يشبه تياراً كهربائياً وصل حتى الكتف، تركتُك وأمسكت مرفقي وأنا أصرخ بينما أنت ماذا حدث هل تكسّر عظم من عظامك، أظنُّ أن ذراعي قد تكسرت، يا ماريليا، ساعديني، كان أبواكِ قد خرجا، ولم يكن في بيتكم أحد، شمس الغروب تزحف فوق خشب أرضية الغرفة، عبر مصفاة الستار المنقّط، فجلبتِ القطن ومادة الكحول، علت علامة تجعد جبينك، دعني أرى ذلك اطْوِ ذراعك امدُدْها يا لك من رجل ضعيف إنه لا شيء، شبه لابسة، شبه عارية، أصابع قدميكِ منتشرة

فوق خشب الأرضية، قميصكِ منفتح يكشف عن حمّالة صدر وردية، تمددتُ فوق الفراش، أغمضتُ جفنيَّ وفجأة ثقلٌ على يميني، فمك يلتصقُ بأذني، أدْخِلْ. لقد فتحتُ لكَ البوّابة، وأشعلتُ المحرك. ربما يمتلأ نهر مونديغو في فصل الشتاء، ربما يُغطي تيارٌ موحل الحجارة الداكنة، لينتهي مائلاً عند المصبّ. العماراتُ بلون نبات البيش تحدق فيه من دون شفقة، والسماء الداكنة تمتدُّ إلى ما لا نهاية كأنها جناحا غطاء رأس راهبة.

- يقول المحامي إن عشرة آلاف إشْكودو مبلغ زهيد - قالت توشا متحججة وهي تفرك بكُمّ قميصِها بُقعَة على سروالها - مع كل ما يملكه والدُك من مال، يمكن أن أطالب بأكثر من هذا بكثير.

- طيور - قالت ماريليا - طيور وأفكار مجنونة. أريد أن أرى الآن ما يسفر عنه هذا الأمر.

من جديد، طريق بورتو، من دون أي ذرّة جمال، بحركة سير تقطعها الشاحنات، والسيارات، والجرارات، والدراجات النارية العنيدة، البطيئة والمرتعشة. في الخلف، داخل صندوق السيارة، شيء ما غير مشدود، مثلث التشوير، علبة الأدوات، يُحدث ضجيجاً مزعجاً وعنيداً، يثير الأعصاب.

- لم نوافق قطّ على زواجه الثاني - قالت أخته الكبرى وهي تخفق بياض البيض في المطبخ - لكنه كان راشداً وعاقلاً، ماذا كان بوسعنا أن نفعل لمنعه؟ كارلوس، المسكين حاول أن يعيده إلى رشده، لكنه عاد من هناك قلقاً جداً. أذكُرُ جيداً أنني قلتُ في نفسي إما أنني مخطئة تماماً أو أن هذا الرجل سينتهي نهاية سيئة. أما والداي، فكان أمراً محرجاً لهما بشكل فظيع أن يكون لهما ابنٌ غير مهذب، يشتم الجميع.

- كان يحب شوبان - قالت أستاذة الموسيقى هامسةً وهي تفتح البيانو. سوف أعزف لكم «لَيْلِيّتَهُ» المفضّلة.

- لا أريد أن أعرف إن كنت ستتزوج أم لا - قال والدُه، واقفاً، وسط مكتبه، غير عابئ بالهاتف الذي يرنُّ - بالنسبة لي، أحسبك في عداد الموتى منذ اليوم الذي حشرت فيه نفسك في السياسة.

يُفَكِّرُ كان الشيب قد غزا كل رأسك وقتها، يا أبي، وتقوّس ظهرُك، وصارت بدلتُك ترقص شيئاً ما فوق صدرك، ولم تعد قادراً على حملي منفرج الساقيْن فوق كتفيك. يُفَكِّرُ أراهنُ أنك نسيت الطيور، وأنك لم تعد لتشغل بها بالك مرة أخرى.

- يمكنك أن تكون متأكداً من شيء واحد، يا ابني - أضاف والدُه وهو يحدق إليه بنظرة حاقدة مهزومة، نظرة صفراء، مترددة، غير معهودة - وهو ألّا تُعوّل ولو على سنتيم واحد من مالي.

لوحات معاصرة على الجدران، رفّ من الكتب القانونية، الأريكة التي كان من المنتظر أن صديقة أمه ذات الجوربيْن السوداويْن ومعطف الفرو ستتمدد عليها وتحرك رجليها. يُفَكِّرُ هل ستملكُ القوة مرة أخرى، هل ستنجحُ من جديد؟

- سترينَ، سوف يعجبك الخليج - قلتُ - بعض الأيام من الراحة، بعيداً عن كل شيء، سوف تسمح لنا بتنظيف حياتنا.

السياسة، يُفَكِّرُ مرة ذهبتَ تبحثُ عني في مخفر الشرطة لأنني خربشتُ كتابات سخيفة على الجدران، بعدها لم أزعجك مرة أخرى. أبعدوني من الخلية، وشرحوا لي أنهم يحتفظون بي في الاحتياط، لكن الحقيقة هو أنهم لم يكونوا يرغبون في التعامل مع واحد من أبناء الأغنياء. كنتَ تتحدثُ بنبرة جادة مع شخص قصير ومغرور، يرتدي ربطة عنق بالية، وأنا أتابعُ المشهد، يغلبني النعاس، تحت مصباح من

دون عاكس نور في غرفة ضيقة مجهزة بمكتب وكرسي، يخيم عليها صمتٌ ثقيل وسميك يتشكلُ من غياب الصيحات.

- اسمح لي، سيدي المهندس - كان يقول متبجحاً ذلك الرجل القصير - ولكننا لسنا مسؤولين عن هذه المتاعب. كان الشاب يتسكع في الشوارع، بتأثير من الآخرين، ويرسمُ على الجدران جمَلاً مهينة ضد الحكومة.

أجاب والدُه بصوت خفيض وقال شيئاً ما لم يستطع أن يسمعه، ففتح الرجلُ الجرثومةُ فوراً ذراعيه، متفهماً ومستاء:

- الشبابُ، سيدي المهندس، الدّمُ الذي يغلي في العروق، لكن علينا أن نجتثّ الشر من جذوره قبل أن ينتشر، هل تفهمني؟ أما الآخرون، الأسماك الكبيرة، فنحن نراقبها منذ قرون. والآن، ما كان من الضروري أن أقوم به هو أن أخبركم، بوصفكم واحداً من أعمدة النظام، ورجل صناعة من الوزن الثقيل. إن المدير يعلم جيداً ما تدين به البلاد لكم، لكن، أرجوكم، نبهوا ابنكم لما يجازف به من مخاطر. (صار القزم جدّياً، جدّياً بشكل هزلي وعدائياً). فالتساهل له حدود، لأنه لا يمكن أن نغمض عيوننا إلى ما لانهاية.

يُفَكِّرُ لا بد أنها كانت قاعة الاستنطاق حيث يوسعون الناس ضرباً يوماً عن يوم، فما الذي انتزعوه من والدي في المقابل؟ صداقات، وساطات، اتصالات، امتيازات تجارية، شيكاً سرياً في سويسرا؟ كان والدُه يستمع، شاحباً من الإهانة، إلى خطاب ذلك الأبله التافه، يبحث في قلق عن منفضة لا وجود لها، يمسك بسيجارته مستقيمةً تماماً، يحاول بذلك أن يحتفظ بكيلومترات هشة من الرماد: وأراهن أن الآخر كان يعي ذلك، ويدرك أيضا قلقه، فينالُ من ذلك نوعاً من المتعة السادية في إحراج والدي.

- ألا أجدُ عندكم منفضة سجائر؟ - قال والدُه في النهاية، بنبرة متواضعة، خنوعة، خاضعة، وهي يشير إلى عقب السيجارة بذقنه.

ابتسمَ إليه الرجل الجرثومة بنصر وحدجهُ بنظرة من قدميه إلى رأسه (الوغدُ، فكّرَ) مستعرضاً أسنانه العفنة.

- عفواً، سيدي المهندس، ولكن ألم تلاحظ أنه يمنع التدخين هنا في مخفر الشرطة؟

قوّسَ والدُه كفَّ يده تحت عقب السيجارة وانتظر أن يأتي شخص آخر، أحدب وقصير، طرق الباب، طلب الإذن بالدخول ثم وضع فوق الطاولة صحناً صفيحياً منبعجاً. ما كنتُ أظنُّ أبداً أن إجراء مهيناً يمكن أن يؤثر فيه إلى ذلك الحد: غزت تجاعيد بنية خدّيْه، ولاحظتُ أن عقدة ربطة عنقه، الملتوية، بدأت تتفكك. متباهياً، كان المفتشُ يربت على كتفه بضربات صديقة، وقد صار فجأة حامياً وقريباً.

- كل هذا مضجر للغاية، سيدي المهندس، لا يمكنك أن تتصور ما يتسبب فيه لنا ذلك من مضايقات. على أي، يبدو الشاب نادماً على ما صدر منه، وهذا هو الأهم. لكن، من باب الاحتراز، نحتفظ بملفه هنا، حتى نرى.

كان والدُه يبحث عن سيجارة أخرى في جيوبه، وهو يتلعثم شاكراً بخنوع محير لشخص تابع (لن يتكرر هذا الأمر، سيدي المفتش، أؤكد لك ذلك)، يدفعه دفعاً نحو باب الخروج عبر قاعات مبتذلة حيث رجال مبتذلون يرقنون من دون حماس وثائق على الآلات الكاتبة، على امتداد ممرات ضيقة معتمة، ومكاتب مغلقة فوق أبوابها مصابيح حمراء وخضراء، هي أوكار لرؤساء الشرطة الذين يخططون سراً لإراقة دماء الشيوعيين. ظل الرجل القصير

يركض خلفهما ثم اختفى في الأخير (وداعاً، سيدي المهندس، وكن عاقلاً أيها الصغير) في إحدى الغرف الضيقة. كانت أظافرهُ المصبوغة تلمع في العتمة، ثم، فجأة، كانت المدينة، السائق متكئاً على غطاء محرك السيارة يطوي بسرعة جريدة «بولا» الرياضية، وظهرت شمس نوفمبر فوق المنازل، والأسطح، والأشجار، والوجوه المحايدة للمارّة. يُفَكِّرُ وحينئذ كنتُ ميتاً، يا أبي، حينئذ اعتبرْتَني ميتاً لما تسببتُ لك فيه من إزعاج، أجبرتُك على أن تنحطّ أمام شخص قذر، دنيء لم يتجاوز القسم الخامس من الثانوية، يرتدي واحدة من تلك البذلات الجاهزة التي تباع في محلات الأحياء وتزينُ دمى الورق المقوى في واجهاتها، كائن يشبه محاسبي مقاولتك الذين لا تتفضّلُ حتى بالنظر إليهم. أغلق السائق باب السيارة بكل احترام وجلس خلف المقود أين سنذهب، سيدي المهندس؟ اتركني في المطار وبعد ذلك خذ ابني إلى المنزل. أخذتُ حماماً، جلستُ إلى المائدة لتناول الغداء، لم يسألني أحد عن أي شيء، كانت أمي تبتلع عقاقير لعلاج آلام الرأس، وأختي الموسيقية، مركزة نظّارتيْها على التّوليفة، تصارعُ قطعةً لدوبوسي في الصالة. لم تتركني قط حتى لأتمرد، وأبلغ أقصى درجات غضبي: ظلّك، الضخمُ، الوصيُّ، المتسلطُ، الخصّاءُ، كان يحميني، ومن ثمّ قررتُ أن أتابع دراسة الآداب، وأصبح أستاذاً، فرفضتُ العمل في المقاولة، تخليتُ عن استعمال ربطة العنق، وانبريتُ أُدرّس البنيوية، نظرية الأدب، الشعر الفرنسي أو أي تفاهة أخرى مماثلة لا تقل عبثاً عن هذه. ربما كان يودُّ أن يشتغلَ في النقابة لكن اليسار كان يحترزُ منه واليمينُ يكرهُه، كما لو كان خائناً، وكلا الطرفَين كانا مُحقّيْن فيما يبديانه من تحفظات تجاهه، واحتراز من شخصه، وانتقاده. يُفَكِّرُ من أكونُ أنا في نهاية

الأمر، ماذا أريد في نهاية المطاف، امرأة بورجوازية، امرأة شيوعية، مزيجاً غريباً من شخص محافظ ومغامر مُحبط، مثير للشفقة، خارت قواهُ.

- حسناً، أخفض المبلغ إلى ثمانية آلاف إشكودو وزيارة الطفليْن يوم أحد كل خمسة عشر يوماً - قالت توشا وهي تبحث مقرفصة عن أسطوانة أخرى في الكومة الهائلة - لكن لا تنتظر مزيداً من التنازلات من طرفي. أودع المال في البنك واقرعْ جرس الشارع ثلاث مرات حتى ينزل الطفلان: بيدرو يتدبّر أمره جيداً مع أزرار المصعد، ورث عنك مهارتك في التعامل مع الأشياء الميكانيكية.

كم كان جسدُكِ جميلاً هكذا، مؤخرتُك عند مستوى الأرض، وكيف كان ردفاك يثيرانني: أعانقك من الخلف، أجعلُك تشعرين بقضيبي في ظهرك، أشتمُّ الرائحة المركّبة المُتغيّرة لشعْركِ. ثنية فخذيْكِ، شكلُ فمكِ، لونُ عينيْك القوي، الحادُّ كلون العنب. ثم إنني أحبُّ كثيراً أن تنامي بالمكياج، سوف أشتاق إلى بقع الرّيمل فوق الملاءات، إلى الرّعي فوق الجلد الصافي الثابت لبطنك، إلى البقع الخفيفة المُبيضّة لما بعد الولادة على منعطفات خصريْك.

- إنني أعيد لك الشاب، سيدي المهندس، وليحترز ممن يعاشرهم.

المؤامرات الرديئة في قاعة الطلبة، الأحاديث بصوت منخفض بين الأصدقاء التي تتوقف فجأة عندما أقتربُ. لم يسمحوا له قط بحضور شيء آخر غير بعض الأنشطة الطلابية التافهة التي لا أثر لها: يوماً ما، أيها الرفيق، يجب أولاً المرور بعدة اختبارات، علينا أن نكون محترزين، هل فهمتَ، نتقدم بحذر شديد، ونتخذ بعض الاحترازات الأولية، هل رأيتَ، رجال الشرطة الأوغاد هؤلاء دائماً

يلاحقوننا كالظل ويرغموننا على ذلك، نصف دزينة من الوجوه المستغلقة، ضربات خفيفة على الظهر، الشمس تغرب هناك في الغابة، وعند نهاية المساء تقلعُ الطيور جميعاً من شجرة الكستناء قرب البئر كأنها حبات فاكهة غريبة ثم تحلق لحظة في الريح، كأنها تائهة، وتهربُ باتجاه الليل، زملائي في القسم يرتدون معاطف مفتوحة الأزرار ويركضون نحو قاعات الدرس بحثا عن أماكن في المدرجات مثل طيور أبي الحناء فوق أغصان أشجار التين، يجب على ابنك أن يطيع الأوامر، سيدي المهندس، أن يبتعد عن المشاكل، رجُلاي، قالت أمي باسمة، كنتُ صغيراً جداً، فلم أكن ألمس الأرض بقدميّ وأنا أجلس على الأريكة، لا أرى ما وُضع فوق الموائد، فوق الرفوف، فوق الأصونة، ولا أرى الأواني الخزفية، واللوحات، والعلب الفضية، وقدور الحساء، والصحون الموضوعة عمودياً فوق حاملات ثلاثية من خشب، وجَدَ مقعداً في الخلف، وكان الأستاذ قد بدأ الدرس، دون جْواو السادس[1]، أخرج من جيبه قلم حبرٍ ليُدوّن ملاحظات، ربما تستطيع يوماً ما أن تنخرط في **الحزب**، تناضل بجدّ من أجل الطبقة العاملة، تنسيهم في أصولك البورجوازية، رفَعَني ذراعا والدي الشابين، ورائحة عطره تخترق عذبةً خياشيم أنفي، أشارَ لي بإصبعه إلى الغابة الزرقاء واقترب رأسُه من رأسي، بَرْهِنْ لنا عما تستطيع القيام به لأجلنا، وَزِّعْ هذه المناشير في الكلية، ثم قالَ سوف أشرحُ لك الطيور.

- أفيْرو، يا لها من فكرة غريبة، أفيْرو - احتجت ماريليا وهي تنظر إلى أشجار الصنوبر والأوكاليبتوس، إلى القرى المجهولة، إلى

---

(١) هو ملك البرتغال والبرازيل بين عامَي ١٨١٦ و١٨٢٥. (المترجم)

السماء المُحدّبة الكثيفة والمثقلة بالمطر الذي تأخر نزوله، والذي ربما لن ينزل أبداً، كما كانت تتوقع الجرائد. يُفَكِّرُ التعليقاتُ التي لا بد أن رفاقَكِ في الحزب قاموا بها عندما أخبرْتِهم أنك ستعيشين معي: عبارات لوم، وتحذير، ومزاح، استبدلتِنا بواحد من أصحاب الامتيازات، تصوري، أرستقراطي رديء، مُستغلٌّ لا يستوعب وضعه. ومع ذلك، كنتُ لا أملك مالاً، كنتُ قد قطعت كل علاقة تقريباً مع أسرتي، وكانت كل ثروتنا تتلخص في حوض السمك في الغرفة وتلك السمكة الشفافة التي تكبر هناك في الخلف فوق الحصيّ، كنت أريد أن أمحو من ذاتي حكايتي المؤسفة مع توشا، أبدأ من الصفر، أن أكون سعيداً بكل بساطة.

- لقد تحدثت سابقاً عن متعددات المخارج في الجبر، أما الجذور التربيعية فكانت شيئاً كارثياً - قال أستاذ الرياضيات ذو الشاربيْن الاصطناعييْن الملتوييْن، وهو يحمل رافعَ أثقال من الورق المقوى يعلن بكتابة طباشيرية «عشرون طُنّاً» - مع أن والدك يُسيّر عدة مقاولات، لم أر قط شخصاً بموهبة جد محدودة في الأرقام.

كان أستاذ الرياضة يرتدي ملابس بيضاء بالكامل فظهر من وراء اللوح الخشبي وهو يقوم بحركات الركبة مثل عداء. أنفٌ أحمر مُدوّر، مشدود إلى أذنيه بخيط مطاطي، يمنحه شكل مُهرّج:

- فاشل في المتوازيين، في استعمال الحبل، ورديء في كرة اليد - قال بنبرة رتيبة وحادة - يظلُّ جالساً، جامداً، نحيفاً مثل مسمار، شبهَ أكسح، ينظر إلى الآخرين.

شخصان يضع كلاهما خوذة يتحدثان قرب دراجة نارية عند مدخل إسْتارّيجا. وقَف بالقرب منهما، أنزلَ زجاج السيارة، أخرج رأسه وسأل:

- أين الطريق إلى الخليج، من فضلكما؟

كانت الرطوبة تمتزج بكلماتهما، بخاراً بطيئاً، لزجاً، يلُفُّهما: فبراير، فكَّرَ، من طلب مني أن أقرر مصير حياتي في فبراير، وأرغب في العودة إلى الغرف المأجورة في فصل الشتاء، أدفع عشرين إشْكودو إضافية عن كل حمام آخذُه، دون أن يكون لي حق في تلقّي الزيارات أو مشاهدة التلفاز، وأضطر لأقتصد في التدفئة، والماء، بل وحتى الهواء الذي أتنفسه. فمن يجبرني على أن أغير حياتي في سن الثالثة والثلاثين، يا لي من أبله.

عدّلت توشا لوحة على الجدار وتراجعت خطوتين إلى الوراء لتتأكد من الأثر.

- رغم كل هذه المعارك أودّ أن أظلّ صديقتَك. إن كنت ترغب في ذلك، أنا لا أجبرك. لدينا طفلان معاً، أليس كذلك؟

- الطفلان المسكينان - قالت أمُّه وهي تقدم الشاي لزائرات جامدات مثل تماثيل من شمع، جالسات مستقيمات على أرائك الصالة - ما ذنبهما إن وُلدا وجاءا إلى هذا العالم؟ أنا لم أترك أبداً زوجي، رغم أنه كان لدي ما يكفي من الأسباب للقيام بذلك.

- وجدنا صعوبة في التعرف على جثته - قال كارلوس - وقد التهمتها الطيور، والوحل في الخليج، والوقت الذي تطلبه اكتشافها. أكّد لي مفتش الشرطة القضائية أنه لم يكن من السهل اكتشاف جثة وسط القصب، خاصة أن النوارس مُخادعة وتتظاهر أنها لا تعلم شيئاً، لا تفهم ولا تملك حاسة شم. النوارس، طيور القطرس، البطّ، وكل هذه الحيوانات البحرية الغريبة.

ترجّل أحد الرّجُلين عن الدراجة النارية واقترب من السيارة. من قرب، كان يبدو أكبر سناً، أكثر اهتراء مما تصوره لأول وهلة،

أخاديد داكنة تتخلل وجنتيه ويدان منتفختان حمراوان من فرط الصقيع وتصلّب الجلد.

- من هنا إلى مورتوزا مباشرة، هناك لوحات تشير إلى «أنْزال»، كم لو أن الأمر يتعلق بمدينة. للذهاب من أفيْرو إلى الضفة الأخرى، ليست هناك سوى وسيلة واحدة، المركب.

- فجأة، لا تأبه بمسيرتك الدراسية، بالمؤتمر، بأطروحتك حول حول سيدونْيو بايِشْ، بالدكتوراه، ما الذي أصابك؟ - قالت ماريليا - كأن الحياة لم يعد لها معنى بالنسبة لك.

- نظلّ صديقيْن، ليتني أصدّقُ ذلك - أجاب - بالنسبة لي يمكنكِ أن تحشري هذه الصداقة في أي مكان شئت من جسدك.

ثم صاح، بنفسجياً من الغضب:

- من ذا الذي تستعدين للقائه أيتها الكلبة؟

- لا تعول عليّ بهذا الخصوص - حذره والده وهو يشير إليه بإصبعه الأصغر - ما كان ينقصني سوى أن يتآمر ابني الأبله ضد الحكومة. إن السياسة أمرٌ خطير جداً على الصغار.

- حسناً، سوف أعطيك مهمة مساعد - قال له العجوز ذو الشاربين الجالس تحت نقش غامض يصور معركة حيث أشخاص يشهرون سيوفاً (قشتاليون؟) ويتقاتلون بحزم، ومرح غاضب. لا أحد يهتم جدّياً بالجمهورية الأولى[1] ويمكنك أن تقدم مساهمة قيمة. لقد أعجبتني كثيراً المقاربة النفسية الاجتماعية في دراستك للأصول البعيدة للخامس من أكتوبر، رغم أن بعض نظرياتك تبدو لي قابلة

---

(١) تمتد الجمهورية الأولى في البرتغال بين نهاية النظام الملكي سنة ١٩١٠ وانقلاب مايو العسكري سنة ١٩٢٦. (المترجم)

للنقاش، حتى لا أقول غريبة (إن الطيور حين تموت، شرح والدُه، تطفو في الريح، وبطنُها إلى أعلى). فقليلاً من فرويد وكثيراً بعض الشيء من الموضوعية لن تضرك في شيء. لكن، أخيرا، بخصوص هذه النقطة، لم يكن أوليفيرا مارتينْش[1] يختلف كثيرا عَنك.

في تلك الفترة كنتُ أستعملُ نظارتيْن على طريقة غرامْشي، كنتُ بديناً، تغطي البثور وجهي، ولم يكن شعري قد بدأ يسقط: هالة من الحلزون اللزج تحاصرُ وجنتيَّ لكن والدي كان ثرياً، يا توشا، وكنت نوعاً ما زوجاً متساهلاً: منذ الشهور الأولى لزواجنا كنت تخرجين وحدك في كثير من الأحيان، تقضين ساعات طوال خارج البيت، تحضُرين كثيراً من الاجتماعات المهنية مساء، كنت كاتبةً لصديق مبهم من أصدقاء والدِك في شركة للحاويات، تساهمين في أنظمة تأمين تذر عليك بعض المال: فساتين، أحذية، فترات تزلُّج في جبال سييرا نيفادا خلال فترة الكرنفال، نهايات أسبوع جماعية (جماعية؟) في منطقة الغرب. وفي مكان ما من حكايتك كان هناك رجل متزوج، يفوقك سناً بكثير، لم أعرف قط اسمه: هل كان ثمة طوال علاقتنا رجال آخرون أكبر سناً، وألغاز أخرى؟ كان الصباح الزّيْتي يؤثر على حركات ماريليا بثقله الحزين.

- هكذا، إذن، من دون سابق إنذار، نحو خليج أفيْرو، اللعنة. ثمة أوقات أتساءل في نفسي كيف أستطيع أن أتحملك.

نزوات سوداء، نوبات اكتئاب غاضبة، قلق أمام ألوان سحب

---

(١) مؤرخ وعالم اجتماع برتغالي(١٨٤٥-١٨٩٤). أثرت أعماله في أجيال كثيرة من المفكرين البرتغاليين في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. (المترجم)

تتناثر فوق البحر، مساندُ ومساندُ متراصة، تعج بذقون مزدوجة من الأقمشة البرّاقة. الصوتُ المزعج للشخص القصير وهو ينزل عليه بضربات خفيفة على ردفيه، أمام أشخاص بلباس مدني عند الباب. ومن أشجار الصنوبر الكئيبة كانت تتدلى دموعٌ طويلة وشفافة، اللعنة ما الذي دفعني لأرتبط بشخص بورجوازي، المرأة ذات الشعر الأشيب كانت في جولة مع كلبها في حديقة بالخارج فخلعت نظارتيها السوداوين وضحكت: اختفت عيناها في كومة من التجاعيد.

- لا أتذكّر جيداً زوجي الأول - قالت بنبرة متردّدة - مرت عشرون سنة وشيئاً فشيئاً ننسى الناس. أذكرُ أنه كان يرفض أن ننفصل، أثار ضجة كبيرة، فكسر الأواني وأيقظ الجيران. غضبُ الضعاف، هل فهمت، القلق المثير لمن يفتقدون للثقة. بعد ذلك، عاش مع شيوعية ما، زميلة له في الكلية، واحدة من تلك الفتيات اللواتي يرتدين لباس بونْشو أحمر وينتعلن أحذية خشبية، ثم انتحر، وجدوه متعفناً وسط القصب في أفيِرو، في الوحل، تحيط به الطيور. كان في طريقه إلى أحد المؤتمرات، لكنه لم يضع قط قدميه هناك، وقد كان دائماً يتحدث عن التزاماته. من جهة أخرى، على المستوى الجنسي، لم أرَ في حياتي أخرق منه؛ كان يجد صعوبة في الانتصاب، فيتوتر، ويشرع في طلب العفو، والبكاء. لا أفهم اهتمامك، لأنه لا يوجد كثيراً من الناس ممن يولونه اهتماماً.

- ثلاثة كيلوغرامات ومئتا غرام عند الولادة مع شيء من الصعوبة في الرضاعة - قرأ طبيب الأطفال متلعثماً وهو يطالع الملف. (لم يكن هناك أحد في قاعة الانتظار) أمراض أطفال عادية، لقاحات في وقتها، عملية شبْم في سن الثامنة.

رفع عينيه ببطء عن الورقة:

- إنكم تعرفون بما يتعلق الأمر بكل تأكيد، مشكلة في القضيب، عندما لا ينزل الجلد.

قريباً سنصل إلى أفيْرو، يا ماريليا، فلوحات الأنْزال بدأت تتعدد: أنزال، أنزال، أنزال، أنزال، سهام تشير في ضباب الصباح، رائحة ماء عفن، شبهة شاطئ، لم أُحضّر شيئاً، لا أجد في ذهني كلمات أشرح لك من خلالها ما يعتريني وما لا يعتريني، لدي رغبة جديدة لأهرب، لأدير أعقابي، لأرحل وأبقى مع ذلك في هذا البلد اللعين، بالقرب من قاعات السينما، والحانات، والأصدقاء الملتحين الفنانين من كثرة كلامهم، المتباكين على ما لم يحققوه أبداً أمام جعة وحيدة. أنا لم أعد أحبُّكِ (هل أحببتُك يوماً؟) أفضل أن أعيش وحدي لبعض الوقت (وهل تمنيتُ شيئاً آخر، يا إلهي؟)، أريد حياة عادية من دون روابط ولا قيود، هل فهمتِ، من دون حبال تشدُّ ذراعيّ وساقيّ (سوف أسارع لأجد أخرى، كوني مطمئنة)، لديّ طفلان يكبران وأنا بحاجة إليهما من حين لآخر (منذ كم من أسبوع لم أذهب للبحث عنهما؟) قريباً سنصل إلى أفيْرو، وقد نسيتُ رائحة شعركِ، شكل نهديكِ، طريقة النسغ البطيئة التي تتبلل بها فخذاك. عندما كان يزورنا بعض الأقرباء، كان أبي يبسُط شاشة على حامل ثلاثي القوائم في عمق الصالة، يضع عارض الأفلام، يطفئ الأضواء، فيبرز فوق الثوب مثلث أبيض يرتعش، تظهر وتختفي خطوط وعلامات حمراء، ينتشر مخروط من الضوء يعلو عبره دخان السجائر في أشكال لولبية بطيئة فوق رؤوسنا، وفجأة كان البحر تغطيه طيور القطرس، خط الزبد الذي لا نهاية له، الامتداد الأفقي، بلون النشارة، في الشاطئ، ومن جديد طيور قطرس تتحرك فوق المستطيل الأزرق العميق للفيلم، بأجسامها الرشيقة، بمناقيرها الشاحبة

المفتوحة، بريشها المسطح فوق أجنحتها، عشرات، مئات، آلاف الطيور نتخيل نعيقها، صراخها، انتحاب الأطفال الخفيف، طيور جاثمة فوق الصخور، تتحدى بعضها بعضاً أو تتصارع، تنفخ صدرها، غاضبة، متحمسة، مرحة، تنادي بعضها بعضاً، تبتزّ بعضها بعضاً، تبتعدُ، أبي لا يُصوّر غير الطيور والضيوف يطلقون تعاليق عالمة ومبتذلة، يشعلون سجائرهم، يضعون قطع ثلج في أكواب الويسكي، ثم يقسو الصوت الدقيق في الهاتف فجأة، متسلطاً ومدهشاً:

- آداب؟ لكن لماذا الآداب، بما أن كل ما تؤدي إليه هو أن يصبح المرء أستاذاً في ثانوية يتقاضى أجراً زهيداً في نهاية الشهر؟ استعمل عقلك، يا بُنيّ، وادرس الاقتصاد أو القانون، لكن ليس الآداب، ستكون غلطة خالصة. هل تعرف متخرجاً واحداً من الآداب يسيّر مقاولة؟

- إنه يرفض أن يشتغل لصالحنا - قال صديقُ والده، الذي يستعمل نظارات ثنائية البؤرة ويدير مكتب لندن، يسطّرُ بقلم أحمر عدة مقاطع مرقونة في ملف ضخم - إنه لا يهتم بتاتاً بما هو في ملكه، بما سيكون يوماً ما في ملكه، يوماً ما سوف يلتهم أصهاره كل ثروته بسرعة، لكن هو، كالأبله، لا يهتم سوى بأفونسو إنريكي ودون بيدرو الرابع[1]، وحماقات قديمة لا تثير اهتمام أحد، يقضي أياماً بكاملها في المكتبات يطالع المخطوطات. صراحة، لست أدري أين ذهب يبحث عن هذا الهوس.

---

(١) شخصياتان مهمتان من تاريخ البرتغال. أفونسو إنريكي (١١٠٩- ١١٨٥) هو أفونسو الأول، المعروف لدى البرتغاليين بالملك الفاتح أو العظيم. أما بيدرو الرابع (١٧٩٨-١٨٣٤)، فكان أيضاً إمبراطور البرازيل. (المترجم)

– آداب؟ – سألتْهُ أمّه وهي تقطب حاجبيها – ما هذا؟

كانت تمزج أوراق اللعب بمهارةِ ساحرٍ، توزعها بسرعة فوق السجاد الأخضر على رفيقاتها في اللعب، والآن أنتِ تعانين من سرطان، شاحبة اللون، نحيفة جداً، ستموتين، بنتُ العم البطّالة تعاين احتضارَكِ المنعزل وهي تنسج، ربما سيرن الهاتف خلال نهاية الأسبوع في هذه الغرفة من الفندق التي لن أكون فيها، أختي الصغرى تنتحب أبي خرج للتو من هنا لن تكون فكرة سيئة لو جئتَ، لكني ذهبتُ إلى أفيْرو، هل ترين يا أختي هذه الأنانية، حتى أشرح لنفسي الطيور، والنوارس التي نلمحها الآن بعيداً، خلف أشجار الصنوبر، تحلق في دوائر متحدة المركز أو في خطوط إهْليجية متصاعدة، أنا في أفيْرو وأريدكم جميعاً أن تذهبوا إلى الجحيم، رفقة مآسيكم العائلية، أمواتكم الذين لا قيمة لهم البعيدون مني بُعد بناية الضيعة يوم كنتُ صغيراً، عندما كان والدي يحملني بين ذراعيه ليحدثني عن الطيور تحت شجرة الكستناء الضخمة، أريد أن أرسل كل شيء إلى الجحيم، باستثناء رائحة الماء العفنة هذه التي أقترب منها، وأشجار الصفصاف، والأعشاب، وهذه الأشجار التي لا أعرف لها اسماً. على الأقل، أودّ ألّا يكون السرير مترهلاً أكثر من اللازم، تقول ماريليا، لأنني لا أستطيع النوم في الأسرّة المترهلة جداً لأن كل شيء يغرق فيها، حتى الأحلام، وقد صارت خنوعة، متواضعة، مستعدة لهدنة دائمة، هذه المرأة تحبُّني، فكَّرَ، مندهشاً، وهو يتجاوز جراراً، هذه المرأة، كم هو غريب هذا الأمر، تُحبّني بصدق، مزيد من الضباب، مزيد من أشجار الصنوبر، ولا منزل واحداً الآن، فقط اليابسة والماء، كلاهما أُفُقيّان رماديان، يعكس الواحد منهما الآخر مثل مرآتيْن متوازيتيْن ترقبان بعضهما، **أيهما**

حقيقية، أيها الشاب، ميّزْ الحقيقية من الزائفة من دون لمسهما، قال أستاذ الجغرافيا، رجال قاتمون يركبون دراجات هوائية يقودونها على جانب الطريق، أين هم ذاهبون؟ ظهور عريضة مقوّسة على المقاود، آداب، كانت أمُّه تردد وهي تقطّب حاجبيْها، ما هي الآداب؟ كيف تنام الطيور، تساءل وهو يبحث عن السجائر في جيبه، يا إلهي، عدد مذهل من الأمور التي ظلت من دون شرح في طفولتي، الظلام، الشمس، المطر، ضحك الناس، وفجأة بيتٌ منعزل على حافة الماء قرب مراكب صغيرة متعفنة راسية، سجينة في الوحل، مشدودة بالمراسي والحبال، سيارتان أو ثلاث سيارات مرقمة في الخارج (فرنسية؟ إنجليزية؟ ألمانية؟) مركونة أمام الباب، أخْرجْنا الحقائب من السيارة، وأبى صندوقها، كالعادة، أن ينفتح، ورفضَ أن ينغلق، فاضطرّ أن يضغط بكل قوته على الصفيحة حتى سمع طقطقة مُطمْئنة، انتهى الأمر، وماريليا، مستقيمةً جداً، واقفةً بعيداً عن الرمل، تتأملُ النهر الذي ينسابُ من دون تجاعيد باتجاه بحار غير محتملة، يحيط بها فقط الضباب، والجذوع وصمتُ الصباح الذي صار ضخما فجأة، من دون تمزقات زرقاء، أمْسكَ الحقيبة، أخذ حجماً ثانياً، وحجماً آخر أصغر منه، وأخذْتِ أنت ذلك الشيء الأسود المُبرْنق الذي يشبه ما يضعُه الأطباء قلادةً في أفلام رعاة البقر (أين هو مأمور الأمن الجريح؟) تستعملينه لحمل أغراض تزيينك الصغيرة، إنه الرجل الممدّد هناك فوق شظايا زجاج المرآة المتناثرة في الحانة، دكتور ماك غْرووْ، ثم تقدما، الواحد تلو الآخر، في صمت، باتجاه الباب الزجاجي للفندق، *English Spoken*، مع شعارات ورقية لجمعيات سياحية أُلصقتْ حول القفل، مئات النوارس تحوم في صمت في الخليج اللامتناهي، كأنها قد وضعت بلطف فوق شريط معدني من

دون انعكاس، امرأة بنظارات وراء المكتب على اليمين تدون شيئاً ما في سجل الحسابات، مفاتيح الغرف معلقة على خزانة صغيرة خلف ظهرها وبعيداً بعض الشيء ثمة ما يشبه شلالاً تُزيّنه كثيرٌ من الأزهار، مستخدم طويل القامة ونحيف، يرتدي صدرية وينتعل حذاء مُبرْنقاً، يصعد السلالم في الخلف، نريد غرفة حتى يوم الأحد، قلتُ، تابعت المرأة ذات النظارات عمليات الجمع، رابطة الجأش، وفي الخارج، كانت النوارس ترقص بهدوء، تتهادى بشكل غير محسوس، تتأرجح، غرفة حتى يوم الأحد، ردّدَ بصوتٍ أعلى وهو يترك الحقيبة تسقط والكيس الأكبر حجماً، بْلوفْ، بْلوفْ، انهيارُ جسميْن ميّتيْن فوق مربعات التبليط في البهو، ملصقات إشهارية تمثل مدن إشْبينْيو وأرْماساوْ دي بّيرا، وديك بارْسيلوسْ[1] المعتاد فوق الرّف، منفضة فخارية حيث يحترق عقب سيجارة لم يُطفأ كما ينبغي، مدّت لنا السيدة قصيرةُ النظر ورقة دون أن ترفع ذقنها، دون أن تنظر إلينا، هل معكِ قلم حبر، سألتُ ماريليا التي كانت تتسكع من ملصق إشهاري إلى آخر بفضول ساخر، يا له من بلد لعين بلدُنا، كانت تعلن تكشيراتُها أمام المناظر الورقية، يا له من بلد لعين حقاً بلدنا، كما يحدث كلما كنتِ منزعجة مني أو حائرة يصبح غضبُك مني كونياً، فَكَّرَ، إنها تشمل ضمن دوائر متحدة المركز الكون بأسره في موجة مرارة واحدة، أحبُّ إشْبينْيو، أحبُّ أرْماساوْ دي بيرا، أحبُّ بارْسيلوسْ، أحبُّ حيّ كامْبو دي أوريكي أيام الأحد عندما لا أعاني من الزكام، فازَ فريقُ بنْفيكا، الوقت صيف ولا أعاني من آلام في

(١) تعرف بلدة بارسيلوس البرتغالية بصناعة عدد من الديكورات من بينها الديك، الذي يمثلُ رمزها. (المترجم)

العمود الفقري، أحبُّ أن أكون من هنا وأكون معك أحياناً، كان غصن ما يلمسُ إطار النافذة بشعر عجوزٍ جاف وهذا الصرير يثير أُذنيّ مثل طبشورة الأستاذ في المدرسة، دفعتُ الورقة نحو السيدة صاحبة النظارات، التي مدّت ذراعها عشوائياً، دون أن تنظر إليّ، أخذتْ مفتاحاً بمهارة دقيقة ومدهشة مثل ملقط جراحي، ثم سلمتني إياه، رفعتُ رأسي فوجدتُني أمام عينيْن جاحظتين كان الزجاج يزيد من حجمهما بشكل مفرط، زوجان من الحشرات تحاصرهما أعداد لامتناهية من أرجل الأهداب، طارت كل النوارس دفعة واحدة، رسمت نصف دائرة صاعدة في الضباب، حطّت في أقربِ خليج من مصبّ النهر، حاولتُ أن أميزها، وأن أعدّها: واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة ثمانية، وصلتُ إلى تسعة عشر عندما ناديْتِني، زوي، وكانت ما تزال تنقصني كثير من النوارس لأعدّها، كثير من النوارس في الصباح الكئيب، المتخم بالبرد والرطوبة، شخصٌ يرتدي صدرية وينتعل حذاء مبرنقاً بدوره لكنه أكبر سناً، بملامح متشققة، بهيئة حيوان مهين مثل بدوي وجذع واسع كثير العظام كجذع بغل (لا بد أنهم يدفعون له أجراً أقل من الآخرين) يحملُ أمتعتنا عبر الممر، غرفٌ وضعت أرقامها على لوحات معدنية، سجادات تحتضر، لوحات مائية بغيضة على الجدران، خادمة ببذلة عمل بنية تجرُّ مكنسة كهربائية يخور خرطومها الرخو كأنه خرطوم فيل، **هنا**، قال البدوي وهو يصارع قفلاً لا يقل مقاومة عن قفل صندوق سيارتي، مدخل ضيق عُلّقت فيه لائحة الأثمان داخل إطار، غرفة غارقة في العتمة حيث يتراءى بريق مشجب المناشف (قطعُ صابون صغيرة جداً، فَكَّرَ، أكرهُ قطع الصابون الصغيرة جداً التي يضعونها حتماً في حمامات الفنادق، ملفوفة بعناية في ورق فضي تزينه أزهار دقيقة)، سريران

بفراشيْن تزينهما رسومات أغصان وزهور، آلة الجرس عند طرف السرير، صوان بمرآة ونحن الثلاثة في الجهة الأخرى، متطابقين وأخرقيْن، ننظر إلى بعضنا نظرات حادة، **لم** أعتد قط أن أكون راشداً، فَكَّرَ، يا له من عبث كل هذا، لا أعرف في أي سنّ كان والذي يحل كل مشكلاتي نيابة عني، يختار مكان قضاء عطلتي، يدفع البقشيش، يأمر بإصلاح السيارة، فتتلاشى مآسي الحياة اليومية الواحدة تلو الأخرى بسهولة المعجزات، **أستاذ** الرياضيات يمنحك المعدل، لكن تدبر أمرك ولا تحشر نفسك في أية مشكلات خلال هذه السنة، **لديك** هذا الأسبوع موعد مع طبيب الأسنان، **بعد** غد اذهب لمقابلة العقيد بارّوزو من أركان الجيش وسيحل الأمر في طرفة عين، والدُه، أصدقاءُ والده، حِيَلُ والده، مالُ والده، وقد تقلص دورُه الآن في القيام بحسابات ذهنية ليعرف إن كان الشيك الذي سيقدمه يوم الأحد إلى الفندق مضموناً، سحب البدوي ستار النافذة المطلة على نهر فوغا فوجد مرة أخرى صفحة الماء الهادئة وما يشبه ريحاً تهب عند مستوى الأعشاب، أمُّه تتحدث عن الخادمات مع صديقاتها، **اشْرحْ** لي الطيور يا أبي، دسّ ورقة من مئة إشْكودو طويت مرات عديدة في يد الرجل، انغلقت الباب، بقيا وحدهما فتملّكه نفس الفزع الذي استحوذ عليه في تلك الظهيرة يوم مارس الحب لأول مرة، سأل صهرهُ الأكبر عن كل صغيرة وكبيرة، كيف أضع الساقين، كيف أضع الذراعين، كيف أفعل، الفتاة تبتسمُ فوق السرير، وقد سحبت الغطاء حتى عنقها، **تعال** هنا أيها الصغير، فالأطفال يجلبون الحظ وأنا بحاجة إلى الحظ، كانت من النوع المثير، مرت بمآسي معقدة لا يمكن تصورها: انتحار الزوج، موت الابن، شهور مأساوية في المارستان، **هل** ترى هذا النُّدب من

الاسترواح الصدري على ضلوعي؟ في النهاية، جلسَ على الفراش وداعب شعرها، فشعر أنه راشد، ومسؤول، **سوف** تتزوجين مرة أخرى وتكونين سعيدة، هل تسمعينني، كانت تفوح من إبطيها رائحة قوية ومقرفة (رائحة ثوم؟) جال فمها عبر صدره، تأخر كثيراً يلحس السرّة، الأربية، الخصيتيْن، وهو ممدد فوق الأغطية، مغمض العينين، يتلوى من لذة مجهولة، موجات متتالية تتدفق على جلده، يُفَكِّرُ، **سوف** أتولى أمركِ، سوف أنقذُكِ، ما إن أنهي العام السابع حتى أجد عملاً وبيتاً في أي مكان، ليست البيوت هو ما ينقص، أفضّلُ إشْتريلا أو أي حيّ آخر يمكن أن نرى فيه النهر، سوف تضعين معطفك بجلد الفهد الاصطناعي ويوم السبت نذهب إلى السينما لنشاهد دراما عاطفية في الأوديون: «**زوج مثالي يتكون من سليل مهندس وعاهرة تائبة استقبلها قداسة البابا**»، يتأخر اللسان طويلاً عند القضيب وفجأة تبتلعُ الشفتان أسطوانتي التي تقطر، حمراء من الشبق، **انظري** كيف انتصب قضيبي، سأنتعظ، ماذا ستفعلين (هل تبصقين؟ هل تبتلعين؟ تبصقين؟ تبتلعين؟ تبصقين؟ تبتلعين؟) ما سوف أرميه من ذاتي وبسرعة، والآن أعطني مئتي إشْكودو، لم يكن ذلك مكلفاً، أليس كذلك؟ لم تخلع حتى حمّالة صدرها الوردية المخرمة عند الوسط، ربما حتى حكاية ابنها كانت كذبة، نزل السلالم متقززاً من عالم كان يتصور فيه أشخاصاً يلقون بأنفسهم من القناطر ويصطدمون بالجدران، مشى حتى بلغ ساوْ بيدرو دي ألْكانتارا، يوجّهُ ركلات إلى الأوراق التي يجدها في طريقه يفكر في طريقة فعالة ينتقم بها من الكون بأسره، تمسّك بالدرابزين المعدني الجليدي، يا لها من حياة لعينة، فَكَّرَ، كل هذه البيوت وهذه الشوارع مليئة بالأوغاد وحثالة الناس، ألصق جبينهُ بمربعات النافذة ليتأمل النهر وحركات

الطيور، مرآة غرفة الفندق لا بد أنها تعكس وراءه صورة ظهره في سن الثلاثين، من دون طاقة ولا عضلات، ربَّما ملابسهما في الجوارير دون أن يتبادلا بنت شفة، نظف أسنانه ليزيل عن لسانه المذاق المر للتبغ، وها أنا ذا مرة أخرى، الرغوة تقطر من ذقني، وهذه التجاعيد، وهذان الصدغان العاريان لرجل في السبعين، أنزلْتِ سروالكِ ولباسك الداخلي، يا ماريليا، جلستِ فوق الحوض لتبولي سُلّماً من نغمات القيثارة، المرفقان فوق الركبتين والكفان تحت الذقن، فشعرتُ بالقرف من قلة حيائك، ولمَسْحِ عورتكِ، استعملتِ كالعادة كثيراً من الورق الصحي، شريطاً طويلاً، لا ينتهي، قطعته بعصبية من اللفافة، بنت بروليتاريين وشيوعيين لكنها مبذرة كثيراً، وكميات معجون الأسنان، مثلاً، التي تبسطينها فوق الفرشاة، الحمام الذي تأخذينه في حوض يفيض بالماء، مؤشر الماء الساخن دائماً مشتعل، مثل شمعة نذرية، ملابس داخلية، جوارب سيقان، وسراويل من كل الأنواع (تضطرين لتحريك وركيك، مثل ديك حبشي، كي تدخلي جسدك فيها)، شعر قصير عَدّلتِه كما اتفق بأصابعك، ولا ذرة ماكياج واحدة، قميص ذكوري واسع أكثر من اللازم يتدلى متراخياً على جسدك مثل اللحم على عظام أشخاص عانوا كثيراً من الهزال، كانت توشا تمضي ساعات طوالاً تتأنق، ترسمُ عينيها بضربة قلم غاية في الدقة، ثم تبسط الكحل المُظلّل على جفنيها بفرشاة صغيرة، أما الآن وأنا أرى الأشياء من بعيد، يبقى سأمي هو نفس السأم، ظمئي للصمت هو نفس الظمأ، أريد في الوقت ذاته أن يهتم بي الآخرون وأن يتركوني في سلام، أن يحبوني وألّا يحبوني، أن ينادوني وأن ينسوني، غيرت توشا مكان صورة لنا نحن الأربعة من فوق الصوان وبنبرة حديث ودّي سألت:

- الآن، بعد أن رُتّبت كل الأمور، متى تنوي أن ترحل؟

زوجان من الأجانب يتناولون الغداء، كل زوج إلى مائدة، في قاعة الأكل ذات النوافذ الزجاجية الفارغة حيث نادل نحيف يدفع عربة من طابقيْن مليئين بالجبن والحلويات، وعندما جلسوا الواحد قبالة الآخر، كأنهم يلعبون الشطرنج، ابتسم لهما أحد العجزة. خُيّل لهُ أن الماء كان ينساب ضد التيار، بطيئاً، بلون المعدن الذائب، يجرفُ عدداً لا يحصى من الطيور. مركبٌ ضخم يعلوه شراع أصفر مرّ بالقرب من الشرفة، ويتكون طاقمه من ثلاثة رجال غامضين. كلبٌ ينبح في مكان ما. شخص يرتدي معطفاً أحمر جمع قوائم الطعام بوجه ضجر (لأي شيء يصلح الخيطُ في الوسط؟).

- أفييْرو - قالت ماريليا - كأنها تعلن عن آخر محطة. والآن، إلى الأمام نحو المشهد العظيم.

- بالنسبة لي، كانا نزيليْن مثل كل النزلاء الآخرين - أكدت المرأة ذات النظارات في مكتب الاستقبال. أنا لا أتعاملُ بالتمييز بين الزبائن.

كان المرق عبارة عن حساء عادي في كيس (كان محكوماً عليه مدى الحياة، منذ الطفولة حتى الموت، أن يتناول حساء الأكياس، لاحظ بخنوع)، والبيض مُحضر بطريقة أسوأ من طريقة الخادمة السابقة في بيت والديْه التي تزوجت عشية الذكرى الخمسين لميلادها (لقد تزوجت هنا، في بيتنا، كانت أمُّه تقول بكل فخر) بموظف أحْول في الجمارك، وكنتُ عرّاب ابنهما، أبله كان يزورني في أعياد الميلاد، يرتدي قماشاً مقفّصاً، في أمل تواق للحصول على ورقة مالية، أعياد ميلاد سعيدة يا عرّابي، وهو دون أن ينبسَ ببنت شفة، لتذهب إلى الجحيم، أيها المنغولي، فيحدق فيه الابن بالمعمودية

دون أن يتحرك من مكانه، مثل كلبة صغيرة جائعة، يلوي بقدميه الخجولتين أطراف السجاد، اللحمُ من دون مذاق يشبه تكدساً من الدهون تحيط به بطاطس وخضر ذابلة، والإنجليز (كانت هناك جرائد إنجليزية فوق موائدهم) يتبادلون صيحات مهذبة، ومن باب المطبخ المشرعة تظهر مكنسة مجتهدة تكنس البلاطات، طلبتُ قهوتيْن، معظمُ الطيور، شرح والدي، باستثناء الببغاوات الصغيرة والببغاوات وطيور أخرى من نفس الفصيلة، تعيش مدة قصيرة إن لم تمت عند الولادة، ومنها من تهاجر شتاء إلى البلدان الأكثر دفئاً، ومن لا تستطيع مواصلة الرحلة تتوقف عند منتصف الطريق، وهناك من تلتهمها البوم إن تأخرت عند حلول الليل، وهناك المتأخرة التي تحاول أن تفلت من الليل بسلوك طريق الغابة، لقد قالت لي كل ما لديها من دون شك، فَكَّرَ وهو في حديقة ساو بيدرو دي ألْكانتارا يتأمل السطوح، متاهة الأزقة، والزرقة الشاحبة للسماء بكآبة لا يمكن وصفها، كل ما لديها، عاهرة مشعرة لم تتفضل حتى بخلع ملابسها الداخلية، انعظ يا حبيبي، انعظ في فمي، يا له من مذاق مالح لماء قضيبك، شكراً قال، فجأة، لا أريد حلويات ولا فواكه، نَقَر ظرف السكر، مزقه من إحدى الزوايا، صب محتواه في السائل البني، الآداب هي فقط للفتيات والمخنثين لاحظ كارلوس، قالت لي أمُّك إنك إن كنت ترغب في ذلك تدفع لك مصاريف دروس في الصحافة في بروكسيل، الفتيات البلجيكيات رائعات، قد تتسلى كالمجنون، إلى غاية نهاية الشهر، على أكبر تقدير، قبلت توشا، لا معنى أن نستمر في العيش هكذا، نهضت، ذرعت الصالة جيئة وذهاباً ثم وقفت جامدة أمام الرف حيث صور رُضّع وكبار يبتسمون كانت مسندة على ظهر الكتب.

- بسبب الطفلين - تحججت - النقطة الوحيدة التي تهمني هي أمر الطفلين.

- حفيداي الصغيران يعانيان من صدمة عميقة - قالت أمُّه ورأسها تحت مجفف الشعر، بينما كانت مطببةُ الأقدام جاثية على ركبتيها تُبستنُ قدميها، تبْردُ أصابعها، وتصبغ أظافرها. في سن الثالثة عشرة، ما زالا يتبولان في الفراش، وأي خادمة يمكنها أن تتحمل ذلك في أيامنا هذه؟

- رضيع عادي جداً - استنتج طبيب الأطفال وهو يعيد الورقة إلى الممرضة - لكني، ذات يوم، لم أعد أراه فلم أفحصه من جديد. لا بد أنه في الثالثة والثلاثين أو الرابعة والثلاثين الآن، أليس كذلك؟

- ذهبتُ لأرى طبيباً نفسياً - قالت توشا - وأخبرني أن أحسن حل بالنسبة للطفلين هو أن يعيشا وحدهما معي، من دون شجار، من دون خلافات، من دون مشاحنات لا تنتهي بيننا.

الرّضاعات، الحفاظات، وخصوصاً فترات الحمل، بطنُكِ ضخم يتراقص فوق ساقيك المنتفختين، كأنك بطّة آلية من البلاستيك، تمارين سخيفة على الوضع من دون ألم، عشرون امرأة بكروش منتفخة ممددات يتنفسن بانتظام، الأزواج يمدون لهن أياديهم (يبدو كأننا نحمل حيوانات غريبة ومقرفة نجرها من أربطة الأذرع)، أن أستيقظ في عز الليل وأشعر بوجهك يمتد فيما يشبه جذع حوت يرسو، يلهث بهدوء فوق تجاعيد زَبَد الوسادات، رائحة جلدِكِ المجهولة، السمكة الغريبة الملتوية على نفسها التي تسكن أحشاءكِ، ابتسامتُكِ الشاحبة في العيادة، أنت سعيدة يا حبي، يداك البيضاوان، بطنُك المسطح. يُفَكِّرُ كيف يمكن أن تتغير كل هذه الأشياء، كيف

يمكن تأويل هذا الفتور، هذا النأي، هذا الفضاء المفاجئ بيننا نحن الاثنين؟ هل ربما كنا صغيرين جداً، ساذجين أكثر من اللازم، وهل لا يشفق الزمن، والأكاذيب، والأخطاء من حالنا، ولا يغفرون لنا أدنى زلة، أدنى خطأً في التقدير، أدنى عدم انتباه: في أي لحظة من حياتنا المشتركة كنتُ ساهياً؟

- يمكننا دائماً أن نحاول - قال ملحّاً - لا يوجد شيء غير قابل للإصلاح.

انتهيا من شرب القهوة وعادا إلى الغرفة. المراكبُ الراسية فقدت ألوانها مثل الخيول المسنة، الطيورُ تحلق خفيفاً فوق البحيرة، في الضفة المقابلة بعضُ المداخن تبرز عمودية، مرسومة بالفحم، من وسط الضباب الرمادي الذي يشكل ما يشبه دوامة لولبية فوق الكتلة المنعزلة للنُّزل. جلس على السرير ليخلع حذاءه (كان هناك رسم سفينة خضراء داخل إطار من الرافية على طاولة السرير) ثم تمدد فوق غطاء السرير، بينما كانت ماريليا تنظف أسنانها في الحمام المجاور (تنظف أسنانها باستمرار، يا لها من مبالغة، وهذا الصوت المزعج للفرشاة تحتك على مينا الأسنان، حين تستيقظ، بعد الأكل، قبل أن تذهب للنوم): كان الأمر مختلفاً معها، شيئاً بطيئاً، متريثاً، دون حماس مفرط، لكن، مقابل ذلك، كان بوسعها أن تحدثه عما يهمها، عما يثير شغفها، عن الحزب، مع إحساس بأنه يتفهمها، ويتقبلها، فكان بوسعها أن تتحاور، تصغي بدورها لآراء الآخر يتحدث عن الأفلام، والكتب، والكلية، عن تطلعاته العظيمة والمرتبكة، عن حلمه القوي بإصلاح طرق تدريس التاريخ، وذات ليلة ظلّا يتحدثان حتى وقت متأخر جداً، كانت عيناه تؤلمانه لكثرة ما دخّن من سجائر، ونوع من الضوء الأزرق يتمددُ في السماء لماذا لا

تجلبين غداً إلى هنا ملابسك، اقترحَ عليها وسط حديث ما حول ميشليه[1] أو توينبي[2]، تلك ببغاوات صغيرة، قال والدُه، تلك طيور أبو الخطاف، هذه نسور، تلك ذات المناقير الطويلة هي طيور أبو منجل، كانا يذهبان معاً إلى حديقة الحيوانات ليلاحظا الطيور عن كثب، ينظران إلى حدقاتها البلورية الشرسة، إلى مخالبها الصغيرة، كيف ينتظم الريش في أجنحتها، أكبرها، أصغرها، الزغب الناصع على صدورها، الغرابين تمشي مثلنا على الأرض الإسمنتية المملوءة بالبراز وقشور الفواكه، اللقالق تشبهُ أحدَ أصدقاء والدي الذي كان يرفع ركبته عالياً جداً وهو يمشي، قوائم طيور النعام، المشوهة بفعل أحذية ضيقة جداً، كانت تحرك مشاعره، وقال والدُه إن كل صوت تصدرهُ يعتبر جملة مختلفة، نحن الذين لم نتطور بما يكفي لنفهم بعض اللغات، بعض إشارات الرأس، شكل الطيران، مثلاً، أخرجتْ ماريليا من محفظتها كتاباً بغلاف ذي ألوان صارخة ثم جلست فوق فراشها لتقرأ بهيئة الزوجات الخنوعات اللواتي ينسجن داخل السيارات المركونة أمام ملاعب كرة القدم، النوابضُ تحتج بأنين كلما حاول أي واحد منهما أن يبحث عن وضعية مريحة فوق الوسادات، أختها الصغرى، بجفنيها المنتفخين وملابسها السوداء، فتحت باب السيارة وقالت:

- أرفض أن أدلي بتصريحات للصحافة، أنتم الصحافيين تشوهون كل شيء.

- لا أريد لا أريد لا أريد - قالت توشا غاضبة - ورأى أنه

(١) جول ميشليه (١٧٩٨-١٨٧٤)، مؤرخ فرنسي. (المترجم)
(٢) أرنولد توينبي (١٨٨٩-١٩٧٥)، مؤرخ بريطاني. (المترجم)

ينبغي عليك أن تتعلم كيف تتقبل الأمور كما هي. فالعلاقات تموت.

يُفَكِّرُ هذه ليست جملة من جملك، لا بد أنك تعلمتها في مكان ما، عند الطبيب النفسي، مع صديقة، مع عشيق، خلال مكالمة من تلك المكالمات التي لا تنتهي حين تغلقين على نفسك في الغرفة لتنوحي بتفاهات في الهاتف. يُفَكِّرُ **أكرهُكِ**، سوف أؤلبّ الطفلين ضدك، أسمّمُهما بدقة، قطرةً قطرةً، يوم أحد بعد آخر، **أمُّكما** لا تريد أن تعيش معي، **أمُّكما** لا تريد أن يكون لكما أبٌ، **أمُّكما** تريد أن تعوضني بشخص آخر، سوف أستقر ليلاً في ظل بيتك، أحمل هراوة وأكسر وجه من يحاول أن يدخل إلى بيتكِ، على الساعة الحادية عشرة هناك وغدٌ يركضُ سيارته، يقترب، يدق الجرس، وأنا مختبئ هناك، أضرب الهراوة فوق فخذي ضرباً خفيفاً إن كنتَ قد جئتَ لتتحدث مع الزوجة، فعليك أولاً أن تتحدث مع الزوج، أيها الأبله، يتراجع الشخص إلى الوراء، قلقاً، متردداً، **أخطأتُ** الباب، هيا، مع ابتسامة حقيرة يقنّعُ بها هزيمته، **طبعا**، كنتُ أبحث عن المنزل رقم ٥٦ وهذا رقم ٥٤ سامحْني، أتقدم خطوتين، متسلياً في دواخلي، مضجراً في مظاهري، **هذا** ممكن ولكن وجهك ليس غريباً عني، اقتربْ إذن من عمود الإنارة حتى أراك بشكل أفضل، **لقد** أخطأتُ الرقم، هذا كل ما في الأمر، عليّ أن أذهب بسرعة، يئن ذلك الشخص، **رعديد** لعين، أُفَكّرُ، سوف أخترق خصيتيك برمحي، خصيتيك الصغيرتين بحجم حبتيْن من الفاصوليا المطبوخة، جبينه تكتَّل من تجاعيد الخوف، يدنو من سيّارته بمشية سلطعون هارب، يحاول أن يُدخل المفتاح في القفل دون أن أنتبه لذلك، أن يهرب، أن يختفي، أن يفرّ، أمسكه من ربطة العنق وسرعان ما ترتسم تكشيرة مخنوقة على وجهه، **ماذا** تريد ماذا تريد راح

يتوسل، مرعوباً **نقولُ** ماذا تقصدُ يا سيدي، صححتُ له وأنا أسحقه فوق غطاء محرك السيارة وأغرس ركبتي في ضلوعه، ماريليا تضعُ الكتاب فوق طاولة السرير، تتمدد على جنبها فوق سريرها المنفصل عن سريرِهِ بواسطة سجاد فظيع، تغمضين عينيكِ وأعرف أنك تنتظرين أن أتكلم، تتخيلين أنني أدبرُ أمراً ما، وأنه وراء جفنيك المخفضين عيناك ترقبانني، قلقتين، تجدينني غريباً، مضطرباً، بئيساً، أرفع سماعة الهاتف، أطلب رقم العيادة، يا لها من فكرة أن يحتضر المرء في أموريراش، اللعنة، الغرفة رقم ١٧ من فضلك، **لحظة**، أجاب صوتُ بوم مغرمة، نقرات، زعاق، طقطقات، **نعم**، قالت بنتُ العم بعد تردد، هل تريد أن تتحدث معها؟ **لا**، أجابها، فقط أريد أن أعرف كيف هي الأمور، **لا تنزعجْ**، قالت بنتُ العم بمرح متكلف، اهتم بدُونْ دينيشْ[١]، نحن نتدبر أمرنا هنا، **هل مرّ** والدي، سألَها، صمت آخر، أكثر قِصراً هذه المرة، **اتصل** من المطار، قالت بنت العم، كان في طريقه إلى اسكتلندا لكن أخواتك جئن، إن شئتَ أن تترك لهن رسالة، أضعُ السماعة بسرعة، أنظر إلى الجصّ في السقف، إلى المصباح مع عاكس الضوء التبني، إلى الخليج الذي يُظلم ببطء، ماذا ستفعل النوارس الآن، يأخذني بين ذراعيْه ويشرح لي كيف تنام الطيور، سوف يبتلع الليلُ المراكب والطيور، مداخن أفيْرو، الأضواء التي تومض، مترددة، بعيداً جداً، **حينئذ**، تقول ماريليا وهي تتحسس طاولة السرير بحثاً عن السجائر، تشعل واحدة من مصفاتها، ترميها وتعيد الكرّة، **فيما**

---

(١) من أشهر الملوك البرتغاليين (١٢٦١-١٣٢٥). عُرف أيضاً بلقب الملك الشاعر. (المترجم)

تهمّكِ أُمي، وأنا أيضاً، في الحقيقة، فيما تهمني أُمّي، ترسمُ دائرة دخان بشفتيها، إذن، ماذا، قال.

- اختفى يومَ الأحد والمرأةُ هي التي أدّت، أخذت السيارة وفي اليوم الموالي غادرت الفندق - أوضح رجلٌ نحيف يرتدي قميصاً، جالساً في مكتب يعج بالقطع المعدنية - ربما وقع شجار بينهما، لا يمكن التنبؤ بالأزواج، لا ندري ما يصدر عنهم. ذهبتُ إلى سجل الوفيات في البلدية مرة واحدة وأقسم إنني لن أفعل ذلك مرة أخرى.

ساعدته توشا في حمل الحقائب حتى المصعد ثم طبعت قبلة على خده.

- وداعاً - قالت من دون أي تأثر. ومع ذلك، فمُكِ، عطرُكِ، قربُ جسد المفرط حرق جفنيّ بحامض غريب. دموع؟ تساءل بامتعاض، هل سأشرع في البكاء فوق ممسحة الأرجل مثل عجل؟ دفع باب المصعد، ضغط على الزر، شيء ما غير واضح تغيّر في حياتي. توقف لينظر إلى البناية، ثم ابتعد بخطى قصيرة، يعيقُه ثقلُ الأمتعة.

- ألا تريد أن تخبرني بما يجري؟ - قالت ماريليا.

- واحد، اثنان، ثلاثة أساتذة خصوصيين، كل ما يجب من الأساتذة، ولكن خصوصاً يجب ألا يكرر هذا الكسول السنة الدراسية - صاح الأب واقفاً في الصالة لأمه التي تستمع، جالسة، مخفضة العينين، تحركُ بإيقاع إبَر النسج. (لم يكن يستطيع أن يراني لأنني كنتُ عند مدخل الباب وهو يدير لي ظهره، قرب تلك الأرائك التي كانت في حاجة ماسة إلى إعادة التبطين) فقط غبيٌّ مثله لا يتعلم الرياضيات، ما يلقنونه في الثانوية يمكن لأي متخلف ذهني أن يحفظه عن ظهر قلب.

- إنه يفضل الآداب، واعترف لي في الأسبوع الماضي أنه يريد أن يتابع دراسة التاريخ. تركتني منذهلة.

وجّه والدُه لكمة إلى مائدة من «الأسلوب الجديد»، فقفزت الكؤوس والقناني:

- آداب؟ تاريخ؟ (كان يتحدث ببطء، وقد تملكته دهشة عارمة) هل أنت متأكدة حقاً من أن هذا الأبلة ابني؟

عند زاوية الشارع، حقيبة في كل يد، لا يجد سيارة أجرة. الدموع تسيل من دون جهد على امتداد أنفه ثم تلتقي عند نُقرة ذقنه لتشكل بحيرة صغيرة، ومن حين لآخر تسقط دمعة ضالّة فوق قميصه. ومع ذلك، كان يُفَكِّرُ حينئذ، لم أكن أحبها، كان يستحيل أن أحبها حباً حقيقياً، لم يكن يجمعهُما أي شيء مشترك، باستثناء نفس الأصل المنحط ونفس المراهقة المنحرفة: مراهقان داخل غرفة مملوءة باللُّعب، لا يعرفان ما يفعلان بنفسيهما ولا بأحلامهما الطائشة. هل صار في تلك اللحظة راشداً؟ راشداً من الداخل، مسؤولاً، قادراً، لديه القوة على مواجهة العبث المجنون للحياة اليومية؟

- إن الأشخاص الذين لا يستطيعون أن يعطوا معنى لحياتهم رغم كل ما يبذلونه من جهد - قال الطبيب النفساني بنبرة رنّانة وهو يرسم مثابراً بقلم رصاص دوائر على ورقة - يشكلون منتحرين محتملين. عاجلاً أم آجلاً، ينتهي فراغ حياتهم اليومية بأن يزج بهم في قلق فئران مختبر تخشى الأماكنَ المغلقة، وحينئذ تدخل على الخط الأقراص، والغازات، والمشانق، والرصاص، وحامض الكبريت، والطوابق الثامنة، والسكين، والكهرباء، والقنطرة، ومبيدات طفيليات الكروم، والنفط، والبحر: إن خيالهم، أيها السيدات والسادة، لا يعرف حدوداً، بالمعنى الحرفي للكلمة.

- التاريخ، يا لها من هراء - كان أبوه يصيح وهو يرفع كأس الويسكي عند مستوى عينيه ليصب من قنينة زجاجية منقوشة وضعت إلى جانب عشرات القناني الأخرى فوق طاولة نرد عتيقة. سوف أعطيه التاريخ، أيتها الجميلة. عديم الفائدة، جبان، رعديد، ضعيف الشخصية، هذا الرجل لا يملك أي رغبة. الاقتصاد، مدرسة المهندسين، القانون، هذه اختيارات قوية. تاريخ، تصوري، تعيس لا يفقه شيئاً في اللوغاريتمات.

كان الضوء يتسلل من شرفات الصالة، مخترقاً، فضّياً وغير واقعي، أزهارَ البنفسج والورود البرية في الحديقة، وأجسامهم، وقطع الأثاث، واللوحات على الجدران، والأواني الخزفية المنتشرة في كل أنحاء البيت وتبدو كأنها من دون وزن معلقة في الضوء المتألق كما لو أن بخاراً من الهليوم ينفخ عروقها. كان لشعر أمه نسيج عجيب وملائكي كشعر الحوريات، فستانها يتموج بلطف تحت تأثير نسيم غامض. بدأتُ أصعد السلالم المؤدية إلى غرفتي دون أن ألمس السجاد، كما لو أن شيئاً مطاطياً وإسفنجياً يجعلني أطير، إن جاز القولُ.

- منذ يوم انفصالنا - قالت المرأة ذات النظارات السوداء التي تجول مع كلبها في الحديقة العمومية في مدينة أجنبية - لم أره مرة أخرى تقريباً. طلّقني بالوكالة، يوم كان يستفيد من منحة دراسية في ستراسبورغ.

اختفى الخليج نهائياً، وتحول إلى بحيرة عميقة من دون ضفاف، تتخللها أضواء نادرة غير متماثلة يعوزها الوهج. لا يظهر أي طائر، ولا أي مركب، بل حتى حركاتهما كانت لا تُرى في الظل.

- إنهم لا يقدمون العشاء في هذه الساعة، بكل تأكيد - همست

ماريليا بصوت منفصل عن الجسد، تقلّص إلى زخارف بلون البرتقال في السيجارة وبقعة من دون حواف في ظلّها. لقد أغلقوا قاعة الأكل وذهبوا في حال سبيلهم ليشاهدوا التلفاز في تلك الصالة الصغيرة الفظيعة، على نمط بيوت العجزة والمرضى في فترة النقاهة متكئين على الأرائك أمام الشاشة. سنجدُ هناك الفريق بكامله، سوف ترى: امرأة مكتب الاستقبال غير المبالية، الشخصين الرديئين اللذين يرتديان الصدريتين، الخادمة التي سوف ترتب سريرينا غداً، دون أن تجد على الأغطية أدنى لطخة تحكي عنها للآخرين.

كانت تتلكم ببطء، من دون امتعاض ولا غضب، لكني توقفتُ تماماً عن الاستماع إليها: كنتُ بين ذراعيْ والدي، تحت شجرة الكستناء عند البئر، ذات ظهيرة من الماضي لم تمّح أبداً من أعماقه (كانت أمّه تنتظرهما في البيت مبتسمة، وكتاب على ركبتيها) وأنا أصغي لشرح الطيور. كان مستغرقاً حتى أن خرير الماء قبالة النُّزل، تحت النافذة، ضجيج إعلانات التلفاز وأنّات الإنجليز في الممر انتفتْ وفسحت مجالاً فسيحاً، لا محدوداً، مضيئاً، تسكنُه بالكاد صيحاتُ النوارس المبحوحة.



الجمعة

الشاهدةُ أليسْ ف.، رئيسة موظفي فندق أفيْرو ومقيمة في نفس المدينة. أدت القَسَم ولم تقل شيئاً كعادتها. عندما سألوها قالت: يوم الثلاثاء ١٠ فبراير، بين الرابعة والخامسة زوالاً، كانت في مكان عملها تشرح فاتورة الأداء لزوج من الإنجليز متقدمين في السن وتراقب نقل أمتعتهما من سيارة مستأجرة جاءا على متنها، عندما دخل إلى ردهة النُّزل طفلٌ ذكر، يبلغ من العمر إحدى عشرة سنة تقريباً، هو ابن طباخة النُّزل، وكان في حالة اضطراب كبيرة جداً فدفع الإنجليزية بمرفقه الوسخ وصاح في وجه المُدلية بشهادتها: «سيدة أليسْ، تعالي لتري ما هنالك». وبما أن المدلية بشهادتها وبّختهُ بقسوة ولامته على قلة أدبه وعدم الاحترام التام تجاه صناعة السياحة، المجسدة لحظتها في شخص البريطانية المسنة التي كانت تصرفاتها تنسجم في جميع الأحوال، كما هي العادة في تلك الجزر، مع تعاليم التربية الراقية، ألقى الطفل على الأرض بعنف وعاءً أبيض من خيوط حديدية شائكة، يعج ببطاقات بريدية جميلة تمثل أماكن مثيرة من أرضنا الجميلة مثل مونْساراش وغيرها، وصاح باندفاع جامح: «دعكِ من هذه المواعظ أيتها البلهاء، هناك رجل ميت وسط الرمال». رغم أنها لم تصدق لأنها تعرف الخيال الخصب للأطفال

الذي صارت وسائل التواصل الحديثة تستغله بطريقة غير سليمة، سرّعت الشاهدة مغادرة الزوجين الأجنبيين وهي تودعهما بابتسامات متكلفة في باحة النُّزل، وما إن اختفت السيارة وهي تهتز عبر الطريق المحفوفة بأشجار الصنوبر والشجيرات الذابلة من الجفاف، حتى توجهت إلى الطفل متعجبة «أهذا ما يعلمونك في المدرسة، أيها الأبله»، ثم سألته بنبرة تأنيب: «ما هذه الوقاحة في مؤسسة خاصة؟» وهو ما تم الجواب عنه، وسط كلمات نابية لا تستطيع الشاهدة أن تتلفظ بها هنا وتعزو ذلك إلى الانحلال المستمر للأخلاق الذي انطلق مع الفترة الثورية المؤسفة التي نمر بها، بأن جثة رجل كانت على بعد مئتي متر تقريباً غرب بناية النُّزل، التهمت النوارس النهمة نصفها، ويبدو من ملابسه، ونظاراته، وحجمه، أنه يتوافق مع جسد نزيل وصل يوم الخميس الماضي مع زوجته وكان من عادته أن يتجول معها على طول شاطئ الخليج، منهمكيْن معاً في أحاديث طويلة كانت الشاهدة تجهل فحواها ومواضيعها. رغم شكوكها وترددها أمام مشروعية ما توصلت به من معلومات، ولتبرئة ضميرها، اتجهت الشاهدة نحو المكان المشار إليه، الذي كانت طيور نهر فوغا تحلق فوقه أسراباً، وهو ما أثار حيرتها، لأن كل تلك الطيور وكل ذلك النعيق لم يكن شيئاً عادياً فوق الرمال في صباح من دون مطر ولا يهدّدُ بنزوله، لكنه صباح رمادي، كدر ورطب بضباب يلفُّ المدينة في كفن من الدموع الجامدة، فعثرت وسط القصب على جثة النزيل زْوي. س. المشار إليه في الصفحة الثانية من هذا المحضر، بطنُه إلى أعلى، ذراعاه منفتحتان، ويصعب التعرف على وجهه الذي مزقته على ما يبدو مناقير الطيور. على الفور، تيقنت الشاهدة أنها أمام المدعو زْوي س.، ليس فقط بسبب الوقائع المشار إليها في الشهادة

الحاضرة بل أيضاً بسبب عينٍ من عينَي الجثة، سليمة، مدورة، ضخمة، كانت تحدق فيها بذلك التعبير عن الاضطراب القلق أو الامتثال الخنوع الذي كانت تحدجها به عادة، حتى عندما يطلب منها مفتاح الغرفة. أما النوارس، فلم يكن يبدو أنها مرتاحة لتدخُّلها وأخذت تصرخ بقوة حول الشاهدة في دوامة من الأجنحة أثارت في نفسها فزعاً كبيراً فأسرعت بالعودة إلى النُّزل لتتصل برجال الشرطة وتخبرهم بالحادث، بعد أن قدمت للطفل هدية عبارة عن علبة من الحلوى وبطاقتين بريديتين تمثلان منظريْن جزئييْن من فْيانا دو كاشتيلو. بعد أن سُئلت عما تعرفه عن المتوفى، صرّحت أنها رأتهُ لأول مرة يوم الخميس المذكور، حوالي الثانية زوالاً، عندما جاء رفقة زوجته المزعومة، ودخل إلى النُّزل بطلب غرفة لنهاية الأسبوع، وهو ما فعله بفظاظة غير ضرورية، وهذا التصرف هو ما دفع الشاهدة إلى أن تسلمه البطاقة والمفتاح في صمت، وتحرمه بذلك من عبارات الترحيب التي تخص به الزبائن، من دون تمييز بين الجنسيات، والألوان، أو الطبقات الاجتماعية. ثم أضافت أنها كانت تراه ثلاث أو أربع مرات في اليوم، عند مكتب الاستقبال، وكان يبدو لها منشغلاً ومتوتراً. وفي مناسبة، طلب منها أن تتصل بعيادة في العاصمة، لكنه لم يستعمل من المكالمة أكثر من سبع أو ثماني وحدات. ولما سُئلت عن المرأة التي كانت ترافقه، أجابت الشاهدة أنها كانت تقريباً في نفس سن المتوفى، وكان مظهرها يوحي بالإهمال والعدوانية في الوقت ذاته، وأنها غادرت وحدها، عشية اكتشاف الجثة، بعد أن سددت الحساب بواسطة شيك لم يتم التحقق من ضمانته بعد. كانت عادة ما ترتدي لباساً يشبه البونشو يطغى عليه اللون الأحمر، سروال جينز وحذاء خشبياً أسود، وتتميز في رأيها

بنظرات ساخرة كانت تلقيها على اللوحات والمطبوعات الحجرية ذات المواضيع المحلية الجميلة المعلقة على الجدران والتي اختارتها الشاهدة لهدفين يتمثلان في تزيين المكان وإدخال البهجة على راحة الزبائن. أما بخصوص دوافع الانتحار، إن تأكدت هذه الفرضية، كما يبدو من العناصر المتوفرة إلى حدّ الساعة ومن تقرير الطبيب الشرعي، فإن الشاهدة تؤكد أنها تجهلها تماماً، حتى إن أُخذ بعين الاعتبار ذلك القلق الواضح على الشخص المعني بالإضافة إلى تصرفات الناس الغريبة في هذا العصر. وعلى العكس من ذلك، حرصت على أن تشدد على الاضطراب اليائس للنوارس وطيور أخرى في الخليج، مثل البطّ البري وطيور أخرى صغيرة تجهل اسمها، العلمي أو المتداول، كانت تتصرفُ بشكل غريب تماماً لمن يعرفها منذ مدة طويلة يُترجمُ بأنها كانت تعطي الانطباع أنها كانت تحمي الجثة وتُقطّعها إرباً في الوقت ذاته، تجعلها خيوطاً مختلطة من اللحم والملابس الدامية، مما قد يعقدُ عملية نقل الجثة بسبب الغضب الهائج للطيور ضد كل من يقتربون من الميت وقد يستوجب ذلك اللجوء إلى الأسلحة النارية وخراطيم الماء لتفريقها. وقد تأثرت الشاهدة تأثراً كبيراً بما حدث لدرجة أنها عانت تلك الليلة من نوبة حمى وأحلام طويلة يظهر فيها رجالٌ–طيورٌ بوجوه بشرية ومخالب سوداء ملطخة بالدماء تحوم من حولها، تناديها بأصوات أكثر حزناً من ترانيم الكنيسة وتحاول أن تنقر بمناقيرها فخذيْها ونهديْها. حتى بعد أن نقلت سيارة الإسعاف المتوفى إلى مدينة بورتو (كيف يمكن نسيان النقّالة المخفية تحت غطاء، آلات المصورين الصحفيين، حشد الفضوليين، رجال الشرطة، شريط القياس في قبضة أياديهم، ذلك الشخص البدين واللطيف الذي يبدو أنه كان يدير كل هذا، يداه في جيبيه، وعود

ثقاب في ركن فمه مثل حارس ورش) أبت الطيور خلال عدة أيام أن تغادر المكان حيث ظل المتوفى ممدداً، ترسم خطوطاً إهْليجية وقلقة عند مستوى العشب، إلى أن عاد كل شيء إلى طبيعته، شيئاً فشيئاً، مع حلول الأمطار الأولى، فرجعت النوارس إلى الماء، هاجرت طيور البط جنوباً، هدّأ سكونُ الشتاء أشجارَ الأوكاليبتوس والصنوبر، استأنفت المراكبُ مسارها المعتاد، اختفت الأحلامُ الغريبة، ألغت الشاهدة موعدها مع الطبيب النفسي في أفيْرو الذي كانت تأمل أن يخفف عنها ليالي الحمى، المليئة بالخوف، والعرق والكوابيس التي تعج برجال طائرين، أخذت الغيوم الضخمة السوداء لشهر مارس تمتزج وتتباعد، فجاءت سكينة مؤلمة، تشكلت من توالي الشهور في شكل ناعم ومن دون مشكلات، وتجذّرَ عميقاً في دمها، منغمساً فيها مثل الموت، يقينٌ بأنها تشيخ وراء مكتب نُزُل، تعطي وتأخذ مفاتيح، هل تفهم يا سيدي، إلى أن جاء اليوم الذي، هل فهمتَ ما أقصد، تعطي وتأخذ مفاتيح، تعطي وتأخذ مفاتيح، تعطي وتأخذ مفاتيح، تعطي وتأخذ مفاتيح، تنجزُ الحسابات، تنجزُ الحسابات، تتأكد من الفواتير، تؤدي أجور الموظفين، مستحقات المموّنين، صاحب المحل، تضع صورة الزوج من المينا على الصدر، تشاهد التلفاز واقفة وراء الزبائن، تنام وحدها، تستحم وحدها، هل تفهمُ سيدي، إلى أن جاء اليوم الذي، يا له من ارتياح. ولم تقل شيئاً آخر. قرأت الشاهدة ثم صادقت عليها ووقّعت.

*

نهض باكراً جداً لأنه نام في السرير قرب النافذة التي نسي أن ينزل ستارها فانتابه إحساس بأن الأغطية تسبح في ضباب الخليج،

بغيومه الضخمة التي تنشأ من السُّمْك المُضطرب للماء. نهض، ذهب لتبوّل في الحمام دون أن يشعل المصباح، عاد إلى السرير ودفن نفسه تحت الملاءة: أشعرُ بألم في رأسي، في كليتيّ، في ساقيّ، لا بد أن جهاز التدفئة ظل يشتغل طوال الليل. ضوء متسخ بدأ ينحت شيئاً فشيئاً ملامح الأشياء مثل خزّاف صبور، فبدأتُ أميزُ وجهكِ المنسحق على الوسادة، عيناً، الفم الفاغر، التجاعيد التي تحفر قوسين في خديكِ، وشكل جسدكِ غير الواضح بعد. الملابس المعلقة فوق الكرسي تبدو كأنها تتأرجح على إيقاع تنفس غامض، الجدران تتمطط وتنكمش ببطء: نبضات صُدغَيّ على الوسادة تجعل العالم يخفق. فكَّرَ أن يدخن سيجارة، يقرأ كتاباً، لكنه فضّل أن يجلس على الفراش ليشاهد الصباح يتقدم خطوة خطوة فوق الأرضية، يكشف عيوب الخشب، حواشي السجاد، قوائم الأثاث الناقصة والمقوسة: يبدأ النهار دائماً بهذا الإزعاج الجسدي، هذا الميلاد الغريب للأشياء المألوفة، وجهكِ المشوه ينام. في شارع أزيدو غْنيكو كانت ظلال غامضة تعبث في صناديق القمامة، شاحنة البلدية تمر ببطء وهي تقذف ماء فوق عجلاتها ويلوح نهرُ التاج يلهثُ بعيداً، خلف البنايات.

- هل تسكن هنا؟ - قالت أخته الصغرى عند عتبة الباب وهي تمد عنقها بفضول نحو الرواق: شماعة المعاطف المشكّلة من دمية قديمة، عجلة العربة المسندة على الجدار، المنقوشة الشرقية المزيفة التي تمثل طائراً بذيْل طويل يتمايل فوق غصن، كل ذلك بدا لي فجأة مبتذلاً وغبياً - ألا تدعوني لأدخل؟

أدارت المرأة رأسها نحو الجهة الأخرى، فاختفت ملامحها الملتوية، فاسحة المجال لعقدة من الشَّعر الداكن الذي شبكهُ النومُ،

كأنه كبة صوف تلفّها كومة من الخيوط في كل الاتجاهات. يُفَكِّرُ منذ كم أسبوع وأنا لا أرغب في ممارسة الحب معكِ؟ يُفَكِّرُ أصبح كل شيء متوقعاً جداً بيننا، الحركات مذاق الرُّضاب، طريقة الختم غير المرضية، الجسدان اللذان ينفصلان ببطء، من دون محبة، كأنهما خليتان تنقسمان. كان جسدها الآن أكثر تماسكاً تحت الأغطية، مرآة الصوان برزت من الظل وعكست زاوية من الخزانة، لوحات، وجزء من السقف.

- يا لها من كتب كثيرة - قالت أختُه وهي تجول بنظرها عبر أرجاء الصالة الضيقة، الصور الملصقة على قطع من الورق المقوى والمسندة على ظهور الكتب، مقعد الحديقة العمومية الذي يعض بأسنانه الحديدية، ملصقات الحزب، بطاقات بريدية قديمة، لُعبٌ قصديرية فوق المائدة. لو أن توشا رأت ذلك لسقطت ميتة بكل تأكيد: إن منعوها من ملء البيت بأشياء خزفية تبدأ في المعاناة من نقص في الهواء.

يُفَكِّرُ إنكِ بصدد قياس سوء ذوق كل هذا وتسجلين كل شيء في ذهنك لتَصفيه إلى صديقاتك ساخرةً: أود فقط أن ترين كيف يعيش أخي، إن فاز الشيوعيون بالانتخابات سيجبروننا جميعاً على وضع عجلة عربة في المدخل وملء بيوتنا برائحة الكتب التي لا تطاق. وكارلوس، في أريكته، وقوراً، جاداً، متحصناً وراء الحرير الطبيعي لربطة عنقه: لدي شخص هناك في المعمل يعتبر موظفاً رائعاً. يُفَكِّرُ تماماً كما تتكلم أمي عن الكلاب المهذبة التي لا تتبوّل على السجاد.

- الديمقراطية الاجتماعية، الاشتراكية، الشيوعية - قال والدُه بشفقة غاضبة - ألا ترى أنه دائماً نفس الفخ لتدميرنا نحن؟ أرفض أن

تتآمر ضد الحكومة، كأنك تريد أن تقتلني أنا. أما ذلك الشرطي الوقح، فسوف أتحدث مع المدير العام للأمن وأظفر به كما ينبغي.

جالساً، يداه مدسوستان تحت الأغطية وعيناه ترمشان، كان ينظر إلى الصباح ينتفخ فوق الخليج كأنه خبز ضخم مبيضّ يخمر، مع أولى طيور النور التي حطت فوق السطح الناعم للماء بلون الجفون من الداخل: هل تنام هكذا، تطفو مع التيارات، أم أنها تختبئ في الرمال، وسط قصب الضفاف التي تبرز شيئاً فشيئاً من الضباب، متناثرة ومنتصبة مثل خصلات شعر؟ فكّرَ في أن يُنزل الستار حتى يطرد الضوء، يعود إلى هدوء البيضة في الليل، يُحوّل الغرفة جزيرة متواطئة مع الظلام، وينام: الجسد يطفو، العينان ميتتان على غير هدى، الجسد أخيراً في سلام، مثل مركب يرسو. خطواتٌ حثيثة اقتربت في الرواق، انفجرت في أذنيه، وابتعدت نحو أي مكان: المرأةُ ذات الحدقتين الواسعتين في مكتب الاستقبال؟ النادلُ النحيف؟ البدويُّ؟ كانت أخته تلتقط بنظراتها صوراً للشقة في حيّ كامْبو دي أوريكي، منحنية نحو الأمام مثل زوار المتاحف، تزمّ شفتيها في استنكار مهذب: كوخ حقير يستعصي على الوصف، ملابس متناثرة في كل مكان، أشياء كثيرة فوق الأرض، أوراق غير مرتبة، لا أستطيع أن أعيش في مكان كهذا. وهو يرافقُها، انتبهَ بألم إلى فوضى البيت، الشَّعر الذي يخنق بالوعة الحمام، إلى البقع فوق الأريكة، إلى ملمس الغبار الحريري، إلى ستار النافذة المحطم والعالق منحرفاً بالزجاج.

- كيف اكتشفتِ أين أسكنُ؟ - سألها - الهاتف ليس مسجّلاً باسمي، وفي الكلية لم أعط عنواني لأي أحد.

في الصباح، كان الصوت الأنثوي في مصلحة الاستيقاظ يمتزج

بالضجيج المخنوق للحي على بعد ثلاثة طوابق هناك في الأسفل، ينتزعه من حوض أحلامه المائي الموحِل، من دون أسماك: امرأة محايدة، غير مادية، دقيقة، تعلن الساعات من دون تأثر وتدفعه دفعاً ليتوجه مترنحاً نحو الحمام حيث شفرةُ الحلاقة تلمع قريباً من وجنتيه، مثل القمر فوق البحر. السمكري الذي جاء يوم البارحة ليُصلح المغسل تركَ فيه جصّاً، آثار وحل وشظايا طوب فوق البلاطات. ذهب إلى المطبخ الذي كان مليئاً بالأواني الملطخة يبحث عن رفش ليلقي الشظايا في كيس القمامة البلاستيكي البرتقالي ذي الغطاء الأسود الذي دائماً ما تنسيْنَ أن تضعيه عند قرص الدرج رغم احتجاجاتي. لم أفهم قط إهمالكِ، عدم اهتمامكِ بالبيت، لامبالاتكِ أمام المنافض التي تفيض بأعقاب السجائر، الرماد فوق مناديلكِ، أكوام الجرائد المكدسة فوق السرير. يوم الجمعة، خادمة تنظيف من نفس طينتكِ كانت تُمرّرُ خرقة ساهمة ومسالمة على تلك القذارة المتناثرة، تختلسُ السكر، تكسر كؤوساً، وتذهب في حال سبيلها بعد أن تأكل في الغداء بوقاحة سمك التونة الذي كان نصيبي. في الجهة الأخرى من الجدار، كان يُسمع ضجيج أوانٍ، أصوات، موسيقى مخنوقة تنبعث من المذياع، بينما صباحُ لشبونة من دون أمل يستند، محبطاً، على إطار النافذة.

- هل نسيتَ أن لشبونة قرية - أجابت أختُه وهي تتفحّصُ مقطبة الحاجبين ملصقاً يمثل وجه لينين الحازم بملامح صينية. التوى أنفها في تكشيرة ساخرة - هل هو أحد من أفراد عائلة زوجتكَ؟

كان عدد طيور النورس يزداد، سربٌ من البط، على شكل مثلث، وصل من جهة المدينة يرسم نصف دائرة واسعة في الضباب، ريحُ الفجر تحرك الأوراق. مرت شاحنة على الطريق تثير ضجة في

نشاز من النوابض المتهالكة: لو كنتُ صغيراً، فَكَّرَ، لغشّيتُ الزجاج بالبخار لأكتب اسمي بسبّابتي الممدودة، أو لتخيلتُ أن مركب قراصنة يصعد عبر الخليج، علماً أسود يرتفع فوق أعلى صارٍ ورجالاً ذوي قبح نادر يراقبون من أعلى المتْراس. لو كنتُ صغيراً لطلبتُ أن يدهنوا شعري بعد الحمام بذلك الزيت الذي كان يستعمله والدي، لتناولتُ العشاء مرتدياً منامتي عقاباً لأنني لا أمسك أدوات الأكل كما ينبغي، إن وضعت مرفقيّ على المائدة وإن أهرقتُ الحساء، سيرسلونني لآكل وحدي في المطبخ. لو كنتُ صغيراً لكنتُ ابن السيد المهندس ولسألني الأستاذ عن أنهار الموزمبيق وهو أكثر قلقاً لجهلي مني أنا. يُفَكِّرُ **النقط** التي كانوا يمنحونني كانت له هو وليس لي أنا، لم يكن بوسع المدرسة أن تشوه سمعة النظام وهي تنعت ابن وكيل وزير الدولة تعسفاً بالكسول أو الغبي، والمدير نفسه كان يحيّيني بمراسيم محيرة، الحُجّاب يمنعون الأطفال الآخرين من ضربي، إن رغبت في أن أصبح اللعنة في الساحة كان الحراس يصفقون بكلتا اليدين، زوجة المسؤول في الكتابة التي تُدرّس الرسم كانت تذوب احتراماً من الحنان: صغير جداً وقد صرت ناضجاً قبل الأوان.

- لشبونة قريةٌ - قالت أختُه - وأنت تعيش في مزبلة حقيقية - انكمشت عيناها من الازدراء، مررت إصبعا على أحد الرفوف، مسحته على معطفها - أتمنى ألا تكون سيّئ الذوق وتدعو والديْكَ إلى هنا.

ربما ما كان عليّ أن أدعو نفسي أيضاً إلى ذلك المكان، كان يُفَكِّرُ بينما لفافة الصوف الداكنة تتقلّب على الوسادة وهي تدمدم كلمات غير واضحة، فتبرُز ذراعٌ من بين الأغطية، تتردد على طول

حافة الفراش، تسقط متراخية، فتلمسُ أصابعها ذات الأظافر القصيرة، المثنية بلطف، السجاد. هل ستكون ثمة أصابع ذات أظافر طويلة حمراء في مؤتمر طومار، تساءل، ونساء متعطرات بعناية، متأنقات بعناية، يقلن الكثير بنظراتهن، ويستعرضن سيقاناً تظهر فوق ركب التنانير؟ ربما كان من الأحسن أن أعود إلى بيت والديَّ عندما افترقت مع توشا، أغازل بنت أي صديقة من صديقات أمي، أطلبها للزواج، أبدأُ من جديد، بدل أن أختار وريثة موظف الحرس الجمهوري فقط لأنها قرأت أكثر مني عن غودار. لا بد أن توشا تضحك الآن مع صديقها، فكَّرَ، في واحدة من تلك الحانات التي يبدو فيها الناس مثل دمى آلية يحركُها محرك التردد نفسه، قبل أن يلتحما عند نهاية السهرة في مضاجعات ساهية قاتمة: لو رأيت كل ما فعلَ ليعوضني، لو رأيت من يعاشرها اليوم. لربما كنتُ أشتغل في المقاولة العائلية، أجهل غودار، ربما كنتُ سعيداً، أكتفي بالبريدج، ببدلات أنيقة، بأرداف الكاتبة، بأواني الحساء التي تصنعها شركة الهند الشرقية، وبحساب بنكي في الخارج. كان هناك الآن مزيد من النوارس في الخليج ونوع آخر من الطيور، بيضاء أيضاً، يَجْهلُ اسمها. بقعة بلون البرتقال، تشبه بقعة دم، كانت تمتدُّ في الصباح، والغيوم تنزلق من دون ضجيج نحو الجنوب. نظر من دون حنان إلى الجسد النائم وفكَّرَ لقد قرأتِ من الكتب أكثر مما قرأتُ، وكان ذلك هو ما سحرني، كنتِ تتحدثين عن الكُتّاب، والمخرجين، والرسّامين الذين لم أكن أتخيل حتى وجودهم، تسهبين في الحديث عنهم ويداك بأصابعهما المربعة تنفتح وتنغلق مثل نباتات بحرية. يُفَكِّرُ بما أن انشغالاتكِ كانت تختلف عن انشغالات توشا، وعن انشغالات والديَّ، وانشغالات أصدقائي، مايو ٦٨،

حرب فيتنام، حركة القوة السوداء، فلسفة مارشال ماكلوهان[1]، مواضيع بعيدة وحارقة.

- إنه لا يعرف حتى أفلام دْرايير[2] - قالت امرأة مضطربة لا تعتني بنفسها، في الأربعين من عمرها، تحك شعرها بقلم حبر أحمر. أحذيتها، من دون تلميع، تحتكُ كأن مغناطيساً قلقاً يشدها بعضها إلى بعض. تحمّلتُ لمدة أربع سنوات شخصاً كان يغط في النوم أثناء الدورات السينمائية في مؤسسة كولبنْكيان.

- مزبلةٌ - قالت أختي ملحّة - مزبلة حقيقية تعج بالملصقات المعادية للدين والأسرة - ثم أشعلتْ سيجارة بقدّاحة كانت داخل علبة خزفية وابتسمت - كانوا يجمعون أشياء غبية من القصدير، دمى، عربات، محاريث، وتفاهات من هذا القبيل.

برزَ والدُها من ورائها، ضخماً، يرفعُ ذراعيه، متنكراً في هيئة غوريلا مثل أولئك الذي يفزعون الناس في «قصور الأشباح» خلال المهرجانات الشعبية: صوتُه، المُدوي والمخنوق في الوقت ذاته، يبدو كأنه كان يخرج من سطل ممتلئ ببقايا القطن.

- ذلك الزواج كان عبثاً ما بعده عبث.

- إن الرغبة في رؤية زْوي يشتغل معنا - قال كارلوس - كانت وهماً من أوهام صهري: لم يكن زْوي يملك أدنى موهبة في مجال الأعمال. على أي، إذا أمعنا النظر في الأمر، لم تكن له موهبة في أي شيء يذكر.

---

(١) مارشال ماكلوهان (١٩١١-١٩٨٠). مفكر وفيلسوف كندي له نظريات في وسائل الاتصال الجماهيري. (المترجم)

(٢) كارل تييودور درايير (١٨٨٩-١٩٦٨). مخرج سينمائي من الدنمارك. (المترجم)

- من يتحدّثُ عن دْرايير - تابعت المرأة المضطربة التي لا تعتني بنفسها وهي تحك بإصبعها المبلل باللعاب أثرَ وحل على جورب ساقها - يتحدّثُ عن مارغريت دوراس، عن آندي وارهول، عن السينما التجريبية، عن الأعمال الكلاسيكية في العشرينيات، عن الفن الطليعي. إن التعبيرية التجريدية، مثلاً، كانت بالنسبة إليه مفهوماً غامضاً. أعتقد أن ما جذبني إلى هذا الرجل كان خطأ من جانبي، وهمَ براءة ما، نوعاً من السذاجة التي لم تكن تميزه في حقيقة الأمر: أصابَ عفنُ البورجوازية دماغَهُ، فلم يعد سوى ضعيف منحط. إن قرأتَ مسودة أطروحته حول فكر سيدونْيو باييش (ثم لوحت بحزمة أوراق مرقونة بالآلة الكاتبة، صارت قديمة، مليئة بالتصويبات) ستدركُ حقيقة ما أريد قولهُ.

ملأت البقعةُ بلون البرتقال النافذةَ عن آخرها فصار المنظر هناك في الخارج صافياً وواضحاً، من دون ظلال تقريباً (ظلال الأشجار، ظلال السحب، ظلٌّ متحرك، بلون بياض البيض، بلون الماء)، الأشياء في الغرفة اكتست عمقاً من دون غموض النهار، هادئة في مكان البارحة، وشرعَ جسدُكِ، بعد أن حفّزته آلية داخلية، في عمل الاستيقاظ الطويل والمُرهق: أنينٌ، همهمات، تنهدات، سيقانٌ تنكمش وتتمطّى، رأسٌ يدور ويستدير، مدٌّ يجتاح الأغطية. في الجهة الأخرى من الباب، الإنجليزيان المسنّان يديران المفتاح في قفل رأسي بطريقة تعذبني، كما لو أنهما يقلبان أعصابي بخنجر، غمغمت المرأة العجوز بجملة في لغتها من دون حواف، وأحَّ الزوجُ. يومُ الجمعة يحطُّ الرحالَ، فكّرَ وهو يفتح صنبور الدّش في الحمام الضيق، فلاحظ التدفّق النازل من السقف كأنه عنقود من خيوط زجاجية تنفتحُ متسعة، تنسحق على مينا الحوض، متجهة نحو

البالوعة ببطء متكاسل ثم، شيئاً فشيئاً، تغشي بالبخار المرآة، والمصباح المشتعل، وميناً حوض الاستبراء حيث جلسَ، حافي القدمين فوق سجاد مطاطي، يُفَكِّرُ أراهنُ أنك تمدين يدكِ الآن متحسسة نحو طاولة السرير بحثاً عن علكتك بنكهة الفراولة، وأنك تنظرين إلى الغرفة من حولك بعينين منتفختين ومندهشتين من الاستيقاظ، وأنك تبرزين بصعوبة من أحلامك العاصفة عن صراع الطبقات التي تصلُني منها أحياناً بعض الكلمات المعزولة، المبهمة، التي تمر عبر مصفاة أسنانك. في الأيام الخوالي، فكَّرَ، كنتِ تأتينني بالفطور إلى السرير، **هل** تريدُ قهوة بالحليب أم شاياً؟ ترتدين عباءة النوم، مرتبة الشعر، باسمةً، تقبّلينني على عنقي، تنقرين فتات البسكويت من فوق صدري، تدسين يدك تحت الملاءات حتى وركيّ، تقدرين وزن قضيبي بتكشيرة مرحة، فتنسين ماركس، وفيسكونتي، والشِّعر المحسوس، والصراع التاريخي والفظيع من أجل تحرير المرأة: منذ كم شهر لم يتجول شفاطُ لسانك الدافئ والرخو فوق ضلوعي؟ منذ كم شهر لم يمتزج رأسك بعانتي؟ منذ كم شهر لم ألجْكِ دفعة واحدة، باندفاع غاضب وهائج ينطلق من البطن السفلي؟ جرّبَ الدّش على ظهر يده، تردد، ولج الماء بقشعريرة وراح يطلي الصابون على وجهه، وأذنيه، وإبطيه، وسرّته. في شارع أزيدو غْنيكو، تعطّل الدّش فانبجس من مقبضه دفقٌ بلّل مناشف الحمام، وأغرق الأرضية: كان دائماً هناك شيء معطل، مقابضُ لا تفتَحُ أبواباً، صنابير مكسورة، أنابيب محطمة، المدفئة أصابها تماس كهربائي فظلت مطفأة في الركن، مثل قيثارة من دون أوتار، كان دائماً هناك قلق من شيء مؤقت في الجو، أجواء سكة حديدية، قاعة انتظار في مطار بئيس لا تنقصه سوى مباصق من المينا هنا

وهنالك، عوضتها كتبٌ، لفافات ملصقات، ومذياعٌ بطولي لم يشتغل قطّ.

- يبدو كأنني أرى فعلاً تلك المزبلة التي كان يسكن فيها - قالت توشا لأصدقائها وهي تمتصّ شراب كايْبّيرينْيا بأنبوب قشّ، بوجنتين منتفختين. صادفتُهُ تلك المرة مع عشيقته، وحشٌ أسمر اللون، قصير القامة، يشبه رجلاً - ثم ضحكتْ - بل ربما يكون رجلاً.

- كل هذا غير معقول - قالت أخته وهي تضغط على زرّ المصعد. اطلب غرفة من والديك في منزلهما، كن متعقلاً. عاجلاً أم آجلاً سوف تنتبه إلى ذاتك وتدرك أي عبث حشرت فيه نفسك - ثم اختفى ذقنها وهي تحرك رأسها في صمت تعبيراً عن الرفض بينما كانت تنزل الطوابق خلف ذلك الباب المضاعف الصدئ على شكل آلة أكورديون.

برد ماء الدّش فجأة، فخرجتُ من الحوض ولففتُ نفسي في منشفة وأسناني تصطكُّ. جرى صرصورٌ راكضاً بين بلاطات الجدار وبلاطات الأرضية، يتحسس في خوف الفضاء أمامه بواسطة لاقطيْن رقيقيْن. معالمُ ظهوري المتوهجة والغامضة كانت تلمعُ في قطرات بخار على المرآة: سيدةٌ عذراء بساقين أشعريْن، فكَّرَ، سيدةٌ عذراء في شكل متخنث تحاصرُها قهقهات أعضاء فرقة الكورال. ومع ذلك، أختي، ربما لن تصدقي ذلك، ولكني قضيتُ لحظات جميلة في شارع أزيدو غْنيكو، أيام الأحد شتاء، عندما تُمطرُ في الخارج، أقرأ جريدة «الوموند»، أشعر أنني بخير مع ماريليا، أرتشف نبيذ الجنجر، أشرب الشاي، لحظات جميلة، لا يعتريها كدر تقريباً، أقسم لك، فقط ظلٌّ خفيف لكآبة عابرة، غامضة، وقرحةُ حزن معتاد

في الخلفية. بعد ذلك، تفاقم القلق ومعه الحرج، والخوف، والجسد الذي يتلوى بين أغطية الحياة، دون أن يجد فيها لنفسه مكاناً. لماذا؟ تساءل وهو ينشف أذنيه، عنقه، رقبته، لأي سبب أجرجر ورائي هذا الشيء الذي يشبه ذَنَباً مؤلماً؟ نظف بقعة مرآة بمرفقه، مشط شعره بسرعة (الآن، وأنا أكثر نحافة، صرتُ أشبه شوبير)، عاد إلى الغرفة، ارتدى ملابس يوم الأمس تحت نظراتكِ المغشاة ببخار النوم: في أي بلد ما زلتِ مسافرةً، ومن أي حدود غريبة عُدتِ لتلاقيني؟

- سأخرجُ - قال - سوف أقوم بجولة، أتمشى بعض الشيء، سأعود على الساعة التاسعة مع موعد الفطور، أدفعُ أباريق القهوة والفناجين.

ساعته اليابانية فوق طاولة السرير، قرب الكتاب، كانت تشير إلى السابعة والنصف، فبدت له آليتها القلقة الناعمة مثل آلية قلب مفزوع (قلبُه؟) يركض من دون تعب نحو الموت.

- شابٌّ طيب وأستاذ مساعد جيد - أعلن الأستاذ ذو الشعر الأشيب تحتَ منقوشٍ يصور معركة، وهو يداعب مُقطّع أوراق يحمل علامة "*Made in Hong Kong*" على طول شفرته - وكان يحضر أطروحة عجيبة، شيئاً ما مجنونة وقابلة للنقاش، لكني كنتُ دائماً أستمتع بأصالته المراهقة.

- لا يمكن أن أضيف أكثر من هذا، لأنني لا أتذكر، كنتُ صغيراً جداً لأفهم بعض الأمور - قال صوتُ رجل بعيد لرجل في الهاتف - ثم إنني أقيم في كندا منذ ثماني سنوات، لم تطأ قدماي البرتغال قط، وعندما يكون المرء بعيداً، كما تعرف، تتبخر الذكريات. إنني أذكر نظرتَهُ، ابتسامته، أنني ذهبت معه إلى حديقة الحيوانات، إلى السيرك، وأشياء قليلة أخرى. هذا إذن: أتذكر

ابتسامته، وتحمسه حين يضغطُ الجرسَ في الأسفل، يوم الأحد: كان بوسعنا أن ننزل وحدنا في المصعد.

السيدة صاحبة الكلب وضعت من جديد نظاراتها السوداء:

- المسكين - قالت - نهاية كهذه شيء مؤسف دائماً، أليس كذلك؟

نزلَ السلالم (كان كل شيء في مكانه، الشلال البشع، الأشعث بأزهاره، مكتب المفاتيح، البطاقات البريدية فوق الأسلاك الحديدية)، دفع باب النُزل الزجاجي وخرج نحو حصى الفناء، فاحتجّ نعلا حذائه وأطلقا أنيناً فوق الحجارة الدقيقة. كان برد الصباح يلفحُ وجهه، شعرَ بأنفه وفمه يتحجران، لسانه ينكمش، من دون لعاب، عند لثتَيه. يُفَكِّرُ الماء مسطّح، السماء منبسطة، مئات الطيور، أشجار الصنوبر ترتعش في الضباب، يغلفها سُكّر الغيوم. لم يكن ثمة من أحد، اختفى الإنجليزيان المسنّان، بدا له النُّزل مسطّحاً، تافهاً، من دون جمال. راح يمشي على غير هدى، باتجاه المدينة: قدماه ترسمان بقايا أخاديد فوق الرمال، نبحَ كلبٌ بعيداً فمزّقَ نباحُه من دون رأفة الورقَ الحريري الهشّ للصمت. يُفَكِّرُ رغم كل شيء، يا أختي، قضيتُ لحظات جميلة في شارع أزيدو غْنيكو، إلى أن شعرتُ، كالعادة، أنني من دون مكان في أي مكان، مطروداً من داخل ذاتي ومن خارجها، محروماً من الوطن ومن القيود، حُرّاً حدّ اليأس. يُفَكِّرُ يجبُ أن أعود من جديد إلى غرفة مأجورة (بأثاثها المعهود، خزانة تُغلقُ بواسطة ستار، حقيبة تحت السرير، صاحبةُ الغرفة بغيضة، متشددة، مهووسة) وأبدأ من جديد إلى أن أفهم في أي لحظة تكسر شيء ما، لأن شيئاً ما، أنا مقتنع بذلك، هل تفهمين، تكسّرَ. كان سربٌ من العصافير يتقافزون وسط القصب عند

الضفة، ورائحةُ الخليج الثقيلة، الخانقة، تشبه رائحة إبط لم ينظف: تكسّرَ شيءٌ ما في لحظة معينة، وتغيرت الحياة تسعين درجة من دون سابق إنذار، ففقدتُ البوصلة أكثر من أي وقت مضى. **يُفَكِّرُ لحسن الحظ** أنه ليس له أطفال مع ماريليا، لحسن الحظ أنني لا أترك شيئاً ورائي. كان الدخان يتصاعد بطيئاً من مداخن أفيْرو، فتتلاشى دوامته السوداء الكثيفة في فرْوِ السُّحب وبالكاد تظهر الملامحُ المنتشرة للبيوت. في الشريط، أختُه، غير واضحة ومحرجة بشكل فظيع، تقومُ بحركات وداع أمام هذه الزُّرقة بالذات، بلون الطوب الآن، ترتدي لباساً صيفياً، عارية الذراعين، صدرُها ممتلئ مسند على درابزين الشرفة. كانت توشا قد ألحت عليه لسنوات كي يقتني آلة تصوير (من أجل الطفليْن، على الأقل) لكن فكرة الوجوه الجامدة في زمن متوقف، يتقادم شيئاً فشيئاً، فكرةُ النظر عبر عدسة ورؤية شخص يبتسم في الجهة الأخرى كانت تصيبه بالقشعريرة منذ الطفولة فتخلى عن الأمر: إنني أحب أسرتي في الزمن الحاضر، فتعلو التجاعيد وجه توشا، تتقوس، تشيخ، تسير نحو الموت. في الحقيقة، كنتَ تخشى أن يلاحظ أحفادُكَ صدغيْك العاريين، بطنكَ المنتفخ، أن يجدوكَ مضحكاً أو أن يتجاهلوك، يتركوك مدفوناً داخل إطار، في خزانة من قصب، في عمق جارور، في ركن معتم من العلّية، إلى أن يتم رميُ كل هذه الأزبال، في علب من الورق المقوى داخل بطن شاحنة نقل النفايات التابعة للبلدية. **يُفَكِّرُ لا بد** أن أمي تستيقظ الآن، إلا إذا. **يُفَكِّرُ اللعنة. يُفَكِّرُ أذهب إلى النُّزل** لأتصل بلشبونة، وأعرف أخبار أمي، لكنه لا يشعر بأي تأثر وهو يتذكرُها، ولا أدنى حنين، مثلاً، فيتخيل الأسرة مجتمعة في العيادة، المكالمات اليائسة التي يتلقاها والدُه (من لواندا، من تورونتو، من

نيويورك) الأقارب الذي يصلُون، مجموعات صغيرة، في تكلّف ووقار.

- أريد أن يدفنوني في البيانو الكبير - صاحت جدتُه فجأة، وقد شدت خرقةً حول رأسها، وتمددت فوق سرير خاص بالمقعدين، تقذف سيلاً عارماً من الألفاظ البذيئة. وأنا صغير، كنتُ أنظر إليها من باب الغرفة، مفزوعاً: أهكذا تكون نهايتُنا؟ أكياس المصل، زيارات الطبيب الحذرة، جدتُه صامتة، جامدة، نائمة، وفجأة، من دون سابق إنذار، ينفتح الفم الأدْردُ على كهف واسع، ثلاثة أو أربعة أسنان إسفنجية تبرز فوق اللّثتيْن الداكنتيْن، ومن جديد الصرخات المعتادة، الحتمية، المزعجة، الفظيعة:

- أريد أن يدفنوني في البيانو الكبير، أيتها العاهرات.

- مزبلة - كررت أخته وهي تمتصّ قطعة حلوى تُعطر الجُمل في حنجرتها بنفحة نباتية - مزبلة مذهلة.

- ربما لم تكن جنازةً فخمة لكنها كانت جنازة لائقة - قال أبوه الذي كان يضع لحية مستعارة من أجل العرض الأخير ويعدّ نقود الإيرادات خلف الشباك، بإصبع سريع مبلل باللعاب. (كانت الأمواج تتقدم وتتراجع في الشاطئ الذي لا يمكن تحديد مكانه في الظلام، بهمس بطيء، ثقيل، ملح. صفوف من المصابيح تتأرجح) أما البيانو الكبير، فمن الواضح أنه لم يكن ثمة من بيانو في بيتها، لأنها كانت قد تصدقت بآلة بيانو عمودي على الفقراء عندما أخذت تبيع كل شيء.

فتذكّرَ قطعة أثاث سوداء، لها قوائم زجاجية، كانت مستندة إلى الحائط، بها شمعدان فارغ فوق لوحة المفاتيح ووشاح ذو شرائط فوق الغطاء، في صالة معتمة تعج بمكاتب ذات جوارير، ساعات

حائطية وصور أشخاص ملتحين، وتذكّرَ تلك الظهيرة يوم ظهرت جدتُه، متسلطة، حازمة، جافة، تجرجر نفسها فوق السجادات بعكاز طويلة، ودون أن تستشير أحداً، راحت تتفاوض حول أثمنة الخزانات والأواني مع أشخاص مندهشين من أصحاب البيع بالمزاد، وتذكّرَ رجالاً يرتدون سراويل جينز يدفعون الأصونة عبر السلالم والبيانو ينزل إلى الشارع، طابقاً تلو طابق، يطلق نوتات غير متوافقة كأنه أنين نقط سائلة، تحت نظرات العجوز التي كانت عند عتبة الباب تتابع من دون تأثر رحيل هذا المستودع من النغمات، وقد حُمل في النهاية فوق شاحنة قديمة جداً انطلقت متمايلة نحو قبو ما. وجاءت البنات ليحتججن في اليوم الموالي، فغضبن منها، عبرن عن شروطهن، ودعون طبيباً نفسياً (هل تفهم يا دكتور، أمي ليست بخير)، اتصلن بالمحامين (أخذت تبيع كل قطع الأثاث، ما الذي يمكن القيام به؟). كنّ يأنبنها في الصالة، بنفسجيات أو شاحبات، تحركهن تشنجات عصبية، يرتجفن من الغضب، يتلفظن بكلام تأنيب ولوم، غاضبات، والجدة تستمع إليهن، ذقنها فوق العكاز، وابتسامة ساخرة تعبُر منحرفة تجاعيدها المتعددة، مزهوة بالنصر في بيتها الفارغ حيث صارت نبضات ساعات الحائط خانقة ومدوية، إلى غاية ذلك العشاء يوم انهارت فوق الحساء، فمدّدناها فوق سريرها، وبعض أوراق السبانخ ما تزال ملتصقة بأنفها وعلى ذقنها، عنقها يلمع من الشحم، جرح في حاجبها الأيسر حيث بدأ الدم يتخثر ببطء. وكانت تصرخ بين فترات الإغماء، وقد شوّهها الهذيان والغضب:

- أريد أن يدفنوني في البيانو الكبير، أيتها العاهرات

تبحث عن بناتها بذراعها وهي تتحسس الغرفة الفارغة.

هناك آلة بيانو في الرمل، فكَّرَ وهو يلاحظ شُجيْرة سوداء تكاد

تكون هندسية الشكل وراء حزمة من القصب، آلة بيانو في الرمل، تحيط بها النوارس وطيور البحر، وجدّتُهُ، بشعرها الكتاني فوق كتفيها، ملفوفة في فستان زفافها الذي كانت تحتفظ به في دولاب، تنقر بأصابعها المشوهة بداء المفاصل على المفاتيح المتسوسة، تتعثر في عزف تهويدة أطفال. كان النسيم يموج ثوبَ خمارها عند مستوى الأعشاب. كانت هناك جثة قط ميت فوق الرمل، يكاد يخفيها القش القصير في الضفة. سحابة من الذباب بأجنحة زرقاء وأجساد ضاربة إلى الحمرة تطنّ من حولها. مراكبُ مشدودة إلى المراس تتأرجحُ في كسل على جوانبها. بعينين فارغتين، ظلّ يُحدقُ لحظة في الشكل المتعفن للحيوان، ثم عاد أدراجه ورجع إلى النُّزل.

*

الشاهدُ فيتور ب. عازبٌ، تسعة وعشرون سنة، نادلٌ في نُزل أفيْرو، ومقيمٌ في نفس المدينة. أدى القسم وأجاب بالنفي عن أي معوقات ممكنة. وعندما طُرحت عليه الأسئلة صرّح: أنه يوم الثلاثاء ١٠ فبراير، بُعيد السادسة مساء، حسب ما استطاع أن يدقق، علم من المسؤولة عن الموظفين أليسْ ف.، التي تظهر هويتها في الصفحة ثلاثين من هذا المحضر، أنه تم العثور بالقرب من المؤسسة على جثة النزيل السابق في الغرفة رقم ٢، زْوي س.، وقد التهمتها بشكل شبه كامل، لحماً وملابس، طيورُ النواحي القريبة، مما خلّف في نفسه تقززاً وصدمة، خصوصاً أن الأمر يتعلق بالمذكور زْوي س.، الذي كان شخصاً في غاية الأدب واللطف، لم يكن يتأفف أبداً من تأخر الخدمات أو ما يعتريها من نواقص. كان الشاهدُ يُقدر لطفهُ الثابت الذي يتناقض مع المزاج الشرس بشكل جلي للسيدة التي كانت

ترافقه، والتي يظن أنها زوجته، وتتميز في رأيه بعدم ذوقها في طريقة اللباس وفي طريقة تعاملها مع موظفي النُّزل الذين كانوا يجتهدون قدر إمكانهم لتلبية شروط الزبائن في بلد حريص على حسن الضيافة والوعي المدني مثل بلدنا. وما إن علمَ بالعثور على الجثة حتى عاد إلى المكتب ليبتلع مهدئاً (مادة لورْنين، ميليغرام واحد) لأنه شعر بقلبه ينبض بعنف ومن غير انتظام، غسل وجهه بماء بارد حتى يستعيد شجاعته وقوّته ثم توجه نحو المكان الذي أشارت إليه أَليسْ س.، المذكورة أعلاه، حيث كان هناك، بالإضافة إلى هذه الأخيرة، الزوجان الإنجليزيان في الغرفة رقم ٦، الطباخ، مساعده، منظفةُ الغرف، وشخصان نزلا من شاحنة كانت محملة بالأخشاب مركونة في قارعة الطريق، لأنه كان من المنتظر بين الفينة والفينة أن تصل السلطات، التي كان يمثلها في هذه الظروف عنصران من الحرس الجمهوري من البلدة المجاورة يتنقلان على متن دارجتين هوائيتين ويحركان الدواستين في التلال بنقص واضح في التنفس، يعوقهما عقبا البندقيتيْن اللتين تعودان لفترة ما قبل التاريخ وأدوات أخرى لا فائدة منها تزين بدلتيهما. لاحظ الشاهدُ أن الناس كانوا يقفون على مسافة محترمة من الجثة ويجتمعون في مجموعات تتشكل من أكوام من الوجوه المختلفة، والأذرع، والسيقان، والأيادي، والأجسام الجامدة بشكل خاص مثل لوحة جدارية مكسيكية تعج بالناس كما في الانتخابات الرئاسية، دون أن يتجرأوا على الاقتراب بسبب سحابة من طيور النورس التي ظلت تحوم وتزعق بشكل فظيع فوق المتوفى الذي تحول محجراً عينيه إلى شظايا زجاج دائرية، يحيط بها مزيج غريب من الحب والكراهية. مفزوعاً، بطبيعة الحال، من الطيور التي كانت إلى غاية تلك اللحظة خجولة ولطيفة، هادئة جداً في الخليج،

منطفئة ومتواضعة بين المدينة والنُّزل، عادَ إلى النُّزل (لم يكن المطر قد هطل بعد، وصارت نباتات الجبال تذبل شيئاً فشيئاً مثل الجلد المتقشر للعجزة)، جلس أمام مقسم الهاتف الفارغ، الموضوع في مكان ضيق خلف المكتب حيث توجد يومية معلقة بمسمار تزينها فتاة شابة ترتدي لباس سباحة، قبعة ومعطف بواب لا وجود له وعدة دلائل هاتفية قديمة، متراكمة فوق الأرض، بحث عن الإقامة الرسمية للمتوفى في ورقة دخوله، أدخل الدسار الأخضر في ثقب المكالمات بين المدن، ركّب الرقم وظل ينتظرُ. أجابه صوتٌ أنثوي حاد، مزعج، وعظمي، فتعرَّف حالاً الزوجةَ المفترضة للجثة، وفكّر أن يضع السماعة فوراً، دون أن يقول أي شيء، لكنه في النهاية قال «ألو» بخيط صوت متردد، نادماً أصلاً عن فكرته الهوجاء، ما الذي خطرَ ببالي، يا إلهي. أمام صمته العنيد، سأله الصوتُ في الجهة الأخرى من الخط مرتين أو ثلاث مرات «من معي؟» فردَّ بنبرة متحفظة كانت تزداد ثقة من مقطع كلمة إلى مقطع كلمة أخرى، «معكِ نُزل أفيْرو الذي يتصل بك ليخبركِ أن زوجك قد مات». تلا ذلك صمتٌ من عدة ثوان لا يستطيع الشاهدُ الآن أن يحدد مدّتُه بدقة، وبعد ذلك صاحت محاورتُه متعجبة «آه، صحيح؟» بصوت ساه ومحايد أدهشهُ، لأنها كانت تعطي الانطباع، أتفهم سيدي، أنها تفكر في شيء آخر. «لقد مات، عثروا عليه هناك في الخارج ممدداً وسط نباتات القصب وطيور النورس»، أوضح الشاهدُ، ثم ران صمتٌ آخر، ومن جديد ردّ الصوتُ «آه، صحيح؟» بنفس اللامبالاة السابقة، وكان صوتاً فارغاً وقصياً، بارداً بشكل فظيع، قادما من أقاصي اللامبالاة. تملكته رغبة وضْع السماعة (اللعنة، أين توجد قسوة روح مثل هذه أمام موت الزوج؟) بل إنه كان يهمّ بلمس سطح الآلة بإصبعه عندما سمع نفسه يقول بشكل آلي «ألا

تريدين أن تعرفي، على الأقل، كيف حدث ذلك؟»، وهو ما تلاه دفق من الصفير، والسعال والقرقرة على الخط: لا بد أن طائرَ دوري قد تبرّز على خط الهاتف، فكَّرَ، شحروراً وقحاً يسخر مني، بينما المرأة القاسية النحيفة تجيبه بشيء لا يفهمه لكنه مدّه بالشجاعة على الإلحاح: «ألا تريدين حقاً أن تعرفي كيف حدث ذلك؟»، وحينئذ سمعها تقول بكل وضوح «أكيد أن رجال الأمن سيأتون إلى بيتي، وسيكون عندي ما يكفي من الوقت للاطلاع على كل التفاصيل»، فأدركتُ حينئذ، هل رأيتَ، أنها لم تكن تحبه، ربما لأنهما أصاب بعضهما بجراح بليغة، على امتداد عدة سنوات، كي يتحمل الواحد منهما الآخر، فكانا يتباغضان، يفنيان في نار الحياة الزوجية المُرّة والبطيئة، في أحقاد الآمال الخائبة، في خيبة ما كان ممكناً ولكنه لم يكن، «أكيد أن رجال الأمن سيأتون إلى بيتي، يوافونني بتقرير كامل عن الحكاية، لكني، على أي حال، لا أستغرب ذلك، فمنذ مدة طويلة لم أعد أستغرب منه شيئاً»، ثم رأيتُ مرة أخرى ذلك الشخص البدين ذا النظارات، المضحك نوعاً ما في مبذلته الزرقاء، على مائدة قاعة الأكل في النّزل، يطلب بكل أدب قائمة المأكولات، يختار النبيذ، والسمك، واللحم، والتحلية، مبتسماً ابتسامة حزينة لرجل يمثُل أمام آلة التصوير، يدلك كويرات خبز بيديه السمينتين والقصيرتين، يشبك ساقيه، يتحدث مع نزلاء أجانب بلغة إنجليزية صعبة. «هل لديكما أبناء؟» سألتُها، فانفجر الصوت بقهقهة قبيحة، مريرة، لا طرافة فيها، كما لو أن طقم أسنان اصطناعية راح يقوم بقفزات فوق آلة سيلوفون، هل فهمتَ يا سيدي، «لا، كن مطمئناً»، أكّدتْ هي، «لن يكون هناك يتامى مساكين للصحفيين، أطفال بعيون قلقة يعانقون أمهم، وعنوان كبير على الجرائد **أستاذ جامعي ينتحر**

مخلفا وراءه ثلاثة أطفال قاصرين، ليس هناك من شيء خاص، مأساة عادية، من دون صخب الفضيحة، لا تشغل بالك». ومن جديد تلك القهقهة القصيرة الساخرة، الشائكة، المجردة من أي إحساس، وأنا «ألا تأتين إلى هنا، ألا تأتين لمرافقة زوجك؟»، وهي سرعان ما تقول «لقد قررنا أن ننفصل يوم الأحد الماضي، ثم إننا لم نكن قط متزوجين زواجاً جدياً»، من كان يظن ذلك، فكّرتُ في نفسي، رجل أكمل دراسته وكان يبدو جدياً للغاية، يكتب عبارة «متزوج» في ورقة الدخول إلى النّزل، يا له من غياب للنزاهة، يا لها من وقاحة، يا لها من جرأة، «لستُ أدري لماذا أحدثك عن كل هذا، في الحقيقة لا بد أن الخبر قد هزّني بعض الشيء»، قالت، هزّني، ليتني أصدقُ، أيتها العاهرة، النساء لا يهزّهن أي شيء أبداً، «سيدتي»، قلتُ، «لا يمكن أن تتصوري عدد النوارس التي كانت من حوله، لقد التهمته حدّ العظام تقريباً، بل أكلت حتى شعره، وظهرت أشياء بيضاء صلبة عند ركبتيه» ثم ران صمتٌ آخر، كان شاملاً هذه المرة، فضاء عميقاً من دون كلام يحتوينا معاً، هاوية مثل تلك التي تقفز فوقها الخيول في الأفلام ثم جاء صوتها، عذباً تقريباً، من شيء يشبه نفقاً مظلماً، «الطيور؟»، سألتْ، «الطيور من زمن طفولته؟»، لا بد أنها كانت تهذي، فكّرتُ، في نهاية المطاف ربما يكون موت زوجها قد أتلف دماغها، يحاول المرء ألا يُظهرَ أي شيء لكنه، فجأة، يشي بنفسه، بحركة، نبرة صوت، تكشيرة، قرّبتُ فمي من قِمْع الهاتف «ما حكاية الطيور هذه سيدتي؟»، لكنه لم يسمع شيئاً غير تنفسها في الهاتف، ريحٌ غريبة تدنو وتنأى، وأثناء ذلك دخل فجأة، مشغولَيْن للغاية، المسؤولة عن الموظفين ودركي بزي رسمي، «اترك حالاً الهاتف لأنه يجب أن نتصل برجال المطافئ»، أمر الدركي، «أتمنى ألا يسيء هذا

الحادث المشؤوم لسمعة النُّزل»، تنهدت رئيسةُ الموظفين، «كوني مطمئنة، سيدتي، بعد أسبوع لن يتذكر أحد شيئاً من هذا»، ردّ عليها الدركي، «صحيح، ولكن هل لاحظت تصرفات طيور النورس؟» قالت رئيسة الموظفين، «الطيور؟ ما هذا؟»، صحتُ في الآلة، «سوف تهدأُ بدورها» شرح بكل هدوء ذلك الدركي القصير، البدين، الأصهب، فتخيلتُ أنه قد تنكّر في هيئة شرطي في حفلة مُقنّعة، وصار التّنفسُ في أذني واهياً، وأكثر بُعداً، «ضع هذه السماعة اللعينة»، صاح البدينُ غاضباً، «إنني لا أقوم بدور في أفلام رعاة البقر»، فازداد حجم الدمية في اليومية حتى صارت تملأ الغرفة الضيقة بحضورها ذي اللون الوردي، ثديٌ ضخم كأنه مشحون بالهواء كان يضغط على صدري، مئات الأجنحة السريعة تلمس زجاج النوافذ، وكان النُّزل يغصُّ بالحَمَام «حتى هذه الطيور سوف تهدأ، أكد الدركي، إنني أعرف ذاكرة هذه الحيوانات، لقد قضيتُ عشرين عاماً مع طيور السُّمانى»، من النافذة كان يظهر الخليج، قُماش السحب، تهديدُ المطر الذي لا ينزل، «اصعدي إلى سيارتك بسرعة»، طلبتُ منها، «فرجال المطافئ سيصلون في أي لحظة»، «مع من تتحدثُ؟»، زعقت رئيسة الموظفين، مرتابة، «سأقتطع ثمن المكالمات من أجرتك»، وقبل أن تنتزعَ الخيط من الدبوس سمعتُ «طيور الضيعة، طيور أبو الحناء، العصافير» وبعد ذلك لا شيء، إلا من صفير المكالمة المقطوعة، امرأة اليومية تعانقُني، الدركي المنحني نحو الأمام يُركّب رقم أفيْرو، وأشجار الصنوبر الغارقة في الورق الشفاف للضباب تنزلقُ، شيئاً فشيئاً، بعيداً جداً عني. ولم يقل أي شيء آخر. ثم قرأ الشهادة، صادق على ما جاء فيها ووقّعَ.

*

دخل إلى الغرفة يحمل صينية وجبة الفطور (خبز في سلة قصبية، علب زبدة صغيرة، أباريق من الكْروم، فناجين، أشياء تصطدم فيما بينها وتجلجل) فزكمت أنفه رائحة النوم الدافئة، الكثيفة، المزعجة، وكانت الأغطية مبللة من العرق، الملابس غير مرتبة، والبخار يغشي زجاج النوافذ. مستطيلٌ ورقي به ثُقب عُلق على مقبض الباب من داخل الغرفة يقول *DO NOT DISTURB* مهدداً بحروف بارزة.

- صباح الخير - قال والصينية في يده، ينظر من حوله إلى الجدران المضاءة بشمس قاسية، إلى الأثاث القبيح، الظروف التي تحمل طوابع فوق ما يشبه مكتباً، المنافض البلاستيكية، سلة الأوراق في زاوية، ومن الشرفة رأى الخليج حيث طيور البط جاثمة فوق سطح الماء تتأرجح بهدوء، وأنتِ، تبحثين عن نظاراتكِ، أنفكِ وشفتيكِ المنتفختين. حمالة منامتكِ كانت شريطاً زخرفياً مخرماً بأزهار الربيع: وهناك بداخلها صدرُكِ المسطح، كتفاكِ الواسعتان، ذقنكِ يدمدم آخر رسالة غامضة من الليل، وأنت ملفوفة في عتمة غامضة من مقاطع الكلمات. بحث عن مكان يضع فيه الصينية فلم يجد فضاء شاغراً، سحب كرسياً بصنارة قدمه حتى حافة السرير: لون الكرسي الأخضر جرحَهُ مثل إهانة ظالمة فلاحظ حينئذ أنه قد نسي مصباح الحمام مشتعلاً حين غادره، وقد هزمته الآن طاقة الصباح الشاحبة. مركبٌ يبحر داخل إطار قماشي بين مائدتين خشبيتين بلون قشدي قرب السرير. تعثرت يدُكِ في النهاية بنظاراتكِ، فوضعتهما كمن يرتدي ثياباً، انكمش حاجباكِ، وأنتِ تنظرين إلى الساعة في يدك اكتسى وجهك تعبيراً حياً ومتيقظاً: لا بد أنكِ تتساءلين ما الذي نفعله هنا، فكَّرَ.

- أفيْرو، يا له من مكان غريب - قالت بنتُ العم مندهشة وهي

تقطب حاجبيها، بينما إبْرتاها تنسجان بشراسة بلوفراً لا ينتهي - مررتُ من هناك قبل مدة طويلة، في طريقي إلى بورتو، كانوا يريدونني أن أرى رغم عني نهر فوغا: مدينة صغيرة مبتذلة، تفوح برائحة السمك والعفن. شخصياً، أتيهُ إن أخرجوني من حي لابّا.

- شمال نهر مونتيجو - قال كارلوس بازدراء - وحل، قذارة ورطوبة. أن يحب المرء أوحال مونتيجو، كما يفعل هو، شيء مَرَضيٌّ.

- كان يعبر نهر التاج أثناء الظهيرة، عندما لا تكون لديه دروس - قالت الأخت الموسيقية وهي تُدير طاولة البيانو - ويجلس وحده فوق الجسر العائم، يتأمل المياه. كان قادراً على البقاء هكذا لساعات طوال، من دون كلام، يداعب الكلاب الضالة التي تمر من هناك. رافقتُه مرة لكني تقيأتُ في المركب خلال مدة العبور بكاملها.

أطفأ ضوءَ الحمام الشاحب، الذي كان يحتضر فوق الموكيت، ووجدها تحلي الشاي بحركات رخوة، لا عظام فيها، حركات من يستيقظ: كانت ذراعاكِ مليئتين بالشَّعر، يا ماريليا، ولا أدري كيف كنتُ أستطيع ممارسة الحب معكِ؟

- فطيرةُ حلوى أم شطائر خبز؟ - سألت بصوتها المزعج المنخفض العملي والمتأهب، مثل صوت معلمة: انحطاط غودار، انبعاث السينما الأمريكية، متنزه كامبو غرانْدي، ببجعه وعشبه، وراء شَعركِ: هل أستطيع أن أشرح لكِ أنني أريد أن أرحل، فطيرةُ حلوى، أنني لم أعد أحبك، أنني أريد أن أبدأ من جديد في مكان آخر، زبدة فقط، حياة منقطعة، بكتب أقل، بمعارض أقل، بعدد أقل من دور السينما الألمانية، بعدد أقل من الأصدقاء الملتحين المتعجرفين بآرائهم، بقدر أقل من الثقافة؟ نظرَ إليها وفكَّرَ كيف أننا

هرمنا جداً منذ الصباح، وصرنا متجعدين، شاحبين، منهكين، كيف تنشأ تجاعيد غير منتظرة على وجهكِ. فكَّرَ: اللعنة، كيف كنتُ قبل أربع سنوات؟ فبدا لهُ طعمُ الخبز مختلفاً عن طعم الخبز في لشبونة، كما طعم الزبدة، وطعم الحليب المتدفق من إبريق معدني. عطرُ جسدكِ المتحرك مثل عظاية تحت الملاءات كان يشبه عطر الأغطية في الفندق، بنضارة مصطنعة من دون قوة. لمست المرأة وجههُ بإصبعين غير مباليين: حتى أصابعكِ شاخت، يا ماريليا.

- أنت متجمد - قالت.

رقّتُكِ لم تعد تهزّ مشاعري، لمساتُك لم تعد تثيرني: كان يشعرُ أنه بعيد جداً منكِ، ساهماً، وحيداً، فيما يشبه صحراء داخلية، كما لو أنه لم يكن ثمة أحد بالقرب منه، كما لو أنه كان وحيداً فعلاً، وإلى الأبد بكل تأكيد.

- نحن في شهر فبراير - أجابها - وقد أصابني البرد هناك في الخارج.

أشجار الصنوبر، الأشجار الأخرى، الرمل، النهر، ريحُ الشتاء بآلاف الشفرات التي تحْلق ذقن الضباب، بينما كل شيء، بكل تأكيد، أزرق في شهر يونيو، شهر عيد ميلادي، الجو حار، النّزل يعج بعائلات بلجيكية، إنه كسلُ العطلة.

- أصابني البرد هناك في الخارج - كرّر وهو يُفكّرُ بانزعاج، متى ستنتهي هذه الحفلات؟ - بالنظر إلى شكل السحب، لن تمطر مرة أخرى أبدا: سيتحول البحر إلى صحراء من رمال، يا ماريليا، مثل القمر، مثل رأس أمي التي تشبه رأس ملكة القلوب في أوراق اللعب. (يجب أن أتصل بالعيادة لأسأل عنها).

- مثل رأس زوجتك السابقة، إن سمحتَ - أضافت ماريليا

بابتسامة صغيرة ساخرة - كنت تجد توشا عبقرية بينما هذه السيدة لا تفرق بين الجوكندا وأي رسم من رسومات دوّامة الخيل.

لكني كنتُ أشعر بالراحة معها، ومع الطفلين، هناك في البيت بشارع بالْميرا، لم تكن لدي أي رغبة في الرحيل، أفتقدُ حتى بلاطات المطبخ. لقد دمّرتُ كل شيء وأنا أقبل بمغادرة ذلك المكان، فكَّرَ، لأنني كنت سعيداً بطريقة ما: في المساء، نستمع لبعض الأسطوانات، نتحدث عن بعض الأشياء المبتذلة، أنتِ على كرسيك الهزّاز، أنا فوق الأرضية، كتاب منسي إلى جانبي، وحين نصمت نسمع تنفس الصغيرين وهما نائمين، ولكن، حتى في تلك الفترة، كان الشعور بالذنب، جرحُ **الحزب**، المنفتح، النابض، والنّدمُ على جُبني، هو ما أديتُه ثمناً مقابل العيش معكِ. المرأةُ ذات الشعر الأشيب التي تحك رأسها بقلم أكدت، وهي تميز جيداً مقاطع الكلمات، تحت ملصق يمثل شخصاً يرفع قبضة أمام صورة معمل يعج بالمداخن التي يتصاعد منها الدخان.

- بورجوازي يستحيل إصلاحُه.

فتح علبة مربى مدورة تشبه تلك العلب التي يقدمونها للمسافرين على متن الطائرات، تذوَّقها، ووضعها جانباً: حلوة أكثر من اللازم، إنها تصيب فتحات حنجرتي بالتشنج: حنجرتي تنكمش فجأة، يستحيل أن أبتلع الهواء، قطع الأثاث تدور وتترنح فيما يشبه رقصة مضطربة، يختفي خشب الأرضية من تحت رجْليّ كما يختفي الماء في بالوعة. كانت ماريليا تجتر بهدوءٍ بقرةٍ من بقرات والتْ ديزْني، وفكّرَ إن بقيتُ معكِ لمزيد من الوقت سأبدأ لا محالة في بغضك. رفع الآلة ليطلب عيادة أمّه، لكنه عدل عن ذلك. كانت الغرفة تمتد فيما يشبه شرفة صغيرة بها كرسيان، مائدة خشبية مصبوغة بالأبيض،

ودرابزين بالإسمنت والحديد حيث، ربما، في فصل الربيع، عند نهاية الظهيرة، يمكن الجلوس، وكأس في اليد، لمشاهدة الظلال الكبيرة المتحركة مع غروب الشمس البرتقالية وهي تنغمس عند مصب النهر. كانت أخواته يلعبن الورق في الصالة، غير عابئات بغروب الشمس، ووالدُه، على أريكة بعيداً، يفك بلا توقف المعنى الخفي للجريدة، يُخرج من جيبه ويُدخل بشكل متتالٍ نظارتيه. توشا، على ركبتيها فوق السجاد، تغير حفاظات المولود الصغير الذي يركل الأريكة برجليه. يُفَكِّرُ، باندهاش، الرُّضعُ لهم عشرة أصابع مثلنا، أظافر وشعر. يُفَكِّرُ إذا حملت ماريليا مرة أخرى، ما الذي سيحدث؟ الرضاعات، الحفاظات، الحماس المحموم في الأيام الأولى ثم بعد ذلك تعب الليالي البيضاء، الفم الدقيق النّهم على الدوام. كان الرجال يُنزلون بيانو الجدّة، يستعينون بحبال، عبر السلالم، والعجوز، متلهفة، تضربُ على الدرابزين بعكازها، ثم جاء دورها فحملوا النعش متمايلاً فوق السلالم، أشخاص يرتدون الأسود والبيت غارق فجأة في الصمت، خالياً من الصيحات. بعد بضعة أيام رحلت آخر قطعِ الأثاث، آخر الأواني، آخر اللوحات، آخر حقائب الملابس المتعفنة، فصارت الغرف كبيرة يتردد فيها صدى خطواتي، سعالي، ربْوي، أتفهمين، الذي يُصفّرُ على امتداد الجدران. ثم نزعوا الستائر فاقتربت العمارات المقابلة مني، فضولية، متيقظة: لم أظن قط أنك ستستسلمين للهزيمة، يا جدّتي، أنهم سيكونون أقوى منك رغم قامتك القصيرة، وعظامك الضعيفة، الهشة، مثل عظام سنجاب، وأنهم سينتزعونك من السرير الذي ربطوك إليه على أمل أن يسجنوا الريح. إن حملت ماريليا فهل أملكُ الشجاعة لأتركها؟

- بسرعة، بسرعة - صاح والدُه وهو يضرب بيديه أمام المقطورات، بعد نصف ساعة سيبدأ الحفل.

نهضت المرأةُ، خلعت قميص نومها المخرم (شعْرُ العانة، فكَّرَ، أُحمحِمُ وأدفنُ يدي، أنفي، قضيبي، في هذا المثلث العميق، الأشعث، الأسود، من دون نهاية)، ثم توجهت، عاريةً، نحو الحمام على قدميها الضخمتين البدويتين بأصابعها المتباعدة، شبه الوردية، مثل أصابع الأطفال. حرّكت شعرها الكثيف وعضلات وركيها (كان حقْوها يتصبب عرقاً ويلمعُ) فتوجهتُ مهرولاً نحو النافذة: كانت خصيتاي تتصلبان وتنتفخان على عضلات بطني، وشيئاً فشيئاً، راح قضيبي يخرج من غمده ويشبه خرطوماً متصلباً، مقرفاً. شيء مثل اللعاب كان يلمعُ على شفتيها وعلى أنفها، وحذاؤها الخشبي يرتجف فوق السجاد: لا يمكن أن أمارس الحب معك لأنني سأنفصل عنك، سوف نغادر أفيْرو، مثل غريبيْن. سربٌ آخر من طيور البطّ نزل نحو الخليج يرسم خطاً إهليجياً حذراً، الانعكاسُ عديم اللون للمراكب الراسية يهتزُّ. أسطوانة يتصاعد بخارها انفصلت عن استها وسقطت رخوة على الأرض. استدار فوق الأرضية الخشبية واصطدم عشوائياً بالأثاث (قفزت قنينةُ ماء من مكانها خوفاً فوق صحن فنجان) في الغرفة التي صارت ضيقة لصدره الأسمر، فانتزعت إحدى صفائحه المدفأة المعدنية المعلقة على الجدار، مُكسّرةً اثنين أو ثلاثة قضبان متوازية، فانزلقت الصينية من فوق الكرسي في ضجة. أحبُّ ردفيْكِ المرتخييْن، أحبُّ فخذيكِ، أحبُّ كتفيْكِ المتدليتين وعظميهما الناتئين، بخارٌ مائي يخرج من الحمام في خطوط حلزونية ضاربة إلى البياض وباهتة تنعكسُ في مرآة الخزانة المقابلة، كنتِ قد سحبت الستار البلاستيكي ووضعتِ القبعة الشفافة، كنتُ أميّز شكلك

المنحني، تضعين الصابون على ساقيكِ، سوف ألجُكِ من الخلف، أمزق فرجكِ، ألوي وركيْك (المندهشين) على مينا الحمام، وقف على قائمتيْه الخلفيتين وهو يطلق زفيراً شرساً.

- ما الذي أصابك - صاحت المرأة، والإسفنجة في يدها - هل جننت أم ماذا؟

كان ثمة كثير من البخار وبالكاد يظهر صدركِ، عيناكِ المدورتان من الدهشة تحت القبعة، ونهداكِ المرتخيان بحلمتين داكنتين. كان القضيبُ يضرب الباب، الخياشيم تستنشق الهواء بنهم، العنق يتحرك محموماً، من جهة إلى أخرى:

- اغرب عن وجهي - قالت المرأة - هل اشتعلت النار فجأة في قضيبك؟

وضعتْ قطعة الصابون، وحاولتْ أن تحتمي بدرع الإسفنجة التافه (من أي مادة يصنعون الإسفنجات، سأل همس خافت حائر بداخله، حيوانات بحرية، مواد مركبة مصنوعة في معامل ساكافين؟)، مزّق الستار بفمه وأسنانه الضخمة بينما كانت هي تختبئ مندهشة، خائفة، شبه فرحة، في ركن الصنابير، شعر عانتها المبلل يقطر، ضغطتُ بحوافري على بلاطات الحائط، فكشطتُ الطين المزجّج بالحديد، أنصاف أقمار من الوحل، أنصاف أقمار من الغائط، كنتُ من دون شك أدوس روْثي لما قبل قليل، انفصلتْ من استها أسطوانة أخرى، أقل حجماً، فأحدثت صوتاً كامداً على السجاد المطاطي الأصفر الذي تتخلله ثقوب صغيرة، ولحظة اختراقه بضربة واحدة، من أسفل إلى أعلى، بكل ما تركز من قوة غاضبة في جسده، رأى في المرآة صورة حصان غير واضحة فوق رأسه قنزعةٌ، مثل حيوانات السيرك.

- هوبْ - كان والدُه يصيح وهو يطقطق السوط - هوبْ، هوبْ - فكان يقفز فوق الحواجز بانصياع مثابر، يدور حول نفسه، يتهيّج، يعود.

أغلق أزرار فتحة سرواله، خجولاً، وعاد إلى غرفته ليغير ملابسه، لأن قميصه كان مبللاً. كان حذاؤه الرياضي يحدث صوتاً غريباً فوق الأرضية، مثل لسان يتلمّظ. لفّت ماريليا جسدها في منشفة، رمت غطاء الرأس على عنقها، وخصلة شعر منحرفة على جبينها، ثم لحقت به، مصدومة، تقطرُ.

- هل شربت أم ماذا - قالت - ما بك اليوم؟

وكان في صوتها امتنان مقرف، أمل غير منطقي: يا لها من حماقة أنني جامعتُكِ، فكَّرَ، من المفروض أن نكون الآن بصدد النقاش، نقتسم بطريقة متحضرة كتب رولان بارت واللوحات، نستعد لنودع بعضنا مثل شخصين مهذبين، نستعد لنبقى صديقين: لكن، كيف يتم كل هذا؟ ارتدى قميصاً مرقّطاً وجلس على الكرسي الأخضر قرب النافذة، دون أن ينظر إليها لكنه يشعر في رقبته بأدنى حركة من حركاتها، سدادة حمالة الصدر التي تُشدُّ من جهة الظهر، ذراعيها الملويتين مثل بهلوانة، شعر مُشطَ على عجل بمشط معدني، خط غير منتظر من مُجمّل الرموش فوق رمشيها. هناك في الخارج، كان النهار ينتفخ مثل بطن حامل وعروقها تنتشر في السماء المعتمة، خلف الغيوم، شجيرات معلقة، حبلى بالمطر. كان الضباب يحول أفيْرو إلى ما يشبه بقعة غامضة تنفصل عنها بصعوبة المداخنُ بضربات فرشاة عمودية: يمكن أن نتناول الفطور هناك، ونتحدث. ربما تتوصل وحدها، من دون مساعدة، إلى أنه من الأحسن لهما معاً أن ينفصلا. ربما تنطلق الفكرة بمبادرة منها ويقتصر دوري على

التأكيد، من دون حماس مفرط ومُورّط، لأقول نعم، تجربة بضعة أشهر، يتصلان ببعضهما أحياناً، يناقشان الأمر، ونرى ما سيحدث بعد ذلك. أخرجت ماريليا من حقيبتها قارورة صغيرة وضمّخت عنقها وأذنيها في حركات أنثوية فجائية أدهشتني: يُفَكِّرُ ها هي سعيدة، ظلت صائمة منذ شهور، تتخيل أموراً، تستهيم أشياء، والآن، في غمضة عين، تلاشت شكوكها. علّقَ ملابسه فوق خشب السرير كي تجف، نظر إلى أشجار الصنوبر النحيفة التي تحف الطريق: يجب أن تتغلب على خوفك، أيها الجبان، يجب أن توضح رأيك.

- هل تريدين أن تأتي لتناول الغداء في أفيْرو؟ - سألها.

كانت بنتُ العم جالسة أمام التلفاز، تفك خيوط نسيج، وقالت من جديد:

- ماتت أمُّه يومين بعد وفاته، لم تعلم شيئاً، لسوء الحظ. قاموا بحقنها لآخر مرة في صدرها، ربطوها بآلة معقدة للغاية. المسكينة، بالكاد كانت تزن عشرين كيلو، كيس من العظام المتنافرة، من دون روح.

- سرطان الزوجة الأولى وانتحار الابن أثّرا كثيراً على زوجي - قالت المرأةُ الطويلة الصهباء والأنيقة وهي تلوحُ بعدة أقراط تصطدم فيما بينها محدثة رنيناً معدنياً حاداً. (كانت عمليات التجميل المتتالية قد حولت وجهها إلى قناع صلب وأملس، خال من أي تعبير، لشباب من الجص) ربما لهذا لم يفلح قط في ربط علاقة حميمية معي: يأخذ قرصا لينام، يقبلني، يدير لي ظهره، ويشخر. تعبتُ من نصحه بالذهاب إلى الطبيب وأسمعه يجيبني إنه لا شيء، متاعب الشركة، آلام رأس، أعذار معتادة. في الحقيقة، يشعر أنه عجوز وغير قادر، يقضي لياليه يهزّ رأسه أمام جهاز الفيديو، الجريدة مفتوحة فوق ركبتيه

والفيلم انتهى وهو ما يزال هناك، جامداً أمام الرذاذ الذي غزا الشاشة، الذقن فوق الصدر، الشعر المتساقط من الصلعة في قمة رأسه.

- لا بد أن أفيْرو رائعة - اعترفت بابتسامة صغيرة متواطئة، وفي لحظة، برز في ذهني مثلثُ العانة، النهدان المتدليان، الجسدُ العاري الذي يقطر ماء وينزلق الصابون فوقه - بالتفكير ملياً في الأمر، نحن لا نتجول إلا لماماً.

نسيتَ تماماً المؤتمر فكانت ممتنةً، مندهشة، شبه سعيدة لأنه اجتاز مرتدياً ملابسهُ حافة الحوض، يتقدم بيديْن عمياوين رغم الدّش، رغم المينا الزّلق، رغم الماء، سعيدة بفمي على صدرها، بلساني على عنقكِ، بالإصبع الذي يذهب ويأتي ببطء، يلامس البظر. إنكَ قد جننتَ تماماً، وعلى غير العادة، صار صوتُها عطوفاً وراغباً، ففرجت ساقيها أكثر يميناً ويساراً لتُسهل الاحتكاك المتكرر لسبّابتي، غشّى البخار نظاراتي فانتفى وجودكِ، مع أنك كنت تفكين أزرار قميصي وحزامي وتنزلين بقوة سروالي ولباسي الداخلي، الماء يتدفق على ركبتيّ وعلى كاحليّ فيبلّلُ جواربي، أسندُ راحة يدي على الجدار بينما تلمسين من جسدي ثقب الإست، الخصيتين، ثنية الأربيّة، القضيب، ثم تقحمين رغبتي، انتظر قليلاً، بلطف، إلى داخل جسدكِ، فتلامس القبعة البلاستيكية وجهي، ومن حلقكِ يصدر أنين موقّع بينما أنا أدفع إلى الأمام وإلى الخلف ردفيّ لألاقيك، أظافركِ في ظهري، أسنانكِ في ذراعي، والماء ما يزال يتدفق من السقف، يتصاعد بخاره، فوق جموحنا مثل كرسيين متأرجحين متداخلين، ثم نزلنا شيئاً فشيئاً عبر الحائط حتى جلسنا القرفصاء قرب البالوعة، انتزعْتِني من فرْجك، والتففتِ بحركة متموجة حول سرّتي،

دعني أشربُكَ، دعني أحس بحليبكِ على لساني، وفجأة تركز كل وجهكِ على قضيبي فيما يشبه دواراً، فكبُرَ، وتمدّدَ، لمع، انفجارٌ، اثنان، ثلاثة، مكبسٌ يدفعني خارج ذاتي بطاقة هائجة، وفور ذلك بدأت، شيئاً فشيئاً، أفترغ، ألينُ، أفقد النسيج المعدني والمطاطي لعضلاتي، أرخيتُ ركبتيّ، تمدّدْتِ على طولك في عمق الحوض، تلهثين منبطحة على بطنك، فنسيتِنِي، ساهيةً، ملتوية مثل لباس يتعرّى، بينما أنا أتجه متعثراً نحو الغرفة مثل طائر بطْريق يمشي مترنحاً غير واثق، أمسحُ زجاج نظاراتي بغطاء السرير، فاتضح العالمُ المضبّب وبدل صديقة أمي الطويلة الصهباء التي تشبك ساقيها الدقيقتين فوق الأريكة (رائحة عطرها، رائحة جواربها، رائحة ملابسها) برزت جدّتي، تُلوّح بعكازها، وتصيح:

- أريد أن يدفنوني في البيانو الكبير، أيتها العاهرات

جالسة فوق السرير، شعثاء، عدائية، وكيس من المصل يتسرّب قطرة قطرة إلى ذراعها.

نزلوا عبر السلالم المؤدية إلى الفناء حيث نباتات ضخمة، وردية وخضراء، تنمو داخل حوض موحل (كم من الزبائن التهمتْ، فكَّرَ، وسحقتهم سحقاً منهجياً بفكّيْها الضخمين؟) ثم وضع المفتاح فوق المكتب الذي كانت خلفه المرأة ذات الرموش الضخمة تقوم بعمليات جمع حسابية لا تنتهي بطيئة مثل عنكبوت، تدقق كل رقم بطرف قلمها المُفكِّر. في طرف من مكتب الاستقبال، قرب ملصق يمثل بحيرة ألْبوفيرا، *Sunset in August*، وعبر باب موارب، كان من الممكن رؤية مقْسم هاتف يعود لفترة ما قبل التاريخ، طاولة مكتب أكلتها السوسة، حزمة أوراق مثقوبة بمسمار تتأرجح على رنات جرس يحتضرُ. ومن شاحنة رابضة عند الباب لا تظهر بوضوح وسط

الضباب كانوا يفرغون علب مشروبات غازية، أشجارُ الصنوبر والماء يتهامسون في الضباب: لا شيء هنا يعكس أي شيء، فكَّر، إلا هذه السماء المؤلمة والغريبة، المليئة بكثير من سلالم الغيوم، بالريح المضطربة والأجنحة الخفية (ضباب؟) للطيور. كانت السيارة ترفض أن تقلع، لأن بطاريتها المتجمدة كانت تخدش قعر المحرك مثل قطعة حديدية تصطدم بعلبة معدنية، كانت السيارة تفوح برائحة التبغ والجلد المحترق.

- أشعر كأن الطقس لن يتغير أبداً - قال وهو يدير من جديد المفتاح، يضغط على الدواسة، ويضبط الهواء - كأننا سنعيش إلى الأبد تحت هذا الجرس المعلق، أتعرفين، في انتظار لست أدري ماذا. الرطوبة تسبب لي آلاماً في الرقبة، أفكاري ويداي غيرت أماكنها، لم أعد أعرف أين أبدأ ولا أين أنتهي.

شاحنات مُحتضرة تجوب الطريق، تطاردها كلاب غاضبة، تفتتح أفواها واسعة، طائرٌ أسود نزل بسرعة وعنف وسط أشجار الصنوبر، بدأت السيارة تنزلق ببطيئة تنتحب فوق الحصى: واضح أن هذا الطقس لن يتغير أبداً، غيوم تزداد على غيوم، غيوم تتراكم فوق غيوم، بلغا الطريق المعبدة، وزادا من السرعة في اتجاه أفيْرو، سوف أخبركِ خلال الغداء أنني أريد أن أنفصل عنكِ لبضعة شهور، وأنني بحاجة لأفكر، سنبقى صديقين، نتبادل الزيارات، أنصحُكِ، أشجار تنساب، عمودية، نحو الخلف، قرى صغيرة بائسة ومتفرقة. الأخت الموسيقية رفعت أصابعها عن المفاتيح وأمرت تلاميذ القسم:

- المثلثات أولاً. والدفوف فقط عندما أعطيكم إشارة بيدي.

أستاذُ فرقة الكورال الغنائية في الثانوية، فكّرَ، كان يتمتمُ، يضع نظارات، تصيبُه أحياناً بتشنجات عصبية تُجعّد وجهه وتُدخله في

نوبات غضب غامض: كان يصفعنا، سيجارة بين شفتيه، دون أن يسقط منها رماد، وخلال حفل الغناء السنوي، عندما تكون قاعة الرياضة غاصة بأولياء التلاميذ المتأثرين والحراسة الشرسة للمدير في الصف الأول الذي تخفيه العتمة كما تخفي ظهر الكرسي، كان يقف أمامنا بعصا خشبية في يده، وتعبير توسُّل على ملامحه، جبينه يلمع توتراً وعرقاً: كان والدي دائماً في الخارج أثناء هذه الجلبة، لم يرني قط أجهد صوتي وسط ذلك القرص من رؤوس الجوقة الغنائية التي يضيئها بعنف كاشفُ ضوء صدئ، وهم يؤدون منتقيات من الأغاني الشعبية بأربعة أصوات بتقاسيم متقافزة بلهاء. كان رئيس الجوقة يحرك كمّيه، القلق ينخُره، معيار نغم صغير في فمه لتقديم نوتة «لا»، مُحرّكُ السيارة الآن يهدر بهدوء وديع، على اليمين يافطة تعلن عن قرب أفيْرو، ازداد عدد البيوت، ثم جاء دور العمارات، والمحلات، والأزقة المتقاطعة، ساحة، رائحة النهر التي تُحدس في كل ركن وشارع، صامتة وعنيدة تحت مستويات ارتفاع السماء المختلفة. توقفنا عند ساحة صغيرة قرب محطة وقود وشخص أحدب له فنطيسة فأر المجاري يرتدي مبذلة متسخة ينتظر الزبون مقرفصاً تقريباً فوق كرسي يُطوى، وأدخلَ الضبابُ يدهُ المزعجة بين ثنايا الأزرار. راهبان هنديان، يرتديان رداء الكهنة، صادفاهما دون أن ينظرا إليهما، أستاذُ جوقة الكورال نظف جبينه بذراعه، استدار فوق حذائه الملمع وانحنى، متأثراً، نحو كاشف الأضواء ليشكر المُصفقين. يُفَكِّرُ أمي تكره الثانوية التي تعتبرها وكراً للشيوعيين والعاهرات العاريات اللواتي يُدرّسْن اللغة الفرنسية، وربما لهذا السبب لم تندهش كثيراً لحياتي المنحلة. لكن، لا بد أنها ترسم علامة الصليب وهي تفكر فيك فقط، يا ماريليا، أشار إلينا أستاذ فرقة

الكورال الغنائية بحركة غامضة وواسعة في الوقت ذاته، ازدادت حدة التصفيقات، كنت تتحاشين أن تتحدثي عني لصديقاتك، تتظاهرين بأنك لا تعرفينني إن سألك أحد عني كانت تخجل من أن يكون صهر ابنها عريفاً في الدرك، أوكي، لننفصل، قالت، إننا أفهم تماماً، لا داعي لنصنع مشكلة من هذا الأمر، كنا نمشي في أزقة ضيقة وملتوية، مقفرة الآن سأتحدث معكِ أثناء الغداء، السيدةُ الفارعة الصهباء ذات القرطين الطويلين كانت تُشيرُ إليه بحركات من وقت لآخر، تناديه من شرفة في الطابق الأول، ربما لم يعد أبي يطيق شيئاً، لم يعد قادراً، وهي تضحكُ، عارية فوق السرير، تشد جسدها داخل البذلة الزرقاء، ذات الأزرار الفضية، أتساءلُ إن كانت أمي تشك في شيء ما، ذراعُ ماريليا تنزلق تحت ذراعي بدعوى أن الأدراج لم تكن مستوية، مثل زوجين، فكِّرَ، زوجين مستقرين، لماذا لم تملك الجرأة على توضيح الأمور، وشرح موقفكَ، تخاف ألّا تُحبّكَ، وتخشى في الحقيقة أن تبقى وحيداً، شراعٌ هشٌّ من القطرات الدقيقة يموج في الريح، يلامس وجهها، يبتعد من جديد، اختارا مطعماً صغيراً قرب الخليج والمياه الموحلة، بالقرب من النافذة الزجاجية الكبيرة حيث كان زبون واحد ينقر بسنّ شوكتهِ عيناً مطبوخةً، بيضاء، بارزة، مدورة، عمياء لسمكة ويمضغها بفمه المطاطي مثل ضفدع: مدَّ لهما النادلُ قائمة المأكولات، أراهنُ أنك ستأخذ حبّاراً بالحبْر، وفجأة، من نظراتها شزراً ومن حركاتها فهم إنها ما زالت تُحبّني وهذا الصباح طرد بعيداً شبح الطلاق، ها هي الآن هادئة، مطمئنة، مرتاحة، عاشقة، يا له من إزعاج، حبّار بالحبْر، لحم خنزير مشوي، نبيذ أبيض، بسطَ النادلُ غطاء مائدة ورقي بيننا فأخذتُ أتأمّلُ الماء العكر الراكد (لم تكن هناك كثير من طيور النورس في هذه الجهة) الذي يطفو فوقه قش

التبن، قطع الخشب، سلّة، نفايات مختلفة، أشياء يصعب تحديدها، زوارق جُمعتْ مجاذيفها في الداخل، قطرانُ الضباب القطني، البحر، ربما، هناك، هناك بعيداً جداً، اتّضحت معالمُ الوجه المحنط للنادل (محجران صغيران، حاجبان) وتقدم فمُه نحوي، تحاصره تجاعيد في دوائر متحدة المركز:

- لم يعد لدينا لحم الخنزير المشوي. وقد أشرنا إلى ذلك بعلامة في قائمة المأكولات، ألم تلاحظ ذلك، يا سيدي؟

لن يكْتُبَ أبداً (كان يعرف ذلك) أطروحته حول فكر سيدونْيو بايِيسْ، كانت الأفكار تصر على ألا تخطر عليه: مسودات، تخطيطات أولية، أوراق ممزقة، فقرات مفككة وميتة: إما أنني لم أكن أملك أي موهبة قط أو أنني فقدتها في طفولتي مع أسنان الحليب، ربما أملك فقط نوعاً من المهارة، نوعاً من الرشاقة الشكلية، أحلل الأحداث بشكل سطحي، وليس في العمق، مثل هذه المياه غير الشفافة لنهر فوغا التي يشلُّها تردُّدٌ مبهم. يُفَكِّرُ أنا لا أحب سمك الحبّار، لا أحب لوامسها، مكابسها، لا أحب المرق الداكن، لحمُها الشاحب بأليافه الكثيرة يصيبُني بالقرف.

- شيء متخلف أن تطلب سمك الحبار - أعلن بازدراء شبحُ أمّه - اطلُب شريحة لحم، على الأقل.

- شريحة لحم مطهية جيداً - صاح النادل نحو مطبخ يستحيل تحديد مكانه حيث لا بد أن امرأة بدينة كانت تصارع وسط جيش من القدور الوسخة، تعينها مساعدة من دون صدر، وعيون متوسلة.

- كان يطلب سمك حبار في المطاعم - قالت أختُه الكبرى وتكشيرة على وجهها - هل رأيتم من أي فئة هو؟

- أراهن أن المرق كان يقطر من ذقنه وأنه كان ينظف أسنانه

بمسواك - أضاف كارلوس - كما أنه كان يبصق عظام حبات الزيتون على شفرة السكين.

- لا بد أنها لم تكن غبية تماماً - قال طبيب التوليد - لكن ثمة أشياء تحددها الكروموسومات التي تستغرق أجيالاً وأجيالاً كي تتحسن، وتُصقَل. الذوق السليم، مثلاً. التربية. آداب السلوك. لا يمكن القيام بأي شيء.

المَمْلحَةُ، علبةُ الفلفل، الأواني ذات الجودة الرديئة، الصحون المشروخة: لن أكتُب أي شيء أبداً، لن أفعل أي شيء مفيد أبداً. ظلٌّ شبهُ مقرفص كان يصطادُ فوق جسر خشبي عائم: العم فرانسيسكو، فكَّرَ، لكن الحركات كانت مختلفة والوضعية مجهولة. زوجة العم فرانسيسكو، مستسلمة من دون سنّ محددة، كانت تقضي أيام نهاية الأسبوع في السرير، كيس من قطع الثلج فوق رأسها (لا يمكنكَ أن تتصور حدة ألم الشقيقة، يا ولدي)، تنتظرُ أن يعود زوجها، تفوح منه رائحة الرذاذ وحساء السمك، يحمل على طرف ذراعه سلّة من الأسماك الصغيرة النتنة. أشعل سيجارة فأسرع النادل ليضع أمامه منفضة مشروخة، من البلاستيك الأسود. **يُفَكِّرُ** سوف أبدأ الحديث. هكذا، تقدّم بمرفقيه على غطاء المائدة الورقي، دفع بلطف الشوكة بسبابته حتى أصبحت متوازية تماماً مع السكين، تنحنح قليلاً كما يحدث قبل الخطابات الحاسمة، وأثناء ذلك حطّ زوجٌ من طيور النورس فوق الجسر العائم قرب صاحب قصبة الصيد وراحَ ينعقُ، من دون سبب.

❋

الشاهدُ هيلارْيو أ.، مطلَّق، ستّ وأربعون سنة، نادل في نُزل

أفيْرو ومقيم في نفس المدينة. أدى القَسَم وأجاب بالنفي عن أي معوقات ممكنة. وحين سئل صرّح: أنه يقتسم مع فكتور ب.، المشار إليه في الصفحة ستين من هذا المحضر، العمل في المطعم ووجبات الفطور في النّزل، ينامان معاً في غرفة تقع في العلية قرب جناح المسؤولة عن الموظفين، ولهما الحق في حمام ساخن مرة في الأسبوع، في دُشّ هذه الأخيرة، التي كانت تراقب شخصياً كيف كانت شعلة الغاز الزرقاء تبقى مشتعلة في نافذة السخان الصغيرة المصنوعة من المينا لأن ثلاث دقائق أكثر من كافية كي يغسل رجل جسده بالصابون، وكانت الغرفة المذكورة تقع بالضبط فوق الغرفة التي كانت تشغلها الضحية زْوي س. وزوجته المفترضة. وأضاف أنه بسبب عيوب في البناء، كان يمكن سماع أدنى صوت بشكل تام، حتى أدق الأصوات، القادمة من الطابق الأسفل، بما فيها أنين نوابض الفراش، والتشجؤ، والقرقرة، وبقبقة الماء في حوض الاستبراء ومظاهر الرّقة والحنان. حسب الشاهد، فإن الضحية زْوي س. وزوجته المفترضة كانا يتميزان بصمت محير، وهو ما عزاه إلى أن المرأة لم تكن جميلة ولا مثيرة، بل إن زميلي قال لي إنها تملكُ كل خصائص الرجال بما في ذلك اللحية، لو رأيتَ الشعر الذي ينمو في ذقنها، أراهنُ على أنها تحلق لحيتها كل يوم وأنها تملك صدراً أكثر شعراً من صدري، فأجبته بأن ذلك ليس أمراً صعباً لأنك تنتف شعرك، بهوسك هذا في الذهاب إلى لشبونة والتردد على النوادي الليلية الخاصة بالمخنثين، وكان يقول إنني اشتغلتُ في ناديين ليلِّيين خاصين بالمخنثين وإنهم من أسعد الناس في الدنيا برموشهم المزيفة على الدوام، وشعرهم المستعار الأشقر المثبت بصلابة يأتي أغنياء فاجرون لملاقاتهم في سيارات كبيرة، يقبّلوننا على أفواهنا، يجولون

بأياديهم فوق سيقاننا، يدسون أوراق مالية من فئة ألف في محافظنا الجلدية. أنا، لو كنتُ أملك مالاً لذهبتُ إلى إحدى تلك العيادات في المغرب، وأتحول إلى امرأة، إنهم يصنعون لك نهدين من البلاستيك وكل شيء، حتى أنك لن تعرفني عندما أعود، ستنظر إليّ وينتصب قضيبك مثل لاقط سيارة يفضل أن ينكسر على أن يرتخي، قد تدفع ثلاثة أشهر من أجرتك مقابل عشرين دقيقة من اللهو، إن شئت، بل تخيل أنني فتاة ولنبدأ حالاً، كان أحياناً يتفق مع بعض الزبائن الوحيدين من أصحاب الحركات الخجولة وعادات مثل عادات ثعبان الماء، هذا النوع من الرجال الذين يلتقطون فُتات الخبز من فوق غطاء المائدة بسبابة مبللة كأنهم يعزفون القيثار، هؤلاء الرجال بين عمرين، مفرطون في اللطف، مبالغون في العناية بأنفسهم، مسرفون في المرح، كان يلتقي بهم عند منتصف الليل تقريباً، ابتسامة مرحة تعلو شفتيه، ثم يعود في الصباح الباكر، حذاؤه في يده، شاحب لأنه لم ينم، يتمدد فوق السرير ليشاهد السقف ويفكر، عندما كان هذا يحدث في الغرفة رقم ٧، كنتُ أسمع أحاديثهم، اهتزازهم، دغدغاتهم، كما أسمع تصريحاتهم، وعودهم، عهودهم، حماقاتهم التي يسجعون بها، لكن، حسب الشاهد، يتميز الضحية زْوي س. وزوجته بتكتم مطلق ومحير، خاص بالأزواج المنفصلين أو الذين لم يعودوا يشعرون بالدهشة تماماً، كل واحد يتصفح مجلته فوق سريره الخاص بحقد هادئ، ملل مطمئن، وانزعاج صبور. أثناء وجبات الأكل كانا يتحدثان قليلاً: يختاران الأطباق ويوليان رأسيهما نحو الخليج حيث يبدو أن الماء كان يجري ضد التيار لأن الأمطار لم تكن قد بدأت بعد، كتب لي والدي من القرية ابني، في السنة القادمة، لن يكون لدينا ما نقدمه للبقرات،

بريق نظاراتهما يخفي فراغ النظرات، فأجبتُه اغرس قرون البقرات في است السيد الوزير الذي لم يَبْنِ بعد ذلك السّد الذي وعدنا به قبل الانتخابات، وذات ظهيرة وصل رفيقي إلى المكتب هائجاً أيما هيجان، تعال لترى يا عزيزي لقد حضرت الشرطة وهناك جثة بالقرب من هنا، وتجسسنا معاً من وراء النافذة فرأيتُ مجموعة من الأشخاص يرتدون واقيات مطرية، السماء الرمادية، الأشجار، غيوم فبراير التي تصعد من مصب النهر، منحوتة في ما يشبه الحجر، منقوشة في البازَلت، تُدحرجُها الرياح، بصمات البيوت وأشجار الصنوبر مطبوعة على جلدها السميك الذي لا لون له، مثل آثار الأقدام فوق الرمال عند الصباح، كان مُصوّرٌ يلتقط صوراً، أشخاصٌ يستعملون بنادق رصاص يفزعون الطيور الفضولية، المسؤولة عن الموظفين تقدم شروحات لرجل يدوّن ما تقوله في مذكرة، خرجتُ أرتدي مريلة، مشمر الكُمّين، الدجاجة التي كنتُ أنتف ريشها فوق سطل من الزنك في يدي، قائمتاها تتأرجحان، جسدها المدور يصطدم بفخذي وأنا أجري، كأنها خصية بها فتق، ليس كل يوم نرى ميتا لكنهم كانوا قد غطوه بمستطيل من الثوب ولم يعد يُرى غير نتوء غامض فوق الرمال الذي يمكن أن يكون شخصاً ميتاً أو أي شيء آخر مستطيل الشكل وكبير الحجم، كانت رائحة الوحل تخنق أي نتانة أخرى كما تخنق الأصوات، اقتربتُ أكثر مع دجاجتي فترك الرجلُ الذي يسجل ملاحظات في مذكرته المسؤولة عن الموظفين التي نظرت إليه نظرة استياء وناداني، إيه، أنتَ هناك، أيها الرجل ذو المريلة، هل تشتغل أنت أيضاً في النّزل؟ ثم كيف كان نزيلا الغرفة رقم ٧، عاداتهما، أحاديثهما، ما يأكلان وما لا يأكلان، هل يخرجان كثيراً أم قليلاً، ابني، قال أبي، ليس لدينا ما نقدمه

للبقرات، إن كانا يتلقيان زيارات، يتصلان بالهاتف، إن كنتُ لاحظتُ شيئاً غريباً في تصرفاتهما، ثم انتقل إلى المرأة، لطيفة، عدوانية، طويلة، قصيرة، سمراء، شقراء، مظهرها، لباسها، تصرفاتها، أظن أنه كان يعاني من الربو لأنه كان يتنفس مثل سمكة فوق قلمه، فاغر الفم، قلقاً، بنفسجي اللون، يتهجى الكلمات وهو يكتبها، بقعة نبيذ تغطي جزءاً من خده الأيسر وعنقه، مما يعطيه شكلاً هجيناً لبدوي قمري من إقليم أليِنْتيجو[1]، كانت طيور النورس تنعق وراءه في دوائر مضطربة ومحمومة، نقّالةُ رجال المطافئ حملت الجثة نحو سيارة الإسعاف التي كان ضوءٌ أحمر يدور فوق سطحها، وزعيق قوي يتصاعد وينزل على الطريق، بقيت بقعةٌ فوق الشاطئ قام عدة أشخاص بتغطيتها بواسطة الرفوش وهم ينعتون الطيور ببنات العاهرة وشتائم أخرى أكثر غضباً، جمعَ المُصوّرُ عدته في حقيبة حملها فوق كتفه ثم ذهب الجميع، بمن فيهم أصحاب البنادق، ليشربوا خمراً في حانة النُّزل على حساب المديرة، لم يكن من اللائق أن ينتشر خبر الحادث في الجرائد، فذلك قد يبعدُ الزبائن ويخيف السيّاح، فتُلغي وكالاتُ السفر عقودها، أليس كذلك، ونحن ننتظر زبائن أمريكيين خلال هذا الصيف، يأتوننا بالدولار، هل فهمتهم، أيها السادة، وكان الأشخاص يعبون كأساً وراء أخرى، مراوغين، والمسؤولة عن الموظفين تملأ الكؤوس فوق الخط الأزرق، فتحْمرُّ الآذان شيئاً فشيئاً، وفجأة تنفجر قهقهات صغيرة مختنقة، صبيانية؛ لكن مفتشاً بديناً حاول أن يهمس شيئاً ما في أذن رئيسة الموظفين

---

(١) إقليم يقع وسط البرتغال ويعتبر سكانه نماذج لأهل البادية الأصليين في البلاد. (المترجم).

وهو يمد يده نحو ردفيها من دون نسغ، بها جفاف يائس وحزين، يغطيهما قماش الفستان من دون جدوى، تناولا العشاء في ضجيج على مائدة واحدة، طويلة جداً تتخللها قنان فارغة، بقع، قشور خبز، بقايا طعام وأعقاب سجائر في صحون، شخصٌ لم يخلع معطفه من قبل كان يشخر وهو يهزّ رأسه فوق شريحة بطيخ في صحنه، وكانت الطباخة، غاضبة، تبصقُ فوق كل فطيرة فْلان قبل أن توزعها، زميلي، في حالة يرثى لها، كان يرفرف منتقلاً من دركي إلى آخر في حركات راقص هوائية، نهض المُصوّرُ ليلقي خطاباً، فخانته ساقاه وسقط من جديد على الكرسي، متخلياً عن فكرته، فتحولت فكرتُه القلقة إلى غيبوبة مشوَّشة، همهم ساهياً جملة مفككة حول ساعات يابانية وملابس داخلية مخرمة، على الأقل أن يخرج هؤلاء الأوغاد من هنا مسرورين، همست لي المسؤولة عن الموظفين بين أسنانها، وهو ما لم يحُلْ، كما تعرفون، دون انتشار الخبر في اليوم الموالي، في عناوين بارزة على الصفحات الأولى، صور بشعة، بقينا ساعات طوال ننظفُ ما خلفوه من قذارة في النّزل، سقط واحد منهم إلى الخلف في بحيرة النباتات، أسقط عدة أصص، كسر ثلاثة عشر ضفدعاً من الخزف وبقي هناك، ممدداً في الماء، ينظر إلى زملائه مزهواً مثل حصان بحر، شاربه المبلل يرتعش مثل شراع أمام فمه، رحلوا عند الفجر، لحظة كان خطٌّ نيلي يبرزُ بشكل خفيف الملامح المتلاشية للمدينة، هدير المحركات يقض مضجع رأسي مثل خيط حديد متوهج، نزلتُ نحو الرمال أرتعش من برد يبدو أنه يأتي من أشجار الصنوبر المتصلبة بعيونها الجاحظة ومن الليل الذي ينكمش مثل الجلد تحت الجفون في وجوه تعاني من الأرق، فاسحاً المجال لضوء لبَني متردد ومرتعش، وبدأتْ تلوحُ، أرأيتم، أقربُ التفاصيل،

المراكبُ الراسية، الشجيرات، البقعةُ اللؤلؤية على الشاطئ، أول سرب من طيور البطّ القادمة من المصب التي حطت في الخليج، الأضواءُ الخلفية لسياراتهم تتأرجح، غير واثقة، فوق الطريق، بعد قليل سوف يطلع النهار، فكّرتُ، وكانت الغيوم تقترب وتبتعد في لامبالاة رخوة، سمعت أحداً يسعلُ من خلفي، كانت الطباخة، وجهها مجعّد من التعب، تنظر إلى المكان الذي كانت فيه الجثة، الرمل المقلوب، القصب، الأعشاب، الآثار العديدة للأقدام، وخصوصاً، الصمت المطلق، الصمت المعدني للفجر، وطيور النورس التي ما تزال نائمة، يا سيدي، وما تزال غائبة في مكان ما، لا يُعرف أين هو.

*

يُفَكِّرُ طبعاً لم تقُل شيئاً مما كنتَ تريد قوله أثناء الفطور، طبعاً لذتَ بالصمت طوال الوقت تنظر إلى الظهيرة عبر زجاج الصالة تضغط على أنبوب الخردل من البلاستيك الأصفر وتنشره فوق شريحة لحم مع بيضة مقلية كما في الكرنفال وحولها بطاطس مقلية شاحبة تقطر دهنا. من حين لآخر، كان يدخلُ صياد ليشرب قهوة في منضدة الحانة، ثم (فكّرَ) كأن الصيادين كانوا يحملون معهم رائحة الوحل والسمك، كأن رائحة الخشب العفن ترافق قبعاتهم من الثوب الملمّع أو جزماتهم المطاطية. يُفَكِّرُ أيضاً الفرحُ في عينيكِ، يا ماريليا، سرعان ما تلاشى بدوره شيئاً فشيئاً، وصارت حركاتكِ أكثر بطئاً، صارت تأملية، واقترب حاجباكِ أكثر فوق أنفك، وضاقت كتفاكِ تحت لباس البونْشو الصوفي الذي لا يفارقكِ، كأنه قوقعة حشرة. يُفَكِّرُ في الظهيرة تجولنا في صمت في أفيِّرو، وكانت الشوارع،

والبيوت، والساحات الصغيرة تفوح برائحة رطبة ودافئة، نفَسٌ حيواني لشيء حي كان بردُ فبراير يغتالُه: في النهاية، جلسنا على مقعد، ننظر إلى العمارات دون أن نلمس بعضنا، دون أن نتحدث إلى بعضنا، دون أن نبتسم لبعضنا، جلسنا على مقعد، أيادينا في جيوبنا، نجترُّ أفكاراً متضاربة وحارقة.

- قل لي - سأله والدُه بصرامة - أين عثرت على هذه الفتاة؟

- كيف قال اسم تلك المرأة، يا جورج؟ - سألت أمُّهُ وهي تلتفتُ نحو زوجها وتفتش بأطراف أظافرها الحمراء المشحوذة داخل علبة سجائر من الحرشف.

ذهبتِ إلى الحمام (أين يمكن أن أغسل يديّ؟)، رافقتكِ أختي الموسيقية في الممر، مقوسة الظهر، تشتم المفاتيح الكهربائية بأنفها الكبير قصير النظر، وبقينا متحلقين في دائرة حول المنضدة الصغيرة، نكرع الويسكي ونأكل قطع بسكويت مملحة بالجبن على شكل شرانق دود القزّ أو عيدان القصب، ووالداي، أختاي الأخريان، أبناء عمي وأنا، بمحاجر عيونهم الحادة ترميني لوماً بغضب مكتوم، الأثاث، اللوحات، كتب المكتب الزجاجية، الأواني الخزفية الصينية والصور بالألوان للأحفاد يرمونني بغضب مكتوم، يتشكل من الحقد والازدراء. كنا وقتئذ قد بدأنا نعيش معاً في شارع أزيدو غْنيكو منذ شهور، تحيط بنا الملصقات، والغبار، والأثاث الأعرج، فتلاشى حماسي الأول وإعجاب البدايات. يُفَكِّرُ وقتئذ بدأتُ أعتقد أنني لن أستطيع أبداً أن أحب بجد شخصاً ما، وأنني لن أهتم بجد بأي شيء.

- ماريليا - كررت أمُّه وهي تجتر المقاطع كأنها تقيّم وزن الاسم بلسانها، بينما دقات ساعة الحائط، المزينة برسوم شرقية،

تظهر وتختفي من خلفها كأنها صدى بعيد يتأرجح - ماريليا، يا له من اسم غريب.

يُفَكِّرُ لا بد أن الساعة كانت تشير إلى الرابعة أو الخامسة زوالاً عندما نهضنا من فوق المقعد لنجلس في مقهى صغير معتم في زاويةِ ساحةٍ من دون أشجار تقريباً، حيث أنبوب مصباح نيون في السقف كان يمنح الكراسي والمنضدة المتسوسة لاواقعية كئيبة. شابٌّ طويل وأعمى، بعكاز مخطّط بين ركبتيه، يبدو أنه يستقصي مستقبلاً من الكوارث بمحجريه البيضاوين مثل تمثال. من حين لآخر، كانت يداه ترتعشان، وفي لحظة معينة أخرج من جيبه منديلاً كبيراً وبصق فيه بصوت مرتفع. بحث والدُه عن غطاء سطل قطع الثلج على شكل مكعبات (لم يفهم قطّ كيف يُفتح هذا الشيء، فكَّرَ) وحرّك الحجارة الكدرة، الملتصقة بعضها ببعض، بأصابعه الضخمة المتسلّطة.

- أكبر غلطة ارتكبتَها - قال - هو أنك انفصلت عن توشا.

- هذه على الأقل كنا نعرف من تكون - أضافت أخته الكبرى وهي تقضم جزراً أخذته من قطعة مقبلات بالجبن مثل أرانب الرسوم المتحركة: كان وجهها الطويل ينتعش بقسوة لا ريب فيها.

أفكّرُ من جديد الوقار المتصلب لهذا البيت، الغرف الغارقة في العتمة أثناء النهار، مخيفة بأشباح مبتكرة، ثقل طيّات الستائر، الأجواء الحادة، الكثيفة، الثقيلة، الطقوسية، الحاجب المنتقد للأجداد على الحائط، موسيقى بيانو بعيدة. في المطبخ الواسع كانت الخادمات يضعن نظاراتهن كي يرينه بشكل أحسن، يترددن في أن ينادين عليه أيها الطفل أو أيها الدكتور، الخيّاطةُ، بيديها المشبكتين والدموع في عينيها، تتأمله كمن يتأمل تماثيل الكنيسة. يُفَكِّرُ ديبوليْنْدا العجوز هذه. يُفَكِّرُ منذ متى لم تذهب إلى بيت أسرتكَ؟

عام، عامين؟ لكنه كان يتعرف الروائح، غصن من نبات البوغانفيليا دائماً يلمسُ النافذة، الأصهار يستريحون من دون حرج أكثر فأكثر على الأرائك الجلدية السوداء، بأذرعهم البدينة مثل كبار الأساقفة. ربما في الغرفة الضيقة، حيث الدواليب، ما زالت هناك الحقيبة القصبية مع الأقنعة وقطع الدومينو من الكرنفالات السابقة، تخاريم تتبخر مع لمس الأصابع، تنانير طويلة فضفاضة من عهد قديم. طبيبُ التوليد كان يتأمل بانتباه قعر كأسه الفارغة، كارلوس يفتح قنينة جديدة بحركات ساقٍ في حانة.

- لم تتزوج توشا مرة أخرى - لاحظت أمُّه بنبرة اتهام - إنها تعيش وحدها مع طفليْها، تتصرف كما يجب أن تفعل، لا تخرج ليلاً، ولا يعرف أحد إن كانت لها علاقات. أما أنتَ، فارتميت مدفون الرأس في مغامرة مستحيلة.

طلبَ جُعّتين ونظر إلى الفقاعات تصعد عبر الجانب الداخلي للكأس، يُقزّحها أنبوبُ النيون الذي ينشر شحوباً مُعقّماً كما في صالونات الحلاقة. كان العجوز يبصق بصوت مرتفع في منديله، ومن الباب المفتوح تظهر كلبة قصيرة بيضاء، يتدلى ضرعها حتى الأرض، تركض في الساحة الصغيرة، تطاردُها بِشَرهٍ مجموعةٌ من الكلاب الكبيرة الهائجة. تهادت شاحنةُ ركّاب صغيرة أمام العمارات دون أن تتوقف، فلمحَ الوجهَ الحاد للسائق الذي يبدو ملتصقاً بالزجاج، غامض الشكل، مستقيماً جداً، من دون ملامح، كما رأى وجوهاً أخرى جامدة بدورها، سوداء، مجردة. فكَّرَ أنا لا أستطيع أن أتكلم معكِ، لن أطيق أبداً خيبتك، غضبك، سيجارتك المشتعلة بسخط غير معهود، فمك المفتوح على أسنان سيئة تشتمني ساخرةً **أيها** البورجوازي المسكين البئيس احشُر شكوك في استك.

- لا، اسمعني قليلاً، وأجبني فقط عن هذا السؤال - ألحّت أمُّه وهي تضعُ بلطف الرماد في المنفضة - هل تعتقد أن طفليْك سعيدان؟ أجبني فقط عن هذا السؤال، عِدْني بشرفك: هل تعتقد أن طفليْك سعيدان حقاً؟ هل سبق لك أن زرت طبيباً نفسياً؟

يُفَكِّرُ أصغرهما يخاف من ركوب الزورق في كامبو غرانْدي، هل يكون هذا مرادفاً للقلق أم عرضاً من أعراض الاضطراب العصبي، إشارةً على شيء مزعج وخطير؟ يحاول أن يتذكر ذوق الطفليْن في مقهى أفيْرو لكن الصورة انفلتت منه في اللحظة بالضبط التي كان واثقاً أنه سيقبض عليها، فما لمحَ، بطريقة هاربة، سوى وجهيْن صغيريْن على ضفة البحيرة، وسط طيور البجع، والعشب، والسيارات، والباحة حيث تنتشر الموائد المصنوعة من الحديد المصبوغ التي كان يتردد عليها أحياناً في الصيف، كي يشعر برائحة شهير يوليو في خياشيم أنفه، تدوخه حراشيف الماء الزيتية. يُفكّرُ في الحقيقة، أنتِ لا تغفرين لي أنني لم أهبك طفلاً، بينما المرأة ترفع الكأس إلى فمها وقطرة زبد من الجعة تتدلى سخيفة من ذقنها كما يتدلى اللعاب من فم حصان عربة.

- ألا تشعُر بالبرد - سألتهُ ماريليا بحقد راكد على ما يبدو، صافر.

يُفَكِّرُ يستحيل أن تجهلي ما يدور في خلدي، لأنك كنتِ دائماً أذكى مني، كل شيء كان أسهل، أقل عناء مع توشا، أراهن على أنكِ تخمنين شكوكي، خوفي، هذا الشلل الذي يمزقني من الداخل. كان الليل على وشك أن يرخي سدوله على أفيْرو، وقد بدأت بعض يافطات المحلات تومض، وقريباً جداً سوف تشتعل أعمدة الإنارة في الشوارع، حيّاً بعد حيّ، مترددة في البداية، مقتصرة على خيوط

المصابيح، ثم تزداد قوتها، تنتفخ مثل بثور مضيئة، معلقة على علامات تعجب معدنية، فيختفي نهر فوغا في الظلام كأنه مستنقعٌ ضخم غمره الماء.

- كان بوسعك أن تُجنّبنا هذا الإذلال - قالت أمُّه بصوت خفيض جداً، لأن ماريليا، التي كانت تقودها الأخرى، كان من الممكن أن تعود في أي لحظة من الحمّام، وصوت الحذاء الخشبي لا يُسمع جيداً فوق سجاد الممر.

نهض والدُه عن الأريكة (أطلقت النوابض تنهيدة ارتياحِ قسٍّ يتجشأ)، فحص شعره الأشيب في مرآة ذات إطار مذهب، عدّل ربطة عنقه، وداعب خدّه بإبهام مستاء.

- أنا، ما يثير جنوني هو غلطة السياسة - همس وهو يرقب الباب بحذر. (فكّرتُ عندما كنتُ صغيراً كانا يتحدثان بالفرنسية). أن تتزوج في النهاية امرأة شيوعية لا تهمها القوانين مطلقاً.

- كل الناس يعرفون أن الشيوعيين ملحدون - أضاف كارلوس، مشبك الساقين، يبتسم بارتياح لجواربه الحريرية - قرأتُ في الكتاب من تأليف أحد أفراد «الشرطة الدولية للدفاع عن الدولة»[1] أنهم يعيشون مع بعضهم أو يفترقون لأتفه الأسباب.

يُفكّرُ إنني لم أحبك قط، أيها الوغدُ، لم أحب قط إعجابك السخيف بنفسك، جُمَلك القاطعة، فُحولتك المتعجرفة التي لا مثيل لها. في الثانوية، كان يسبقني بسنتين، واشتهر بتلك اللكمة التي

---

(١) خلال فترة الحكم الدكتاتوري كان لدى البرتغال تنظيم بوليسي للمخابرات ومطاردة المعارضة داخل البلاد وخارجها عُرف اختصاراً بـ (PIDE) أي «الشرطة الدولية للدفاع عن الدولة». (المترجم)

وجّهها، لا أذكر السبب، إلى معيد مختبر الفيزياء، شخص نحيف كان يعزف الكلارينيت في جوقة من الهواة. يُفَكِّرُ كسّرتَ خمساً من أسنانه ضربة واحدة وعند نهاية الفصل أرسلك والداك إلى ثانوية للرهبان، بعيداً عن العاصمة، خاصة بأبطال الملاكمة، وكان الناس ينظرون إليك من بعيد باحترام حذر. أما المُعيد، عازف الكلارينيت، الذي لم يعد قادراً على النفخ، فتحول إلى العزف على آلة الطبل، وتلقى تعويضاً عن مصاريف إصلاح فكيه، اختفى الرجل القصير النحيف قبل أن يظهر بعد بضعة أسابيع بقواطع جديدة، تهدد بالقفز من لثتيه تحت وابل من اللعاب كلما تكلم. جلستْ ماريليا على الأرض، شبكت ساقيها وراحت تمتص قرص برتقالة من الفودكا: التوى وجه أمي نحو اليمين في تكشيرة ولاحظتُ فجأة، لأول مرة، كم كان سروالُكِ بالياً، وقميصُكِ متآكلاً وقديماً. جلستْ أختي الموسيقية على كرسي بعيداً، تتصفح بهدوء دفتراً، غير مبالية بالأسرة. يُفَكِّرُ نوتات موسيقية؟ يُفَكِّرُ نوتات موسيقية؟ أبيات شعرية؟ أعرف أنك كنت تكتبين أبياتاً شعرية، ذات يوم عثرت بالصدفة على اسمكِ على غلاف كتاب جماعي يباع في تخفيضات المعرض، قصائد غريبة، كلمات منعزلة، جمل على شكل نجوم، لو علما ذلك هناك في البيت لأغمي عليهما. أو ربما ألفا قبح وجهكِ، جنونكِ الهادئ، تجرّدكِ الأبدي من كل شيء. ولربما كنتِ فعلاً الشيوعية الحقيقية في القبيلة، يا بطّتي الصغيرة العرجاء. لكنكِ كنت تعيشين مع والديْكِ، لا تخرجين في الليل إلا لماماً، ولا تزعجينهما بنزواتك الغريبة الصاخبة.

- جعة أخيرة من أجل الطريق - قال لماريليا - وأخرج من هنا معك. نسيت سترتي المبطّنة في النُّزل، بدوري بدأتُ أشعر بالبرد.

كانت الأضواء تشتعل في الخارج، مجموعات من الرجال ينتعلون أحذية رياضية وسراويل ملطخة بنقط من الكلس كانوا يدخلون ليتناولوا مقبلات الخمر لما قبل العشاء ويجلسون في القاعة على الكراسي المتعجرفة الثقيلة المتصلبة، تحت منقوشات مشاهد القنص ولوحات زيتية تمثل مناظر طبيعية إنجليزية. رفع الأعمى يده يطلب ماء حياة فبدا كأن أصابعه المترددة تُقيّم الفراغ. كان همسٌ بطيء من حديث يتلوى ويمتزج بالتأرجح الهضمي للساعة ذات الغطاء الصيني. المرأة التي لا عمر لها في المنضدة كانت تملأ كؤوس الأصهار فلاحظ ساقيها الأسطوانتين من دون كاحلين، مغروستين في خفّين، والكلب القصير المطيع الذي يشتم الدّوالي.

- أين التّونيك، سيدة ألميريندا - طلب الأعمى بصوت لا صدى فيه ولا نبرة وهو يبحث بمحجريه الفارغين عن القنينة الطويلة الشفافة التي ينبغي أن تكون (يفكّرُ) هي ضوء القمر في ظلامه.

- جعة واحدة - قلتُ - وبعض المقبلات من فضلك.

انحنى والدي نحوكِ بابتسامة حضريّة على وجه اصطناعي، من البلاستيك، لممثل سينمائي مسن:

- إذن، ماذا تُدرِّسين هناك في الكلية؟

مرت السيدة ألميريندا بينهما تحمل كأساً في يدها ففكّرتُ لم يتوجه إليها بنية الحديث معها، بل ليسخر منها أمام الآخرين. يُفَكِّرُ ابتساماتهم تلسكوبات قذرة وسامة. كان فم أخته شبه المفتوح حيواناً رخوياً لاحماً، مقززاً. قدّم كارلوس ناراً لأمي فانحنى عامل مسن نحوه، بيد مقعرة نحو شفتيه، أشعل سيجارة لنفسه أيضاً ثم احتفظ بالولاعة الذهبية في جيب معطفه. يُفَكِّرُ المصابيح الخزفية، العلب الفضية، غياب الغبار. يُفَكِّرُ في موائد اللعب الموضوعة في الصالة،

في الهمسات، في الصيحات الصغيرة، في الضحكات الحادة لصديقات أمه، في المنافض التي تطفح بالرماد، في الدخان الذي يحوم، جامداً، قرب السقف. كانت المرأة الصهباء، ممددةً على الأريكة، ترفعُ جواربها السوداء وتبتسم له في فتور: صدرها يهتز وينزل بلطف، ينشر من حولها البخور الحكيم لجسدها.

- الثورة الفرنسية؟ - قال والدُه مندهشاً، وهو يعدل شعره بكف يده - ولِمَ لا، لو سمحتِ، الثورة البرتغالية؟ لقد حدثت ثورة في البرتغال، ثورة الشيوعيين، أليس كذلك؟

- إنها الأخيرة - قلتُ بحركة اعتذار - إنني أحب مذاق هذه الجعة.

كان الرجال الذين ينتعلون أحذية رياضية يتناولون فطائر بسمك القدّ، حبات قرع مملحة، أصدافاً بحرية صغيرة عادية يبصقون قشورها على الأرض بعد مضغها في لامبالاة صامتة. البردُ في الشارع وحرارة الأنفاس كانت تشكل مزيجاً غريباً تطفو فيه شظايا أصوات متنافرة، وميض تلفاز فوق رفّ، أصوات تجشؤ تشبه تهديدات إطارات مطاطية تفرغ هواءها. لا بد أنه لم يكن هناك أي صياد فوق الجسر، وكان يستشعر في الخارج الليل الشاسع الأخرس وهو يتفحصه عبر زجاج النافذة. كانت الجعة تجمد عظامي بمذاقها المُرّ، فتجعلها ثقيلة، كثيفة، عاجزة عن التحليق، ثم فكَّرَ لم أعد طائراً بكل تأكيد، لقد تجمدتُ في وحل أفيْرو وطينها، مثل القوارب عديمة الفائدة، التي لم يبق منها غير هيكل العوارض الخشبية التي نخرتها رخويات الحبار وبلح البحر. فكّرَ لا أرغبُ في مغادرة هذا المكان، أن أحرك حتى إصبعي الصغير، أشعر بحركة ذهاب وإياب الدم في أطرافي، وهذا الركض القلق في عروقي. كان طبيبُ التوليد

يحكُّ مفكراً بثرة على جبينه، أختي الكبرى ترفعُ تعبيراً ساخراً وغبياً تحت النظرات الغامضة للعمال.

- لماذا لا تَدْرُسون الثورة الشيوعية التي حدثت في البرتغال في أبريل من سنة ١٩٧٤؟ - تابع أبي وهو يلصق شعره على صدغيْه في غضب متزايد - لماذا لا تُدَرّسون الطلبة كيف يُخرّبُ بلدٌ بقوة التصرفات الصبيانية وسوء التدبير، وكيف يتم التخلص من المستعمرات بركلة واحدة، وكيف يُسمحُ لكلاب روسيا أن تنبح في ساوْ بينْطو[1]؟

يُفَكِّرُ احمرّ وجهُه غضباً وسخطاً صادقاً. يُفَكِّرُ إنه غاضب بسبب وجود النقابات، والإضرابات التي منعته لفترة من الوقت من ممارسة أعماله التجارية. وأمُّه التي تشتكي بمرارة من صعوبة الحصول على خادمات. وأنه لا يوجد ولا بستاني واحد يستطيع أن يعتني بالعشب كما ينبغي.

- سيدة ألميريندا - طلب الأعمى وهو يرفع ذقنه في الهواء دون أن يتوجه إلى أحد - أحْضِري لي بيضة مسلوقة وكأسين من النبيذ الأبيض.

أختُه الموسيقية صاحت من عمق الصالة:

- بابا

لكن العجوز كان قد شرع في خطاب قوي حول منجزاتنا الحضارية في أفريقيا، حول قرون من العمل الجاد، من الموهبة والدم الذي وهبناه سدى لزمرة من الزنوج القذرين، حول الانزلاق الحتمي لأمة مزدهرة فوق حافة لزجة من الانهيار، تساندُه في ذلك زوجتُه التي كانت تشدد على أهم المقاطع وهي تهمهم باستياء:

---

(١) قصرُ ساوْ بينْطو في لشبونة هو مقر الجمعية الوطنية البرتغالية. (المترجم)

- إنه لخزْيٌ حقيقي.

مصابيحُ أعمدة الإنارة التي يلمحها من الباب كانت الآن تسبح من دون ثقل، جامدة في الليل، بعض النوافذ تنفتح هنا وهنالك، معلقة بدورها في الظلام، يحجبها قليلاً ضبابُ النهر. وشيئاً فشيئاً، كان العمال يتركون مكانهم لأولى السكارى، البطيئين بشكل محموم، كان مصباح السقف يجذبهم مثل فراشات كبيرة رثة الثياب. اتكأ أحدهم على مسند أريكة كارلوس فراح رأساهُما، المتسخان والنظيفان، الفظان والرقيقان، يتأملان بعضهما، بسخرية، من دون تأثر، قُطْبان متعارضان فوق مائدة الشرب. أخرجت ماريليا سيجارة برتغالية خفيفة من حقيبتها من الخرزات معلقة إلى عنقها بواسطة حبل صغير ثم أشعلتها دون أن يمد لها الولّاعة أي أحد في الصالة. اشتعل النور في الباب الزجاجي لقاعة الأكل فجأة فرأى الخادمة تحضّر المائدة (سكاكين وشوكات وملاعق فضية، كؤوس بلورية، وأواني خزفية ذات لون لبني لامع)، فتاة شابة شقراء تتحرك بصعوبة فوق كعب حذاء عال. هناك كانت النُّسخُ الرديئة التي أنجزها رسامون قدامى، عيون سائلة لقديسين شبه عراة لطالما أفسدت عليه حلويات النّفيخة أثناء المراهقة، الجرس الذي يشبه تنورة بدوية واسعة كانت أمُّه تستعملها لإصدار أوامرها التي لا تُردُّ. يُفَكِّرُ عشرون سنة ونيّف من وجبات الأكل المتصنّعة، والخطابات المتسلطة، والغياب عن دروس آداب اللياقة التي تليق بالكلاب.

- هل تمّ تأميم أي واحدة من شركاتك؟ - سألت ماريليا والدي بكل هدوء - هل أجبرك هؤلاء الشيوعيون الأوغاد على العمل ساعي مكتب؟ إنه عمل سهل، أتعرف، كان عمي يقوم بذلك في إحدى المؤسسات البنكية.

أخذتُ جرعة أخرى من الجعة، وبقيتُ أرقبكِ بطرف عيني: خرساء، جامدة، متوترة، تنظرين إلى الباب بقزحيتين جريئتين ومنهزمتين: ستتحملين ذلك حتى النهاية، ستظلين هادئة في جحيمكِ. يُفَكِّرُ اللعنة لأنني عاجزٌ، اللعنة لأنني لا أستطيع أن أرقى إلى مستواكِ. أخذتِ قطعة مقبلات في صحن بلاستيكي، كسرتِ القشرة الصفراء والبيضاء بأسنانك، رميتِها بدقة احتقار فوق السجاد، تحت النظرات المنذهلة والمستاءة لأخواتي. يُفَكِّرُ شئتُ أم أبيتُ أنا متعلق بهذه الستائر، بهذا الأثاث، لهؤلاء الناس الذي لا يدركون أن شيئاً ما قد تغير بشكل نهائي، لا رجعة فيه وأنهم سيغرقون في النهاية في بُحيرات سجاداتهم من محلّ أرّايولوش، متشبثين بمجد ورقي فقدوه.

- إن جئت، يا آنستي، تطلبين وظيفة كاتبة على الآلة في مكتبي، من المحتمل أن أشغلك إن كنت حسنة المظهر وتتمتعين بالكفاءة اللازمة - ردّ والدُه بشرارة غضب صغيرة في عينيه وفمه - ويمكنك أيضاً أن ينتخبوك مفوضة نقابية إن رغبت في ذلك: لكن، اليوم، كما ترين، أصبح الوضع تحت سيطرتنا من جديد، وصار الشيوعيون خاضعين للنظام: خلال خمسين عاماً، لم نسمح للأعشاب الطفيلية أن تزعجنا، تعلمنا كيف نتعامل مع ذلك.

خطا خطوتين أو ثلاث خطوات حازمة فوق الموكيت، تأمل مرة أخرى تسريحة شعره في المرآة، تقدم نحو السيدة الصهباء التي كانت تلوح إليه بإشارات فاترة من الأريكة وخواتمها الضخمة تتلألأ (أقراط طويلة مثل ذوائب الثُّريا تتأرجح في احتكاك بعنقها الطويل) وعانقها بينما حذاؤه المبرنق يدوس في الفراغ. وكان سرواله المنكمش إلى أعلى على شكل أكورديون يسمح برؤية جوارب رمادية وشاطئ من الجلد الأجرد، بلون الأخطبوط، على الساقين. كان ظلُّ الخادمة

يذرع الصالة جيئة وذهاباً، توزع المناديل (يُفَكِّرُ لم تتمكني بعد من الحصول على الخاتم، يا ماريليا) بينما أنينُ الرجل العجوز يزداد قلقاً وسرعة. يُفَكِّرُ هل أساعده لفكّ الحزام، وإنزال لباسه الداخلي بالأزرار من الطراز العتيق؟ فتذكّر كاشْياش[1]، وعملية تحرير المعتقلين السياسيين التي شاهدها على التلفاز، وتذكّر حركاتهم من فوق الشاحنات العسكرية، غيرتهُ لأنه لم يكن بطلاً، لأنه لا يرتدي زياً عسكرياً، وأنه لم يحرر أحداً. تذكّر فاتح مايو، والأغاني، والصيحات، وفرح الناس في الشوارع: كنا طاهرين وقتئذ، يفكّرُ، حتى أنا كنتُ طاهراً، قبل وبعد ذلك كنت هراء، لكن ليس يومئذ. سافر والداهُ إلى البرازيل في الأسبوع الموالي، وعادا سنتين بعد ذلك بابتسامة انتقام ماكرة، أمر كارلوس بإغلاق واحد من المعامل، انتهت الانتفاضات، أرسل والدُه مجموعة من الحراس ليحاصروا بضربات الهراوات تجمعات العمال، صهري طبيبُ التوليد دخل السباق من أجل مقعد في البرلمان باسم حزب مغرق في المسيحية. كانت توشا تذهب إلى المظاهرات ترفع العلم وتصيح ضد الاشتراكية وسط صديقاتها.

- لو كنتُ مفوضة نقابية - قالت ماريليا وهي تلعب بسوارها الفظيع من جلد الفيل - هل سترسل حراسك ليشبعوني ضرباً؟

يُفَكِّرُ العشاء لا يطاق، اللحم المشوي الذي لا يمر عبر الحلق، أمُّه التي تبحث عن أقراص في علبة أدويته الصغيرة، ضحكة التعالي المزعجة التي يطلقها والده.

---

(١) سجن قرب العاصمة لشبونة كان النظام الدكتاتوري يضع فيه المعارضين الذين عانقوا الحرية مع اندلاع ثورة القرنفل سنة ١٩٧٤. (المترجم)

- هيا، بحق السماء، صديقتي، لدينا طرق متحضرة لحل نزاعات الشغل: يمكن اللجوء في رمشة عين إلى التسريح لسبب وجيه.

يُفَكِّرُ كم من الوقت دام ذلك الخزي، ذلك العذاب؟ كان الحساء لا ينقضي، مستواه لا يكف عن التزايد في الملعقة، حبات الرز تتكاثر في الصحن، النبيذ كان له مذاق حامض الكبريت، السلاطة مطهية، يستحيل مضغها، تتلوى في الخدين. علينا أن نذهب: الحافلة الأخيرة تنطلق على الساعة الحادية عشرة والنصف، وسياراتهم، هناك في الخارج، رابضة عند قارعة الطريقة، تستعرض أسنان مداخنها الكبيرة من معدن الكروم. يُفَكِّرُ البوابة، الأضواء المشتعلة، نباتات البقس المقطوعة بعناية، أختُه الموسيقية، بوجهها المتأثر الخائف، تقول لهم وداعاً عند البهو.

- لا يمكن أن نقول إن كل شيء قد مرّ على ما يرام، أليس كذلك؟

عادت السيدة ألميريندا لتخدم الأعمى ثم تحصنت خلف المنضدة لتتحدث مع السكارى العنيدين الذين يجعلهم الخمر لاذعين ومصممين.

- رأيتُ البؤس الذي يعاني منه الرُّوس البؤساء - قال الأب - التسلية الوحيدة المسموح بها هي زيارة مومياء لينين: ينتظمون في طابور، أترين، من أجل ذلك العرض السينمائي الجنائزي.

- المساكين - قالت الأم مع تنهيدة وهي تأخذ قسطاً من الحلوى.

يُفَكِّرُ الحلوى التي كنتُ أحبها، الحلوى البافارية لطفولتي، البقايا التي يُحتفظ بها صلبة في الثلاجة، وتأكلها أصابع الطبّاخة

الخفية، خلسة. يُفَكِّرُ لقد حضرتْها لأجلي، أكيد أنها حضرتْها لأجلي، ربما كانت ما تزال تحتفظ بأمل أنني لم أكن منحلاً تماماً لأنني ابنها رغم كل شيء، أليس كذلك، ثمة دائماً شيء يمكن أن يتعلق به المرء. أختُه الموسيقية بقيت عند الباب لتقول لهما وداعاً، فامتزجت بالبوغانفيليا وشجيرات الورد البرية، بينما كنا ننزل عبر الشارع نحو موقف الحافلة: وقتها لم نكن نملك بعد سيارة «دايان»، لم يكن لدينا ما يكفي من المال لتسديد الدفعة الأولى، كنا نوفر كل شهر مبلغاً هزيلاً، ربما يكون ذلك في شهر أبريل، يا ماريليا، ربما في شهر يوليو، يبتسم بائع السيارات، يدور، يبالغ في الانحناء متنقلاً من نموذج إلى آخر، مُفْرطاً في الخدمة، منعكساً، متعدداً، مشوهاً في المرايا، في الزجاج، على المسطحات المعدنية، في البريق المقعر للصباغة الجديدة، يرفعُ الأغطية، يشرح المحركات، يشير بتباه إلى مساحة صندوق الأمتعة، يقطّب حاجبيه أمام البونْشو الذي ترتدينهُ، حذراً ومبتهجاً، وقّعتُ الشيك واقفاً، منحنياً على مكتب تغطيه الوثائق، **هل** يمكن أن نأخذها حالاً؟ سألتْهُ ماريليا، وسرعان ما يصبح الآخر وقوراً، لا، هو آسف جداً، غداً أو بعد غد، مجرد إجراء شكلي بسيط، ينبغي إتمام الملف، القيام بفحص أخير للسيارة، ربت على ظهري بضربة كف صديقة إننا لا نريد بعد ذلك أن تقوم بدعاية سيئة لنا، هل فهمت؟ التقط الشيك بإصبعين، بسطهُ بنظرة معبّرة أمام فتاة شابة كانت تبدو منشغلة جداً تتصفح بإبهامها الأيمن كومة من الرسائل، وعدهُما أنه سيضع السجاد مجاناً في السيارة حتى يعوضهما عن احترازه بينما كانت مساعدته تتصل بالبنك لتتأكد من الشيك، كانا يسمعان بوضوح صوتها وهي تسأل البنك، كانا جالسين في ركن أمام منضدة صغيرة تغطيها المجلات، فأومأت الفتاة برأسها

مؤكدة، **هيا بنا إلى المحلّ**، قال البائع، ربما تكون مصالحنا قد قامت بمعجزة، كان يرميني بغمزات، منزلقاً شيئاً فشيئاً نحو ألفة مزعجة، نزلنا نحو ما يشبه مرآباً ضيقاً حيث رجال ببذلات عمل نظيفة كانوا يمررون خرقاً متكاسلة على مساحات صقيلة، لامعة، شخص أصلع، يرتدي ملابس مثل الآخرين، ويقرأ جريدة داخل قفص من زجاج، تحدثَ مع البائع الذي أشار إلينا بذقنه، وجَّه أمراً سريعاً إلى أحد الرجال، سبقنا حتى بلغ سيارة بلون القشدة، كانت وسط مجموعة من الشاحنات الصغيرة، نزل عليها البائع بضربتين أو ثلاث ضربات إعجاب، **إذن، هذه هي سيارتكما الفائقة السرعة، إنها رهن إشارتكما، أيها المحظوظان**، ثم وقّعا مزيداً من الوثائق بينما كان العمال ببذلات العمل يبعدون الشاحنات الصغيرة، مدّ لهما الرجل المصاب بالزكام المفاتيح بلا مبالاة مملة، جلسنا بداخلها جنباً إلى جنب، كمن يجلس فوق كرسي عرش، جرّبتُ مُغيّر السرعة، الدواسات، الأضواء الخلفية، **هل كل شيء على ما يرام؟** سأل البائع في عجلة منزعجة، كان يُرى جزء من الشارع هناك في الأعلى، عند قمة طريق منحدر، أشخاص يمرون بسرعة في الشمس، الجزء العلوي لحافلة، ضجيج المدينة المعتاد، عدّل المربع الصغير للمرآة العاكسة وهو يُفكّرُ، أنتِ ملكي، ونظر بتباه إلى ماريليا، شغّل المحرك، انتقل إلى السرعة الأولى، أطلق المكبح اليدوي، رفع بسرعة قدمه عن القابض، فتلعثمت السيارة، اهتزت أربع مرات بصوت فظيع لعلب تنبعج، تتلوى، تنبطح، لتصطدم بزاوية من الجدار. عندما فتح البوابة، دائخاً، كان البائعُ، ومؤخرته على الأرض (هل دهستُ هذا الشخص أيضاً؟)، ربطة العنق عند ظهره ومعطفه ينزل متدلياً من كتفيه، يحدق فيه، مجنوناً من الغضب، وقد

تقشر تماماً برتق لطفه، يدمدم بين أسنانه **الوغد** الخسيس بينما العمال ببذلاتهم الزرقاء، مندهشين تماماً، يقتربون ببطء من سيارة «ذيانْ» التي تحدّبت كأنها قنبلة لم تنفجر.

غمرت التلفزة فجأة المقهى الصغير بنغمات مسيرة، وجه مشع أعلن عن برامج اليوم الموالي، يُظهرُ من حين آخر أمام الكاميرا أسناناً غير متساوية يبدو أنه يبرز منها من حين آخر مخروط ضوء أزرق كان يلقي على الأرضية مُعيّنات شاحبة تتحرك.

- والدُكَ وغدٌ - قالت فجأة بعنف أثار دهشته، وهو مستند إلى عمود محطة حافلة النقل، في ليلة دافئة، معروفة، معتادة، في شوارع لابّا. يُفَكِّرُ كان عمري أربع سنوات أقلّ وقتئذ، اللعنة، ويبدو أن ذلك حدث قبل عدة قرون. لو أنّكِ تكهنت بما كنتُ أشعر به من خجل، وكم كنت متضايقاً، منقسم الأحاسيس، لطردتني ولقمت بنقدك الذاتي في الاجتماع المقبل للحزب: أعترفُ أنني تعلقت بشخص بورجوازي، وأعترف أنني أهملتُ الطبقة العاملة لعدة شهور.

- ليس والدكَ فقط - أضافت في دوامة من الغضب - بل أيضاً أمّك، أخواتك، أصهارك، كلهم قذارة. كلهم أوغاد. كانت تضع خاتماً فضياً منحوتاً في الإصبع الأوسط من يدها اليسرى، شفتها السفلى ترتعش من الإهانة، والحرج، والغضب. هل تكونين ذهبتِ إلى المغرب من دون مال، تخيمين هنا وهنالك مع مجموعة من الأصدقاء القذرين الملتحين، تحملين حقيبة ظهر، تهدون بعضكم بعضاً حلياً في وقار من ميثاق الدم؟ كنا نعرف القليل بعضنا عن بعض، يا ماريليا، لم أسألك قط عمن كنت تعاشرين من قبلي ومع ذلك أتكهن بهم خلف عينيك عندما تصيرين وقورة شاردة، هؤلاء الشبان النحفاء، الشاحبون، من هواة السينما، أكثر أهمية في عينيك

مني، تلك الفصول من الصيف التي قضيتموها في فُونتي دي تيلْيا تُناقشون ستندال، هؤلاء الأشخاص الذين يشتغلون في الإذاعة أو الجرائد ويهمسون لك اعترافات لا تنتهي أثناء وجبات العشاء في الحانات، في بايْرو آلطو[1]، طبعاً في ترينيدادي، طبعاً في الحانات حيث اليسار يثمل بشرب الجعة، طبعاً، مشاريع عظيمة، غير قابلة للتحقيق، مجلة ثقافية، كتاب جماعي، حركة موحدة للمقاومة والنضال. كان الصحن الممتلئ بالقشور يثير اشمئزازه، الأصوات المحبطة والعنيدة تثير اشمئزازه، الليل، هناك في الخارج، الذي يبدو أنه يخفق على إيقاع نهر فوغا، يثير اشمئزازه، جسدُكِ المتوتّر بكتفيه الضيقتين، الذي ينتظرُه، يثير اشمئزازه أيضاً ويثير قلقه. يُفَكِّرُ أخرجُ، أدخلُ إلى السيارة، أعودُ إلى النّزل على الطريق المظلمة، المهددة، وسط أشجار الصنوبر. لا بد أن الأسرة تابعت حديثها بعد ذهابهما، لئيمةً، مستاءةً، غاضبةً، أُمُّهُ تتنهد سيجارة تلو سيجارة وتتلفّظ بكلمات استشهاد خنوعة.

– اضطرّ والدُك ليتناول قرصاً مهدئاً للتوتر نظراً لما شعر به من انزعاج.

يُفَكِّرُ **الضغطُ** الدموي لوالِدي كان في قلب انشغالات القبيلة وعنايتها، النقطة التي نتلاقى فيها جميعاً على عجل، يخيفنا احتمال إصابته بنوبة قلبية، **اليوم** بلغ ١٧، **اليوم** بلغ ١٤، كان ممرض العيادة متعددة التخصصات يأتي زوالاً ليراقب شخصياً صعود أو نزول ذلك العمود الزئبقي في الآلة، يضغط، وسماعة طبلية في أذنيه، ليمونة

---

(١) حي عتيق وسط لشبونة، معروف بحاناته وأنشطته الليلة التي يلتقي فيها الشباب. (المترجم).

مطاطية، والدي، يرتدي قميصاً، كمّه الأيمن مطوي، يخفض بقلق جفنيه، كانت تلك هي المناسبات الوحيدة التي رأيتُ فيها شيئاً آخر من جلده غير وجهه ويديه، ساعدُه مشعر، بلون بطن ضفدع، تشد مرفقه عدة لفات من الحبل المتدلي من الآلة، هشاشةُ جسدكَ الخاصة. الممرضُ يجمع من جديد معداته فيما يشبه القراب، ويتلقى في الممر ظرفاً من يد أمي، شكراً سيد فالديمار، إلى الغد، يختفي في الحديقة مرتبكاً في التحية المحترمة فتبقى أنت في المكتب، عجوزاً، وحيداً وسط رفوف الكتب، خصلات شعر شيباء شعثاء على صدغيْكَ، تفتح وتغلق يدك بتكشيرة بلهاء. بمناسبة عيد ميلادكَ، أهداك أصهاري معجزة يابانية تقيس الضغط وحدها، يوضعُ ما يشبه قطعة نقدية على المعصم، يتم الضغط على زرّ يُحدثُ طقطقة حادة فتظهر أرقام مضيئة على لوحة صغيرة كلوحة ساعة، يمكن حملها في الجيب، وضعها في درج السيارة وعند إشارة الضوء يمكن التأكد إن كان الضغط قد انخفض أو ارتفع، كما يقدم رسومات بيانية، تحسب المعدلات، يناقشُ مع الأطباء، يعرفُ حق المعرفة كل الأدوية، كل أنظمة الحمية، كل الأخطار، يتحدثُ لساعات وساعات، بوجهه يتوهج حماساً، عن الجلطات وحالات الانسداد، يتطوعُ لقياس ضغط كل الناس، كان يستدعي مستخدميه إلى المكتب، يأمرهم أن يخلعوا معاطفهم ويعروا عن قبضات أياديهم، ليُطبّقَ عليهم أعجوبة التقنية الشرقية، يسجل مستوى ضغطهم على قطعة ورقية ويجبرهم على تقبّلها، خذ هذا واحتفظ به للمرة القادمة عندما تذهب لزيارة الطبيب ولا تنس أن تعرضه عليه، يمكنك أن تقول له إنني أنا من أخذت هذا القياس، كان يتصل أحياناً بالبيت وسط الظهيرة ليخبرهم مزهواً أنزلتُ الضغط من ١٨ إلى ١٧، يقطع اجتماعات، يوقف

لقاءات ووجبات عشاء كي يتأكد من قوة دمه، ذات مرة أجبر وزيرَيْن وثلاثة نواب برلمانيين، منزعجين وغير مصدقين، أن يمدوا له سواعدهم بينما كان الحساء يبرد فوق المائدة، لا تنتظرونا يا فيرناندا سوف نصل قريباً، حتى خلال فترات الاستراحة في السينما، تقول أمي، كان يذهب إلى المراحيض ليضغط على الزرّ، أمام اندهاش السحّابات، ثم يعود فرحاً أو عبوساً حسب النتيجة، ينتصب أمام المبولة، مفرشخ الساقين، وبدل أن يتبوّل، كلاكْ. كلا، لم يكن مجنوناً، كان يقول أفراد الأسرة، كان هكذا، يتحمس للأشياء، كانت هناك مثلا فترة القطارات الكهربائية، أَغرقَ قاعةً بالسكك الحديدية، علامات التشوير، والمحطات، فجّرَ الصمامات الكهربائية عدة مرات، كان يدعو أصهاره لقيادة القاطرات السريعة وفائقة السرعة، يغضب لخرقهم، يشتم كل واحد وذات يوم، فجأة، أتعرف، لا يثير ذلك اهتمامه، فيعود ضجراً إلى التلفزة وإلى جريدته، أهدى تلك الكومة من الخردة التي كانت تبصق شرارات مظلمة من التماس الكهربائي (نبقى في الظلام، صامتين، ننتظر) إلى فقراء الأبرشية، عربة ركاب إلى هذا، عربة سلع إلى ذلك، محطة قطار إلى هذه الأُسرة الغارقة في الفقر، المسكينة، استمتعوا إذن وسنة سعيدة، ثم جاء صيف أحذية التزلج، فكان يذهب إلى المعمل فوق أحذية التزلج، على الرصيف، يتبعهُ السائق عن قرب في سيارة جاغْوار على بعد ثلاثة أمتار وأمرَ بتبليط مدخل المعمل بالإسمنت حيث يرتفع التمثال النصفي لجده فوق قاعدة من الغرانيت، عند الصباح كان للعمال الحق في ساعة من الحرية شريطة أن يتزحلقوا في اتجاه عقارب الساعة حول البناية الرئيسية، وكان هو بنفسه يقدم دروساً للمبتدئين أو يدور حول نفسه حتى يلتصق شعره بصدغيْ رأس عضو

متردد من أعضاء هيئة التسيير، يوافق على ترقيات مستخدميه وفق براعتهم في الانطلاقة أو الفرملة، وقد انتقل أحدهم من فتى مهام إلى رئيس مصلحة لأنه كان يقفز فوق ثلاثة مقاعد في المطبخ ليصل إلى الجهة الأخرى، كما انتقل شخص آخر من كاتب إلى مدير بيع لأنه حطم الرقم القياسي للسرعة بين موقف السيارات والمقصف، أصبحت مباراة الولوج إلى المعمل تتضمن اختبار سباق متعرج عبر غابة من قناني الجعة الفارغة كان يشرف عليه شخصياً، وجهاز ضبط الوقت في يده، وفور خروجنا من مرحلة أحذية التزلج مررنا بالمرحلة الفظيعة للصُّبار، كنا نحمل على الدوام في جيوبنا قوارير صغيرة من المُطهّر وملقاطاً لإزالة الشعر وانتزاع الأشواك التي تنغرس خادعة في الجسد، كانت كل غرف البيت تبدو كأنها قد غزتها قنافذ غاشمة تخترقُ أشواكُها مساندَ الأرائك لتنغرز بانتظام أكيد في الأرداف، ناهيك عن الفترة المشهودة لصغار التماسيح في الحمام، التي كانت تجرجر أحجامها المعدنية فوق البلاطات، وتفتح مثل مقصات فكوكها القشرية المجعّدة بأسنان حليب يبلغ طولها متراً نزل واحد منها عبر الأدراج متدحرجاً حول نفسه وتمسّك بساق الخادمة التي كانت تقدم الأكل على المائدة، سمعْنا آي، آي، آي، آي، آي، آي، آي، آي، بينما كان ينزلق السنْبوسَك، والأرز ومرق البيشاميل على البذلة الجديدة، ذات الخطوط الزرقاء، التي يرتديها طبيب التوليد، واحترازاً أخذتُ أتبول في الحديقة، حتى بدأت أزهار الغرنوقي في الأصص تفوح برائحة الأمونياك، **ما بها هذه الأزهار**، كانت تتساءل أمي حائرة، ألا تجدون رائحتها غريبة، كان الناس يبتعدون من الأصونة مشمئزين، صديقاتها في لعب الورق كن يطلبن منها أن تفتح النوافذ، حتى في فصل الشتاء، **إنه بسبب حرارتي، هل فهمت؟** هذا

ناهيك عن مجموعة هائلة من رؤوس الجيفارو التي تُفتح دون أن يلمسها أحد، في عز الليل، من دون الحديث عن ولعه بأطقم الأسنان الاصطناعية، التي يبدو أنها لا تصطك سوى فكوكها البلاستيكية في فترات الأرق عند الشفق، بل كان يذهب ليسأل في الشارع المارة الذين يدركهم، **هل** يزعجك أن تُريني طقم أسنانك، فينظر إليه الناس باندهاش ويبتعدون بسرعة، ربما لم يدم هوسي بالطيور سوى لوقت قصير، وأنني أنا من يستمر في التفكير في هذا الأمر طوال حياتي، أتذكر كتباً وألبومات طوابع يغطيها الغبار داخل حقيبة مغلقة بالمسامير، منسية في العلية، طيور أبو الحنا، ببغاوات صغيرة، عصافير، نوارس، وبوماً محشوّاً فوق غصن شجرة ينظر إلينا بجفنين مُتهلّسيْن من فرط الأرق، أبوكَ وغدٌ، أمُّك حقيرة، أخواتك وأصهارك أوغاد من الطراز الأول، نام الأعمى، ذقنه على صدره، يشخر عبر المزامير السميكة لشفتيه، **ربما** لا يملك أين يأوي، قال لماريليا وهو يشير إليه، ربما لا يعرف ما يصنع بحياته العاهرة التي يعيشها، ثم فكّرتُ **لا** بد أنك تتصورين أنني أريد المنزل لي أنا، وأنني سأرسلكِ إلى بيت والديْكِ، كان أحد السكارى، ماشياً على أربع فوق الأرضية المتسخة، يستفز كلبة السيدة ألْميريندا بنباحه، لثتاه البنفسجيتان ترتفعان وتنخفضان، **واوْ**، واوْ، واوْ، كان السكير ينبح وهو ينزلق فوق النشارة وبقايا القشور، دفعته السيدة ألْميريندا بخفّها، ففقد الرجل توازنه، تشبث بساق أحد رفاقه الذي يرتدي بذلة ساعي بريد وانهارا معاً في اصطدام مبالغ مثل ارتطام بهلوانييْن، **تعتقدين** أنني أريد المنزل لي أنا لكنني أنا من سيغادر شقة شارع أزيدو غْنيكو، لأنني اكتشفتُ للتو مع هذه الجعة الأخيرة موهبتي كمهرج جوّال، سأقتني آلة أكورديون وسأعزف منتقلاً من قرية إلى أخرى،

سآخذ الأعمى معي، وسنكون سعيدَيْن، أبوهُ، شاباً، وضعه على حافة البئر، ووجهه الخالي من أي تجاعيد يبتسم له بحنان، **كان** مضطراً لأخذ مهدئ التوتر لأنه كان غاضباً جداً، كان ظل شجرة التين يلمس جبينه بما يشبه هالة ضوء بينما رجال يرتدون سترات ينزلقون متزلجين من خلفه، حلّقت الطيور منحرفة نحو الغابة في تشابك من اللفات المختلطة، **أما** زلتَ تريد أن أشرح لك الطيور؟ سأل الرجل العجوز ضاحكاً وهو يلصق خصلات شعره البيضاء النادرة على صدغيه، **سوف** أشتري الجريدة، فكّرَ، ثم وضع علامة بلون وردي على الغرف المخصصة للكراء، لوسيانو كورديرو، كامبو دي سانْطا، مارتين مونيش، بينفيكا، غرفة مع حمام خاص في بيدروسوش، غرفة خادمة في ألكانطارا، شقة بثمن كراء زهيد في ألْفاما، سوف نقتسم المنقوشات والكتب، سأكتري شاحنة لآتي وآخذها، وبعد ذلك، ربما، عندما أشعر بالوحدة وأنظر إليها، سيجلب لي كل ظهر من ظهور الكتب نفحات حنين فيبدأ الماضي بالأبيض والأسود يزدان بالألوان، جسدُكِ على السرير، تشنجاتكِ، رائحة عطركِ، عاداتكِ اليومية البسيطة، الحافلة نحو الكلية، الدجاج مع البطاطس المقلية أثناء وجبات عشائنا يوم الأحد، ربما سأبدأ في حبكِ ما إن أفقدك، أكلا في النهاية كبداً مقلياً سيئاً في الحانة الصغيرة المقفرة، كانت السيدة ألْميريندا تعد المداخيل خلف المنضدة، تبلل بلسانها الرأس الجموح لقلمها، **كُلُّكم** أوغاد، قالت ثم انهمرت دموعها، برزت الحافلة عند أقصى الشارع تقفز فوق عجلاتها الضخمة، لفَّ بذراعه كتفيْها لكنها تملصت منه بغضب دغْني وشأني، **تبّاً** لك، دغْني وشأني، **تذكرتان** إلى كامْبو دي أوريكي طلب من السائق، ماريليا، أنفها يلتصق بالزجاج، كانت تلاحظ بانتباه

مبالغ العمارات والشوارع التي تمر نحو الخلف، صغيرة وهشة ويائسة تحت لباس البونْشو الأحمر، إنكَ لم تعد تهتم بالطيور يا أبي، اتّهمتُهُ، إنك لا تهتم سوى بالأرقام، والتوقيعات، والرسائل، والأسهم، والموثقين، بهذا النوع من الأشياء، اصعدْ إذن إلى العلية، لترى الألبومات تتعفّنُ، لترانا نحن نتعفّنُ، أكلْنا ثلث الكبد، شربنا قهوة مثقلة بالثفل، خرجنا نبحث عن السيارة وسط عتمة الساحة، سكيران مستلقيان على مقعد ينامان الواحد جنب الآخر بلا مبالاةِ عاشقيْن قديمين، هيا تعال كي أقيس ضغطكَ، أمرهُ والدُه، فاقترب على مضض من الآلة المهيبة، كانت صلعة العجوز تلمع تحت عمود الإنارة مثل كرة مصقولة، وظهْرُ يديه منقط ببقع بُنّية لسنواته السبعين، أصابعه ترتعش، لن يكون قادراً على أن يحمل بين ذراعيه أياً كان، يُفكّرُ، لم يعد يهتم بالضيعة، لم يعد يهتم بأي شيء باستثناء معامله ونوباته القلبية، وصلت ماريليا إلى البيت، خلعت لباس البونْشو، خلعت حذاءها الخشبي، ارتمت على السرير وأدارت لي ظهرها، قطّعتُ واحداً من أربطة الحذاء، رميتُ جزءاً من القطعة التي بقيت بين يديّ، اطمئنّي، بحق السماء، لن نعود أبداً إلى هناك، أنا لم أختر العائلة التي هي عائلتي لكن هذا الأمر انتهى وأعدكِ بذلك، كان البرد والرطوبة يتبلوران في أشجار الساحة على شكل عدد لا يحصى من الإبر الدقيقة الهشة، لن تمطر مرة أخرى أبداً وأفيْرو ستُبحر إلى الأبد في الضباب مثل سفينة من دون دفّة قيادة، بشوارعها غير المتناسقة، وكالاتها البنكية، مخابزها البعيدة وساحاتها المقفرة، داخل صيدلية مضيئة رجلٌ شاب يرتدي معطف عمل يلفُّ أدوية فتمتزج روائح الأشربة بروائح الإحباط والجزْر البحري، السيارة هناك، جامدة قرب شجرة دُلب، كأنها مربوطة إلى الجذع بمطْول لا

يُرى، ساعة الكنيسة دقت عدداً مذهلاً لا ينتهي من الضربات الموقّعة البطيئة، فتمدّد الصّوتُ، قَروُسْطوياً، في دوائر متحدة المركز في الأجواء المتخمة، ١٤-٨ أخبرهُ والدُه، تذكّر أن الثلاثين سنٌّ خطيرة، إنها اللحظة المناسبة للشروع في نظام غذائي من دون ملح، عيناه الكامدتان تتفحصانه بموضوعية طبّية خالية من أي حنان، كان رباط الحذاء الآخر مشدوداً إلى خيط واحد، نظفتُ أسناني عابساً، اطمئنّي، صحتُ من الحمام، لن أفرض عليكِ هؤلاء الأوغاد، إنني ما زلتُ أهتمُّ بالطيور، يا أبي، وما زلتُ أرغب في معرفة كيف هي، لا يمكنكم أن تتصوروا ما تسبّبَ لنا فيه من وجع، قالت أمُّه متنهدة، جاء إلى البيت رفقة امرأة قذرة للغاية، أشعلَ المحرك، شغّل الأضواء الأمامية وانطلق نحو النُّزل، أشجار صنوبر ومزيد من أشجار الصنوبر، الضباب الممزّق وسط الليل الذي يتكثّف ويتفكك أمامه في أحجام صلبة سرعان ما تتلاشى، راحت تصرخُ فينا تلك الدعاية الشيوعية ضد الرّب، كانت قطعُ الكبد تتلوى في بطني منزعجة، مليئة بالإبر، والعظام وقذفات الأحماض، طويتُ شفتيّ كي أتفحص أضراسي في المرآة فصادفتُ وجهي في الجهة الأخرى، أبله قمرياً، هذا هو أنا الآن، هذا الغلافُ المُحير، هذه التجاعيد، إنّهم لا يهمونني في شيء، لن أطأ أبداً ذلك البيت، أقسمُ لكَ، كان صوتها يرتجف فوق البلاطات، فوق الأواني الخزفية، فوق أنبوب الدُّش، ألقيتُ نظرة على الباب فكنتِ دائماً ممددة في نفس الوضعية كما قبل ذلك بقليل، إن الطيور، أجاب والدي في همس، بتعبير حائر، ما حكاية الطيور هذه، ربما نمتَ دون أن تخلع ملابسك وكان لا بد من إيقاظك رجّاً، مساعدتك على ارتداء السترة والسروال، إنزال لباسك الداخلي على امتداد ساقيك المتجمدتين، بينما أنت تئن وتحتج في

نومك، انتظر، ابق هادئاً لحظة ريثما أصل، كان الخليج يشبه مستنقعاً واسعاً شفافاً، من دون حياة، يلمع يتلألأ في الظلام، أتمنى ألّا يجرأ ويعود من جديد إلى بيت أصهاري، قال طبيب التوليد في نادي العصبة لصديق مستاء، عادت تيريزا من هناك منزعجة أيما انزعاج، وكان عليها أن تبتلع قرصين من دواء فيسباراكس قبل أن تنام، هل أنت نائمة؟، سألَ بوجلٍ الظلَّ الجامد وهو يخطو خطوات محتشمة فوق الأرضية المشمّعة، كانت إحدى كتفيكِ ترتسم واضحة وحادة أمام النافذة من دون ستائر، أشجار ومزيد من الأشجار على الطريق نحو النُّزل، الضخم وسط الظلام، تشابك أغصان وضباب، نحُومُ حول الخليج، يا ماريليا، وبعد قليل تظهر القنطرة، وبعد قليل النّزل بحجم كتلته الجلدية، وشيئاً فشيئاً بدأ يزول دوار الجعة، تاركاً مكانه لفراغ مزعج، عبر قطٌّ راكضاً الإسفلت أمامهما، إن الطيور، أجاب والدي في همس، بتعبير حائر، ما حكاية الطيور هذه، وأثناء ذلك، من شجرة الكستناء، من شجرة التين، من أقرب الأغصان، كانت الطيور تنطلق محلقة نحو الغابة في موجة وحيدة وشاسعة، ركنْتُ السيارة فوق الحصى، قرب سيارات الأزواج الأجانب، ولم يكن الماء يُحدِث أدنى ضجيج، ولا موجة واحدة، ولا تيار واحد، ولا شلال واحد، صمتٌ تام، مطلق، أفقي، بلون الفطائر، وبعيداً جداً عن أضواء أفيْرو، المنعكسة في الضباب، هل تنامين؟ كرّرَ وهو يدنو ببطء، منحنياً إلى الأمام على أمل أن يرى عينيها، لا تغضبي لقد سبق لي أن وعدتُكِ أننا لن نطأ مرة أخرى ذلك البيت، اضطرا ليقرعا الجرس كي يأتي المستخدم ذو الجفنين البنفسجيين من النوم ليفتح لهما، كانت النباتات تنمو وتملأ البهو بالتنفس القلق لأزهارها، حذاؤك الخشبي يرمي أصداء مدوية في الأدراج، يسبق نعليّ

المخزيين، **طيور**، سألت أمُّهُ، ما حكاية الطيور هذه؟ دخلا إلى الغرفة، بحثْنا متحسّسيْن عن قاطع الضوء في الممر الضيق فتلاشى الظلامُ سريريْن، طاولتين جانبيتيْن، أريكة، حقيبتيْنا فوق دعامة خشبية، **إنّهُ** لا يملك حساً سليماً ولذا فليذهب إلى الجحيم، قال طبيب التوليد وهو ينهي كأس نبيذ بورتو، لكن، يا إلهي، هناك حد أدنى من اللياقة، أليس كذلك؟ استمر يتقدم على أطراف أصابعه نحو الجسد الممدّد، فمها له مذاق انتعاش معجون الأسنان في الثانوية، كان شعرها المبلل فوق أذنيها بعد الحمام، علّقا المعطفيْن على الشماعة، بدأنا نخلع ملابسنا، كنتُ أشعر بالدوار بسبب الكبد المقلي، والمرق، والجعة، حنجرتي تحترق من ارتداد حامض، نمتُ دون أن أخلع ملابسي الداخلية، سحبتُ الأغطية فوق رأسي لأن الضوء كان يؤذيني، سمعتُ قدميكِ الحافيتيْن تذرعان الغرفة جيئة وذهاباً، سمعتُ كأساً تمتلئ بالماء، ما يشبه التجشؤ، ثم نوابض السرير بجواري تصرُّ، احتكاك ساقيك وهما تبحثان عن فضاء تنكمشان فيه لتنامي، **الطيور**، قال والدُه وهو يرفع غير مُصدّق وجهه الحالي عن الجريدة، لا أتذكرُ طيوراً، كبرتْ قطعة قمرٍ، شفافةً وسائلة، بين غيمتيْن، ثم اختفتْ من جديد، وقد ابتلعها حلقوم الظلام، **عندما** كنا في الضيعة قبل سنوات، شرح من تحت الأغطية للعجوز الذي يحدق إليه دون أن يفهم، قرب البئر، تَذَكّرْ ذلك، وأمي هناك في الصالة تنتظرنا لتناول الحساء، رائحة الصيف مع نهاية الزوال، رائحة التراب، والتفاح الناضج، والأعشاب القلقة في الغسق، عبرت البومة أفقياً جدارَ العلّية، **انتهت** السيدة ألْميريندا من عمليات الجمع، رتبت الأوراق في جارور، وأعلنت **سأغلقُ** الحانة، شاحنةُ النظافة ترتجف هناك في الأسفل بينما رجال بحمالات برتقالية

يلقون داخلها بأزبال شارع أزيدو غْنيكو، قذارة كامْبو دي أوريكي، بقايا الطعام، قطع الأوراق، عظام الدجاج، علب المصبرات الفارغة، والخرقة الجامدة لجثتي، **في** الضيعة؟ سألَ والدُه دون أن يفهم، يفتح ويغلق ذراعي نظارتيه من ذَبْل السلحفاة، ما الذي حدث في الضيعة؟ **سأتقيؤ**، فكَّرَ، من أجبرني على ابتلاع طعام سيّئ في الحانة، أختُه الموسيقية تعبثُ بقطعة لدوبيسي بعيداً، خدرٌ غريب يفرغ جسدهُ، **إنني** أغفو، فكّرَ، وكان ما يزال يميز، بينما هو يغرق في بحيرة من الوحل، مليئة بالوجوه المألوفة، الجبين المقطب، القلق، لوالده، اقتربتُ منكِ، سحبتُكِ من الكتف، أعدُكِ أن الأسرة قد انتهت، أعدُكِ حيّ لابّا انتهى، لن نتجاوز مرة أخرى أبداً عتبة ذلك البيت، وفي الجلاء المبهم لمدينة لشبونة، وفي الوضوح الضبابي لأفيِّرو، بدت لي عيناكِ خاليتين مأساوياً من أي تعبير تماماً مثل محاجر الموتى الجبسيّة.

السبت



نهض مرّتين أثناء الليل، غاثياً متشنجاً، كي يتقيأ، على دفعات، قطعاً من الكبد المقلي نصف مهضومة في حوض المرحاض، دائخاً تماماً، شاحباً تماماً، مريضاً تماماً، حتى أنه فكّرَ سأموت بينما المرأة تتقلب من جهة إلى أخرى لأن الضوء، والخطوات، والأصوات القلقة في حلقي لا بد أنها تغزو مزعجةً نومَها، تماماً مثل ساعة المنبه، في الصباح، فوق طاولة السرير المسندة على خدها تقريباً، الذي ينفذ مثل خنجر داخل أذنها. لا بد أن الساعة كانت تشير إلى الخامسة أو السادسة صباحاً، كانت روحُه تخرج شظايا لزجة من فمه الذابل، وفي النهاية جلستُ عارياً إلا من لباسي الداخلي، فوق الكرسي الأخضر قرب النافذة، أنظرُ عبر فجوات الستار المعدني إلى الليل المحتضر فوق الخليج، تخترقه منحرفةً شرائطُ ضوء مضطرب يبدو أنها تنشأ من كبب خيوط تتشكل من ظلال أشجار الصنوبر أو من بازلت غامض من الغيوم المتراكمة في بقات متراصة. كانت معدتي أخطبوطاً مبيضّاً ولاذعاً ينكمش ويتمدد، بينما لوامسه المعجونة بالحوامض تنزلق على طول بطني باتجاه يديّ. لا بد أنني كنتُ أعاني من الحمى لأنني كنتُ أشعر بما يشبه برد زكام في جسدي رغم السترة التي لبستُها ملتصقة بجلدي: كان الشَّعرُ في

ساقيّ يخرج مخروطات صغيرة متجمدة، وخصيتاي تختفيان في غابة عانتي البنفجسية. كان صنبور المغسل أو حوض الاستبراء يقذف غضبه هناك في العمق، في ذلك المكعب المتلألئ المغطى بمربعات من الخزف حيث كنتُ أنفرغ من ذاتي، كما حدث تلك الظهيرة يوم رافقتُكِ، محرجاً من فرط الخجل، عند ممرضة التوليد، كي نخنق السمكة التي كانت تتمدّدُ، مقوسة، داخل رحمكِ. الآن، وأنتِ تنامين، سليمة من الجعة وقطع الكبد، وأنا أميز تحت الفراش، الشكل التقريبي لجسدك

في فجر أفيِرو الدنس، الآن وأنا سأموت من عسر الهضم، من التقرح، من انفجار أخير ونهائي لأحشائي، الآن بعد أن صار للثَتَيّ مذاقُ المرق العفن والتُّرمس الفاسد، وربما حين تستيقظين ستجدينني منبطحاً على حافة الحوض، أنظرُ بتكشيرة زجاجية إلى انعكاسي المشوه، أتذكّرُ تلك الظهيرة يوم نزلتُ رفقتكِ من الحافلة، قرب حديقة برينسيبي ريال، لنذهب عند ممرضة التوليد، يتملّكُني الخوف، والشعور بالذنب والإحساس بالإثم. لم نتكلم في الأمر، لم نتحدث عنه قطّ تقريباً، نبهتني في البداية، عندما بدأنا علاقتنا معاً، أنا لا أريد أطفالاً، ولم أسألكِ قط لماذا، خوفاً من أن تغيري رأيك: طفلا توشا، بالإضافة إلى طفل أو طفلين منك، ربما شكلوا أبناء أسرة واحدة صعبة بالنسبة لي، نفقة مستحيلة عليّ، همّاً لا أقدر عليه، أربعة جراء ينبحون من حولي، يتحولون، يكبرون، كانت هناك غرفة ضيقة تعج بالعلب والجرائد في شارع أزيدو غنيكو، مغبرة رطبة، سرية، معتمة، وأفكّرُ أحياناً سنضع هناك مهد الصغيرة. كنتُ دائماً أقول الصغيرة (لم تخطر قطّ على بالي فكرة طفل ذكر) وكنتُ قد ابتكرتُ لها نبرة صوت، ضحكة، طريقة بكاء، لون شعر، اسماً،

وركيْن صغيرين مُدوّرين، أفكّرُ سنضع هناك مهد الصغيرة، لم أكن أتحدث معك قط عن هذا الأمر، كنتُ أسمع قهقهاتها التي لا تسمع أثناء العشاء فأضحك في أعماق أعماقي أو خلف حساء كْنور. كنتِ قد أعلنتِ **أنا** لا أريد أطفالاً وكنت على علم أنني أعلمُ أنك تقولين ذلك بسببي، بسبب خوفي من حفيد حرس جمهوري يضع مسواكاً في فمه، لأنني لم أستطع أن أتخلص من أبي، من أمي، من قدر «شركة الهند» الذي كانا يهدهدان فيه. لذا فإنه حين أخبرتني

– لم يأتني الحيض منذ شهرين، أعرف شخصاً ثقة في «بْراسا داشْ فْلوريشْ»

تابعتُ قراءة مجلتي بنفس اللامبالاة فوق الكرسي الطويل، تحت مصباح الإنارة من معدن الكروم، الفظيع، المتعجرف، الذي اكتشفتِه ذات ظهيرة عند أحد باعة الأغراض القديمة ثم وضعتِه مزهوة في الصالة، وسط تلك الخردة التي كنا نعيش فيها. ولو كنتُ وقتها قد قلتُ **لا**، يا ماريليا، هل كان سيتغير شيء بيننا؟ فجأة، صعدت دوامة من التقيؤ من بطنها فتعثرت في طريقها نحو الحمام المضاءة، تضع يدين قلقتين على فمها: سوف أموت. تجاوزا محلاً لبيع الأغراض القديمة يعج بالكراسي العرجاء، أواني كسرتها القطط، وقطع أثاث من العهد الإمبراطوري غارقة في الظل، حانة، منازل عتيقة ذات واجهات متقرّحة كانت شمس أكتوبر تكشف من دون رحمة عن شقوقها وعيوبها، كما تكشف عن الصدأ، بلون الدم، على بواباتها. لم يكن أي أحد منا ينظر إلى الآخر، فكّرَ، وهو جالس فوق حوض المرحاض، لاهثاً، بينما يدان خفيتان وقاسيتان تلويان أحشاءه ودفعةُ ريح تنفلت من استه. كنا نبحث عن أرقام العمارات، نتوقف أمام واجهات المحلات التجارية الصغيرة، ننحني على عناوين الجرائد

المتراكمة فوق الأرض، تحرسها نساء بدينات يرتدين مرايل، يبحثن عن الفكّة في تنانيرهن. يُفَكِّرُ هل تكون ممرضة التوليد مثلهن، امرأة تُزيّن رأسها بعقيصة حادة الطرف، لها أظافر مشبوهة وصوت أجش؟ يُفَكِّرُ طبعاً كنتُ أشعر بالذنب، طبعاً كنتُ قلقاً، وكان بودي أن أستمر في العيش وحدي في غرف مفروشة، من دون تعقيدات، من دون خوف، من دون مآسٍ. كانت التشنجات تذهب وتعود، ماريليا سعلت في الغرفة، فسمعتُ جسدها يغير موضعه وسط الملاءات، يتحرك فوق الفراش، يتنهد، يئن.

- كلا، لحسن الحظ، ليس له أبناء آخرون - قال كارلوس بضحكة ارتياح صغيرة وهو يقطع طرف سيجارته بواسطة مقص معقد - يكفي ما لحقنا من إزعاج من توشا بسبب الاقتسام.

عمارة تشبه الأخريات، تتكئ على ورشة سيارات حيث كان رجل يطرقُ رفرف عجلة فوق مقعد متسخ. كان الباب مفتوحاً: في الطابق الثاني، قالت ماريليا: صعدا سلالم خشبية بالية، أدراجها عالية جداً، ومن كوة السقف هناك في الأعلى كان يبرز ضوء صعب، من ماء الأحواض، التي كانت ألسنة مماسح الأرجل تلحسها بشره ثيران كسلى. ضغطت ماريليا على الجرس النحاسي: صوتٌ أجوف تردد صداه فيما بدا كأنه كهف لا ينتهي، ممرات وممرات عند نهايته، في غرفة تعج بدلاء من الضمادات وأدوات الجراحة، وعجوز بمريلة ملطخة بالدم تغرق ذراعيها حتى المرفقين بين فخذيك المنفرجتين.

- هل أنت متأكدة أنه هنا؟ - همهمتُ وأنا ألاحظ بتوجس صمتَ الطوابق، تآكل الخشب المتشقق والعفن، بيت عنكبوت ضخماً معلقاً فوق هيكل كوة السقف. كما لو أنهم سمعوني من

الداخل، انفتحت فجوةٌ فظهرت عين عند مستوى عيني، ترقبني بتوجس فيه ضغينة.

- طبعاً، اشترينا صمتها مقابل بضعة أسهم وذهبتْ لتعيش في سويسرا على حسابنا، أضاف كارلوس داخل سحابة دخان زيتية - لكن، تصوروا امرأة أخرى تشرع في مطالبتنا بجزء من الإرث، تضايقنا بالمحامين، بالوكلاء، والمحاكم.

- ماذا تريدان - سألت العينُ دون دماثة. كانت ثمة قطعة خفّ هناك في الأسفل، قرب السجاد، رجلُ دجاجة نحيفة. يُفَكِّرُ **لماذا لا** نغادر نحنُ؟ يُفَكِّرُ **أنا لا أريد أطفالاً**. يُفَكِّرُ، جالساً فوق حوض الاستبراء في نُزل أفيْرو، يشدُّ معدته بكلتا يديه، كنتُ أشعر باضطراب كبير، بفشل ذريع، وخجل فظيع من ذاتي.

- لديَّ موعد - شرحت ماريليا بصوت خافت - اتصلتُ بكِ يوم الاثنين، وقلت لي أن أكون هنا على الساعة الحادية عشر، على الريق.

انتقلت العينُ مني إليكِ، انزلقت فوق جسدكِ بحثاً عن بطنكِ، ثم التفتت، فجأة، نحوي:

- هي تدخُلُ لكن أنت، تنتظر هناك في الأسفل: ليست الحانات هو ما ينقص في هذه الساحة.

يُفَكِّرُ هذه الغبيّة ستقتلك بسببي أنا، فضغط بقوة على طيّات جيبيه كي ينشف يديه الرطبتين. ينفتحُ الباب، تدخل ماريليا، فيلمحُ منضدة بمرآة في البهو، مشجباً فوقه معطف رجل، فتاة حافية القدمين، عارية العورة، تُلوّحُ بملعقة، وسرعان ما انغلق المزلاج بتنهّد انتعاظ فبقي وحده عند العتبة، واقفاً، جامداً في غباء، رأسه يدوّي من طرق مقلق يرنُّ في دمه. أطفئُ الضوء في الحمام بعد أن

مسحتُ فمي بالمنديل، أجلسُ على حافة سريركِ، ألمس بلطف، من فوق الأغطية، جسدكِ الناعس، الغيوم تتلاشى ببطء في الصمت المُدوّي، مياه الخليج تقترب عبر الستائر، وجهك يُغير وضعه، يطلع النهار. وضع كارلوس طرف سيجاره على المنفضة الكبيرة، تحسس راضياً ذقنه المزدوج بطرف أصابعه:

- الآن، وبعد زوال الخطر الشيوعي، يمكننا أن ننجز بكل أمان، بفضل ما يتوفر من يد عاملة رخيصة، فكرة صهري. اليابانيون والأمريكيون متحمسون لمنتوجاتنا.

في الساحة، كانت الأوراق كأن الضوء قد برْنقها، السيارات والمارة يتحركون مثل لعب ميكانيكية، وواجهات المحلات تكتسي خيال لوحات مائية. جلس على مقعد أمام العمارة، يركز حدقتيه على ستار الطابق الثاني: إن حدث شيء ما سأتصل بالشرطة، سأبلغ عن ممرضة التوليد، سأشتكي لصهري طبيب التوليد، ربما يستطيع أن يثير السخط القوي لوالدي.

- هل أجهضتُ مولوداً من صلبه؟ - سألت المرأة ذات الهيئة المهملة والشعر الأشيب، وهي تواصلُ حك رأسها بالقلم - هذا ممكن، لم أعد أعرف، لا أتذكر، مرت سنوات كثيرة على ذلك.

- جاء إلى المدرسة يطلب مني أن أقرضه مالاً - قالت أختُه الموسيقية وهي تنظف نظارتيها بمنديل - كنتُ أغادر عندما صادفتُه، مستنداً إلى عمود إنارة، في حرج فظع، لا يعرف من أين يبدأ. ماريليا حامل، أنا بحاجة إلى خمسة آلاف إشكودو، لا يمكن أن أتحدث عن ذلك لأي شخص آخر غيرك. فشعرتُ كأن الناس جميعاً يسمعوننا، الزبائن في المقهى، زملائي، والنُّدل، والتلاميذ.

امرأة عجوز بشعر مصبوغ جلست بالقرب منه، كلب فوق

ركبتيها، أمّا الحيوانُ، جروٌ أبيض فظيع تطوق عنقه سلسة زرقاء، فسرعان ما أخذ يزمجر غاضباً باتجاهه، مستعرضاً أسناناً حادة صغيرة بيضاء كأسنان سمكة. ابتعد محترزاً نحو طرف المقعد فحدقت إليه العجوز بنظرة حاقدة.

- أنا بحاجة إلى خمسة آلاف إشكودو - قال لأخته وهو ينظر إلى قشرة الليمون المقوسة تطفو فوق بول الشاي المتصاعد دخانُه. ماريليا حامل، ففكرتُ أنه ربما تستطيعين أن تساعديني.

يُفَكِّر **الحانةُ** القذرة تعج بأشخاص من الثانوية، الزملاء الذين يحيّونها من بعيد بنظرة تفاهم: رغم قبح وجهها ونظارتيْها، استطاعت المسكينة أن تجد لنفسها حبيباً. كما تخيل أحاديث اليوم الموالي، الهمسات، التلميحات، والمزاح. كانت أخته تشرب ماء بيذْراشْ، ترجفُ جفنيها، تصمتُ، وأخيراً فتشت مليّاً في محفظتها بحثاً عن دفتر الشيكات، وهي تضع شيئاً فشيئاً عدداً هائلاً من الأغراض فوق المائدة: يوميات، علب، سلسلة مفاتيح، صور، أقلام. احتفظ بالمستطيل الورقي في جيبه ثم ذهب، وتركها وحيدة في المقهى مع كأسها المليئة بالفقاعات، مع قلقها وطيبوبتها. يُفَكِّرُ لم أُعِدْ لك قطّ ذلك المال، ولم يخطر على بالي قطّ أنني مدين لك به.

- كلا، حقاً، لا أذكر ذلك - قالت ممرضة التوليد ذات الشعر الأشيب وهي تشد محفظة تلميذ تعج بالكتب - هل الأمر مهم إلى هذه الدرجة؟

نهض من السرير، عاد إلى الحمام وفحص وجهه في المرآة: شاحب، رخو، منحل، لا شكل له، كأنه منعكس على لوحةٍ تُشوّه الأشكال. خصلة شعر من دون عزيمة كانت تلتصق بجبينه المتصبّب عرقاً، شحمتا أذنيه شبه الشفافتين تتدليان مثل قطرتين من الشمع فوق

عنقه. يبدو أن العجوز وكلبها يزمجران الآن بصوت واحد، يوحدها نفس الاندفاع من الغضب، والحيوان يُقطّب شفتيْه فوق لثتَيْن ذابلتَيْن في تكشيرة اتهام: إنك تقتلها. يُفَكِّرُ في هذه اللحظة تلقي ممرضة التوليد ذات الخُفّيْن بقطع قطن يبللها سائل داكن في ركن من القاعة، الطفلة ذات الملعقة تتجول، ساهية، في مشية كالبجعة، تصطدم بقدم السرير. يُفَكِّرُ وأنتِ؟ مُمدّدةً، تغمضين عينيك، شبه نائمة بفعل القناع الغازي؟ واعية، تقطبين حاجبيْك، عيناك في السقف، ترمينني بلوم صامت؟ يحاولُ أن يتخيل ما يحدث لكن الصور تتشابك، لا يتمكن من ذلك، يعيد الكرّة. العجوز وكلبها يزمجران بقوة أكبر فأكبر، ما الذي يحدث الآن هناك في الأعلى، خلف الستائر البريئة في الطابق الثاني، إنهما يتشابهان، سوف يشرعان في النباح معاً في الوقت نفسه، أخته تنهي ماء بيدْراشْ، تُلوّح من بعيد إلى أستاذ الرياضة الملتحي الذي يردّ عليها بابتسامة عابرة وغير مبالية، يصلُ إلى شارع أزيدو غْنيكو مع الشيك ويعلن لماريليا التي كانت تلصق في ألبوم مقتطفات من الصحف وهي ممددة فوق الأرض:

- جلبتُ مالاً.

يُفَكِّرُ ولا حتى مساء الخير، ولا حتى كيف حالك، ولا تحية، فقط جلبتُ مالاً، بصوت متسرع ومتآمر، من دون تأثر. يُفَكِّرُ تنظيمٌ من المجرمين التافهين من أجل سخرية حقيرة، لا أحد منا يريدُ أطفالاً، أنا لأن لديّ منهما اثنين، وأنت لأسباب غامضة، الحزب، البروليتاريا، لستُ أدري، بينما السبب الحقيقي هو أنه لا أحد منا يؤمن بالآخر. هكذا، في جملة واحدة، فقط لهذا السبب: لا أحد منا كان يؤمنُ بالآخر.

- طابقٌ ثان في بْراسا داشْ فلوريش؟ - سألت المرأة ذات

الشعر الأشيب وهي تفتش في فوضى ذاكرتها - في الواقع، ذهبتُ إلى هناك مرتين أو ثلاث مرات، منزلٌ مشؤوم، لكني لا أذكر إن كان أحد الأجنة من صلبه.

- خرج من المقهى على وجه السرعة - قالت أخته وهي تمسك الشيك بين أصابعها كمن يمسك صورة ما تزال مبللة - أقسم إنني لمدة ثلاثين عاماً لم أره قط مرتبكاً كما رأيته يومئذ.

أشعل سيجارة دون أن يرفع عينيه عن النافذة، فاختنق الكلبُ الأبيض الفظيع وسعل. توجهت إليه العجوز بغضب مُصَفّر:

- هل يزعجك لو ذهبت لتدخن في مكان آخر؟ كلبي يعاني من الرّبو.

- لم أقم قط بأي إجهاض - أكدت العينُ التي تعلوها خصلة شعر مصبوغ - هل يمكنك أن تؤكد عكس هذا، يا سيدي؟

قام بجولة حول الساحة خلف القضبان الحديدية، يمسح كفيه على طيات جيوبه، تحت شمس تسحقُ بألوانها صناديقَ الفواكه والخضر عند أبواب المحلات التجارية، يراقبُ من دون هوادة الستائر بقلق متزايد، تزكم أنفه روائح الأشجار في شهر مايو. لا بد أنه كانت هناك إدارة عمومية في الأرجاء لأن الناس كانوا يغادرون محلاً تجارياً يحملون لفائف ورقية مختومة، ماريليا تتضوّرُ ألماً، مشدودة بأحزمة جلدية إلى طاولة حديدية، نساء ينظفن فرجها بضمادات، وأنا، أنا هنا بصحة وسلام، أقفز من الرغبة في التبول كما يحدث لي لحظة الامتحانات، عديم الجدوى ومثيراً للشفقة. مرّ أمام المقعد الذي كان جالساً عليه، تراجعت العجوز صاحبة الكلب إلى الوراء، ثم انحنى على المغسل، مدفوعاً بنافورة تقيؤ يستحيل التحكم فيها كانت تصعد من أحشائه في غليان كبير، فملأ الجفنة

الخزفية بما يشبه مادة مخاطية مُخْضرّة انزلقت نحو البالوعة بتلكؤ مخاط. بأنف يقطر وعينين دامعتين، رفع رأسه ولحظتها رآها، رآكِ: شاحبة بشكل فظيع، بنظارات سوداء، تتكئين على إطار الباب، تُديرين ذقنك يميناً ثم يساراً، تبحثين عني. كانت المحفظة تتدلى من ذراعها، طرف من صدريتها يبرز غير مرتب من تنورتها، يُفَكِّرُ كم هي شفافةٌ أظافركِ، إن لم أُعدْكِ فوراً إلى البيت فسيُغمى عليكِ لا محالة.

- كيف تشعرين؟ - سألها بصفير تنفس متردد.

- كلا، لوجه الرب، زُر البيت - قالت العينُ مُلحّةً - أريد أن أرى إن كنت قادراً على إثبات ما تقوله.

- أشعر أنني واهنة، اطلُبْ سيارة أجرة - أجابت ماريليا وهي تستند إلى ذراعه، كمن يتكئ على ما يشبه عكازة غير مريحة. كانت ملامحُها متعبة ورمادية مثل ملامح الصور الخاصة برخص السياقة، التي يأخذونها داخل تلك الأقفاص المعدنية التي تخرج شريطاً من أربع صور مبللة عبر شق مُسيّج، أربعة وجوه متشابهة غير واضحة المعالم، كأنها تُرى من خلف ستار من المطر، تشبهنا بقبح أكبر. هناك في الأعلى، في الطابق الثاني، لم يكن ثمة من ستار يتحرك. فتاة شابة، بملابس سوداء، دخلت إلى العمارة، ففَكّرَ تلقائياً ضحية أخرى. العجوزُ صاحبة الكلب تحاول الآن أن تجعل الحيوان يتبول على شجرة (كانت الجذور ترفع أحجار الرصيف من حولها)، ترفع إحدى قائمتيه الخلفيتين بيدٍ زوجية تنمُّ عن حنان مقرف، كأنها تضع قنطرة بوْليّة لزوجها. مرت سيارتان أو ثلاث سيارات أجرة مشغولة، مجيبة بالرفض بالأصابع على حركته المُتوسّلة، إلى أن جاءت سيارة مرسيديس متهالكة، يقودها رجل بدين تغطي وجهه بقع الجُدَري، فتوقفت، ترتعش من الحمى، عند الرصيف.

تمخّط في قطعة من ورق الحمام، وسحب الطرّادة للمرة العشرين أو الثلاثين تلك الليلة، ثم بدأ يتنفس بسرعة أقل: ابتعدت عنه الآلام، والوعكة، والتقيؤ كما البحرُ عند الجزر فتصاعدَ إرهاقٌ ضخم عبر ساقيه نحو كل جسده، ناشراً أجنحة الكسل في صدره. كانت المنبهة فوق طاولة السرير تشير إلى السابعة، ريح الصباح تجعل الماء يرتعش في الخارج، الغيوم تلامس قمم أشجار الصنوبر بحجابها السميك الكامد من القطرات البيضاء. سحبتُ الخيط الذي يغلق الستار وذهبتُ إلى السرير أحاولُ أن أنام.

- عندما يشتد حنيني - قالت أخته - فإن أول ما يخطر على بالي هو تلك الظهيرة يوم سلمتُه الشيك وقلق أخي المسكين. ربما لن تصدقوني ولكنه كان أقل الناس استعداداً للحياة التي لم يكتب لي قط أن أعيشها.

داخل سيارة الأجرة، لففتُ كتفيْكِ بذارعي وداعبتُ شحمة أذنكِ، لامستُ هذه القطعة الغريبة من اللحم بأصابعي. كنت تضعين نفس الأقراط منذ الطفولة، حجر صغير أزرق فوق الجلد، عرّابتي هي من أهدتهما لي، لم أعد أستطيع نزعهما. توشا، عكس ذلك، كانت تملك ترسانة كبيرة من الخواتم ذات الألوان المتعددة والأقراط الطويلة المتدلية التي تتأرجح حول عنقها عندما تحرك رأسها، تلامس رقبتها مع رنين خفيف من القصدير. يُفَكِّرُ بقدر ما كانت تثيرني فساتين توشا، أحمر شفاهها، وأحذيتها، كانت ماريليا تتركني غير مبال، بارداً، من دون رغبة. داعبَ شحمة أذنها ثم أنفها وذقنها بينما سيارة الأجرة، ومبدل سرعتها تحت المقود، كانت تسير متعثرة من ضوء أحمر إلى آخر، تحتضر، نحو البيت. تجاوزهم شخص مُقعَد على اليمين يركب دراجة ثلاثية معقدة، فأنزل السائق الزجاج بما

تبقى له من مقبض ليُمطرهُ، ورأسه خارج السيارة، بوابل من الشتائم. يُفَكِّرُ لن نصل أبداً إلى شارع أزيدو غْنيكو، كان حيّ كامْبو دي أوريكي ينفلتُ أمامنا، لكن العمارات صارت أليفة، فتعرّف الشوارع، وملتقيات الطرق، ومخفر الشرطة، ها قد وصلنا تقريباً. السائق، كأنه مصدوم، التفت بصعوبة:

- هل رأيتما هذا الوقح؟

- لم أجد قط سبباً للتشكي - قالت المرأة ذات الشعر الأشيب وهي تضع القلم في محفظتها - لا تعفُّن، لا نزيف، لا إزعاج. هل تريد العنوان؟

- أنا، إن حملتُ - قالت الأخت الموسيقية - لن يهدأ لي بال قبل أن يولد الرضيع. في عائلتنا هناك بنات فقط تقريباً، وربما كان ذلك هو الولد الذي طالما كنا نتمناه.

دفع للبدين الذي كان يوبّخُ الكُسحان والأكتعين، فتح باب العمارة بمفتاح عدائي (لماذا، بحق السماء، يضعون الأقفال منخفضة جداً؟)، مطوي مرتين مثل سمك غُبَر يعض ذيله، ضغط على زرّ المصعد وعندما وصلَ القفصُ كان يحمل بداخله سكيراً يرتدي أسمالاً يشخر ممدداً فوق الأرض.

- ربما يكون ملاكاً - قالت ماريليا بابتسامة رزينة - والزرّ الأخير يؤدي مباشرة إلى الجنة. هذا الملاك نزل إلى هنا إلى الأسفل بالخطأ وهو محكوم بأن يقضي الليل فوق مقاعد الشارع.

- الكل يعلم أنه للذهاب من شارع أزيدو غْنيكو إلى السماء لا حاجة إلى جواز سفر - قال وهو يُفَكِّرُ أنتِ ستذهبين مباشرة إلى السرير بينما أتصلُ بصهري: الربّ يعلم ما قد يترتب عن كل هذا الأمر.

الدميةُ، عجلة العربة، الممر الضيق، الغرفة: الفراش فوق حصيرٍ، الأغطية غير المرتبة كالعادة، الكتب، الأوراق، الجرائد، الحوض من دون سمك، المكتب المزدحم بالحجارة والقواقع، بالقوارير الممتلئة حبراً، بكل هذه القذارة التافهة التي تحيطين بها نفسك على الدوام. استلقيتِ على السرير بكامل ثيابك ودون أن تخلعي الحذاء: كان قد تقدم بكِ العمر عشرين سنة في ذلك الصباح. ذهبتُ لأجلب لكِ كأس ماء من المطبخ لكنك بحركة من رأسك، دون أن تنبسي بكلمة، قلتِ لا. في الصالة، ركّبَ رقم المستشفى، جالساً فوق الذارع المهترئة للأريكة، الدكتور لم يصل بعد، الدكتور غادر قبل مدة، ربما يكون بصدد إجراء عملية توليد، انتظر لحظة، إنه في اجتماع، لو تفضلت وتركت اسمك، وبعد انتظار لا ينتهي، صوتُ رجل في الجهة الأخرى من الخط: نعم؟

- طبعاً، تكهنتُ على الفور بما كان يجري - قال طبيب التوليد وهو يخلع القفازين المطاطين - نصحتُها بمضاد حيوي والخلود إلى الراحة لأنه ليس هناك من شيء كثير يمكن القيام به في مثل هذه الحالات.

- لقد عدنا للتو من علاج على يد ممرضة توليد - قال متلعثماً - وماريليا تعاني من نزيف حاد بعض الشيء.

كان هناك أشخاص آخرون خلف صوتي، ربما كان أحدهم يتنصّتُ على الحديث عبر الخط، ربما كان صهره يخبر أختَه وأختُه تخبرُ بقية الأسرة، لن يفلت فرصة كهذه: أمي لن تتصوري ما أخبرني به جانٍمي. لو تكهن أبي بذلك، لن ينظر أبداً نحوه، بحق السماء.

- إجهاض؟ - سأل طبيب التوليد بنبرة احترافية تنم عن ابتهاج انتصار شاذ.

- عفواً - ألحت العينُ - أنا من أصر على أن تزور بيتي. إنه لأمر خطير جداً رمي الناس الشرفاء بتهم كهذه.

- كلا، لا تفكري في هذا - أجاب بعد تردد قلق. (لقد وقعتُ في ورطة). إنه فحص من تلك الفحوصات التي تقوم به النساء من حين لآخر، أنتَ تعرف ذلك.

- يمكن أن أشرب شاياً إن جئتني به - قالت ماريليا بنبرة ذابلة.

- لماذا لم تذهبا لزيارة طبيب؟ - سأل الصهر بإلحاح شيطاني، بينما كانت ضجة غير واضحة تمتزج بكلامه.

لم يجد السُّكَّر، لم يجد الفناجين في فوضى المطبخ. كان صنبور المجلى يقطر على الصحون المتسخة، التي تعلوها قشرة صلبة لعشاء ما قبل الطوفان، والمطبخ يغطيه الصدأ والأوساخ القديمة: منذ متى لم ينظف أحدهم كل هذا، فكَّرَ، مستاء، منذ متى والنفايات تتراكم في هذا البيت، أكوام من المجلات متراكمة في الخزانة، علب مصبرات مفتوحة تفوح منها رائحة نتنة؟ أرادَ أن يوقد النار ليسخن الماء، لكن أعواد الثقاب كانت تتكسر الواحد تلو الآخر فرمى العلبة على الأرض غاضباً.

- من الصعب الحصول على موعد - كذب - ثم إن هناك ممرضة توليد معروفة قريباً من هنا.

لا بد أنكِ كنت تسمعينني من الغرفة، يا ماريليا، وكنت تسمعين حنقي بكل تأكيد: ما الذي كنت تفكرين فيه؟ في نافذة العمارة المقابلة كان كناري يقفز، ساخراً، داخل قفصه. شخص يرتدي رداء نوم، بناحرتين بارزتين، كان يتأمل حركة منعدمة في الشارع، كامبو دي أوريكي يتردد صداه، ليّناً، ساعة الغداء، مكسيكياً تماماً في نومه. داخل صهريج الغسيل في الشرفة كانت تطفو قطع ملابس فوق

رغوة عكرة. وجدَ كيس شاي تائهاً وسط علب السباغيتي فعلّقهُ من الخيط داخل إبريق قهوة من الألومينيوم: كان يتحرك على غير راحته داخل المطبخ، يكره فيض النباتات التي تتكاثر في الأصص الزجاجية فوق الرفوف، ويمقت رائحة الطعام العفن الذي يسبح مثل جثة شقائق النعمان فوق جلد بلاطات الزليج.

- حتى أمدك بنصيحة عليك أن تشرح لي ما حدث بالضبط - ألحّ الصهرُ، متملقاً وطيباً مثل ثعالب الحكايات - وكان الهاتف يفوقُ، محدثاً طقطقة تلو أخرى: مخجلٌ حقاً هذا المقسم الهاتفي.

- هذه غرفتي، هذه غرفة ابني، هذا هو المرحاض، هذه هي الصالة - قالت العينُ وهي تقدم التفاصيل وتشير بتهكم إلى الغرف بحركات دليل مثيرة. ربما أقوم بالإجهاض في مهد الطفل، أليس كذلك؟

وجد البالوعة مسدودة ففتش خزانة المطبخ، بحثاً عن المكبس المطاطي: ذات ظهيرة، قبل ذلك بكثير، قامت إحدى أخواته (من منهن؟) بمطاردته في فضاء الحديقة جرياً، مسلحة بهذه الهراوة البدائية، لأنني حاولتُ أن أكتشف تحت تنورتها، بعد أن وجدتها جاثمة فوق مقعد، اللغز الغريب لعانة النساء الملساء، بينما كانت صيحات أمي المفزوعة تأتينا من الطابق الأعلى.

- لا تدوسا مشاتل الزهور.

يُفَكِّرُ، ممدداً فوق الفراش، يحاول أن ينام في صباح أفيْرو الذي يومضُ ضوؤه عبر الستار. كنتِ دائماً تقولين، أنا، لي، ملْكي، أمّي، وكل ما يحدث من حولكِ كان متعلقاً بكِ: مرضَ، وجاءني في الثانية صباحاً، ظهر بديناً في الصالة، ومات حين لم أكن أنتظر ذلك بتاتاً: كان الكون يدور وديعاً حول المحور الهزيل لجسدكِ الآن، في

عيادة أموريراشْ هذه حيث يمكن القول إن الزمن بدوره قد أصبح جامداً فوق الساعات الحائطية في الممر. تقدّمَ بالفنجان، والصحن، والإبريق، وعلبة السكر والملعقة، وكانت كلها تتأرجح على نحو خطير فوق الصينية القصبية، وعند رؤية عينيكِ المغمضتيْن، جلدكِ المشدود والمزرق بشكل خفيف تحت جفنيكِ، يديْكِ اللتين تشبهان طائرين زجاجين تحت الأغطية، اعتقدتُ لثانية واحدة أنكِ قد متِّ. لكن صدركِ كان يهتزُّ وينزلُ ببطء، ومن حين لآخر يبدو أن فمكِ يتمدّدُ على شكل حلقة كأنك تستعدين للإعلان عبر ملصقات حائطية عن كشف نهائي: **أيها البروليتاريون من كل بلدان العالم، اتحدوا؛ المجد الخالد للطبقة العاملة**. لكن، هناك كانت الشمس تلمع على حافة النافذة، على الشرفات المصبوغة بالأبيض وراء البيت، إزعاج منزلي وحزين يمنح الغرفة جواً من الاحتضار، وكانت ثمة عذوبة خالدة على مقاسنا في صمتِ قطع الأثاث. من ركن في مرآة الصوان كانت تتدلى قلادات بمختلف الألوان، سبحةٌ قديمة غلبتْهُ الحشمة فلم يسأل قط عن صاحبها، خيوط خرزات صفراء وبنية. كنتُ أشعر أنني حقير، مثير للشفقة، مضحك، وأنا أقف هناك، أمسك مقبضي القصب المُجدّل، مشكلاً زاوية قائمة مع جسدكِ السميك، المدثر بلباس بونْشو الصوفي.

- أعطِها كيساً من قطع الثلج - نصحهُ طبيب التوليد - هذا سوف يساعدُ على إيقاف النزيف. وإذا أردت، سأمرُّ إلى بيتك غداً صباحاً، قبل الذهاب إلى مستشفى الولادة. كلا، هذا الأمر لا يزعجني، إنه في طريقي إلى هناك.

في الأخير، وضع الصينية فوق الأرضية الخشبية (انهرق شيء من الشاي في صحن الفنجان) فقرفص فوق مقعد صغير يغطيه شعر

خروف لا بد أنك قد اكتشفته في محل من محلات بيع الخردة أو عند واحد من أولئك الباعة على طريق سينْترا أو غينْشو الذين يلوحون بكنوزهم نحو السيارات. أتقَلّبُ من جانب إلى آخر دون أن أفلح في النوم لأن انعكاسات الماء، التي يضاعفها المعدن المقعر للستائر، كانت تعرض أشكالاً مضيئة غريبة داخل جفنيّ، لأن صوراً، كلمات وأصواتاً كانت تتوالى في ذهني بوتيرة مدوخة، لأن النباتات في ردهة النُّزل كانت تلتهم قدميّ، تعضّ ساقيّ بأسنانها الصغيرة اللاذعة والرخوة. صبَّ ملعقتيْن من السّكر في الفنجان، قرّبهُ من فم ماريليا التي كانت ترفع بصعوبة رقبتها من الوسادة (كان عرق ينبض في عنقها) ولحظتها دقّ أحدهم جرس الباب: رنّة جرس قوية، جافة وخاطفة.

- لا داعي لذلك، شكراً - قال بسرعة - من الآن حتى يوم الثلاثاء سوف ينتهي كل شيء.

فتح الباب دون أن ينظر عبر الثقب، فوجد فوق الممسحة سكّير المصعد الذي كان يبتسم له ابتسامة عريضة، مثل أكورديون شبحي. كانت أسمال ملابسه تموج من حين لآخر حول جسده في دوامة من ريش، وأنفه الطويل يشبه منقاراً غريباً. كانت تفوح منه فظيعةً رائحةُ الوسخ، والخمر، والنفايات التي لا يمكن تحديدها، فبدا له أنه على وشك أن يتقيأ عليه بقع نبيذ خضراء. ومن الغرفة جاء صوت ماريليا من دون نبرة:

- من؟

- بحق السماء، هذا الأمر لا يزعجني بتاتاً - بل ستكون فرصة لأعرف بيتك. ثم إننا نادراً ما نتبادل الزيارات، أليس كذلك؟

يُفَكِّرُ روايةُ تيريزا انتقلت بين كل أفراد القَبيلة فشحذت شهية

المتهكمين من أفراد الأسرة: تعالوا جميعاً لتروا كيف يعيش شيوعي فاشل، ثوري بورجوازي: تهكماتهم أمام المناديل، الدمى الإسبانية، ستائر الأقمشة المنقطة، صورةُ والدكَ بزيّه وعينيه البدويتين الكبيرتين والمدورتين.

- ماذا تريد؟ - سألَ السكّيرَ الذي كانت شفتاهُ تغطيهما القشور وتتمددان في ابتسامة مطاطية وأخوية - ليس لدي مال.

وردّاً على ذلك، فتحَ الرّجُل كُمّيه ليعانقه في اندفاع حماسي حتى كاد يسقط على ظهره فوق مرمر العتبة: المهرج الغني والمهرج الفقير، فكّرَ أمام الحذاء الضخم للآخر، في سيرك من دون جمهور، يضيئه مصباح سقفي مهترئ. بصعوبة، أخرج السكيرُ من جيبه مطوية كلها دهون ومن دون غلاف:

- صديقي - أعلنَ بصعوبة وهو يحرك مزهواً أوراقاً تغطيها الدهون - إنني أهديك **الحياة الخالدة** مقابل عشرة إشكودو: من ذا الذي لا يملكُ عشرة إشكودو لينقذ روحه؟

كان خيط من الدم اليابس يعبر خدّه الأيسر، وبطانة معطفه تظهرُ عبر تمزقات القماش: لم يكن غجرياً، ولا بائعاً متجولاً، ولا، كما يبدو، واحداً من طائفة شهود يهوه، بل قناصاً من قناصي **الخلاص**.

- شكراً جزيلاً - قال معتذراً - ولكن ماريليا لديها طبيب، سوف نذهب لزيارته يوم الثلاثاء. هذا من أجل طمأنتها، هل تفهم؟

- نزيف حاد، هذا ما تؤكده يا سيدي؟ - سألت المرأة ذات الشعر الأشيب - كلا، لا أذكر، كان كل شيء يمضي على ما يرام.

- وماذا لو أنني لا أرغب في **حياتك الخالدة**؟ - قلتُ - ماذا لو تعبتُ من كل هذه القذارة؟

مستاءً، لطم السكيرُ كفّيه على فخذيه بقوة كبيرة حتى أن سحابتيْن من الغبار تصاعدتا من سرواله. ثم انفصلت قطعة وحل يابس، مثل قشرة، عن قميصه:

- سيكون الجحيم، يا عزيزي - وعده بتكشيرة مأساوية - سيكون أول قطار سريع ينطلق باتجاه اصطكاك الأسنان.

- زْوي - قالت ماريليا من الغرفة.

يُفَكِّرُ **هل** ستتمكنين من شرب الشاي وحدك؟ ثم يتخيّلُ أصابع نحيفة بأظافرها البيضاء تتحسس من دون قوة الفنجان، الفم الفاغر مثل أفواه طيور تنتظر. كانت ريح الليل تُحرّك من حولهما أعشاب البئر، مُعيّنُ ظلِّ البيتِ التهمَ البحيرةَ المبلطة بالزليج وأسماكها البلاستيكية، الكراسي الطويلة المنسية، الدراجة الثلاثية لأخته الموسيقية، الملقاة على جنبها مثل دابة ميتة، ترفعُ في الهواء قوائم عجلاتها. من أكواخ الخم التي تفوح برائحة التبن والبراز كان يأتي صمتٌ ناعم مثل صمت البيض حين يستريح. كانت أقرب الأشجار تطلق همساً مثل القيثارات، مدَّ والدُه إصبعه نحو البقعة المزرقّة، المعتمة، المتحركة من الغابة:

- لقد ذهبَتْ لتَنامَ.

في الصالة كان هناك ألبوم يعج برسومات رجال عراة مُجنّحين، بصقور لها جذوع بشرية، بكثير من الأشياء الممزوجة الغريبة، مثل السنتورات، والأشخاص والطيور: **ماذا** لو أن أمي نهضت عن المائدة الآن، فكَّرَ، وأخذت تحلق، مثل دُرّة قلقة، فوق صحون الحساء؟ لم يسبق له قط أن ذهب إلى الغابة لأنها كانت بعيدة جداً، في ضيعة أخرى، يحيط بها سياج من الأسلاك الحديدية في بعض المواقع وسورٌ تعلوه قطع زجاج مكسور في مواقع أخرى، كان يستند

إلى عمود كهربائي ليشاهدها، مفتوناً، فيتخيّلُ كائنات غريبة يغطيها الريش، تقفز، تنعق في سُمْكِ الأشجار الغامض.

- الجحيم، أيها البليد، الجحيم - أقسم السّكير وهو يحاول أن يجثو على ركبتيه عند العتبة. كان الخبز اليابس ينفخ جيبيه مثل خرجيْن، والقشرة والدهون تزيد من حجم الشعر فوق جمجمته - أما **الحياة الخالدة**، أيها البليد (حركة لولبية منمقة تلخص نِعَم الجنة التي لا توصف) فذلك شيء مختلف، على أي حال. سبعة إشكودو ونصف، يا صديقي؟

- لقد ذهبتْ لتَنامَ - كرّر والدُه - حتى يوم الغد صباحاً لن نرى منها ولا طائراً واحداً.

- هيا ارحل من هنا - طلبتُ من السكير - امرأتي البورجوازية مريضة.

- خمسة - اقترح الآخر - خمسة إشكودو لا قيمة لها مقابل سعادة لا تنتهي. هيا، سيدي المُذنبُ، لا تكن بخيلاً.

بعينين مغمضتين كان يرى طيور الألبوم الغريبة تقلع محلقة من نهر فوغا، تتجه نحو النافذة، تبتعد، وتقترب من جديد. ضباب من الغبار يخرج من أجنحتها الكبيرة، قشور خبز كانت تسقط أحياناً من جيبيْه، جفناهُ الأرمصان يبحثان عنه بنظراتهما. غازات تجري داخل أمعائي مثل فئران فوق أرضية خشبية في العلّية، سائل لاذع ينزل قطرةً قطرةً على معدتي، وفي عمق فمي بدأ سنّ يؤلمني. بحث عن قطعة نقدية بسيطة في جيبيْه فاقتربَ منه السكيرُ بنظرة جشعة، يدفعه الطمع. اكتسى صوتُ صهره نبرة مريرة:

- أظن أنك تمنعني من دخول بيتك. أتمنى أن تتمتع بحس سليم ولا تضع قدميك في منزلي.

- اتّصلَ بجايْمي يطلب منه خدمة لكنه، فوق هذا كله، بدا فظّاً للغاية معه - اشتكت أخته الكبرى، ومجلّةٌ موضة فوق ركبتيها - طبعاً، بعد كل هذا قطعنا أي صلة به.

- كما ترى - قال الخُفّان - شكوكك لا أساس لها. أنا أشتغل فقط في مستشفى الولادة، يا سيدي العزيز، وأبنائي يشغلونني هنا بكثير من العمل.

- خمسة وعشرون سنتيماً - طلب السكير وهو يحاول أن يتشبث بذيل معطفه بأصابعه الرخوة - خمسة وعشرون سنتيماً ولا نتحدث عن هذا الأمر مرة أخرى.

- في أسرتنا، لدينا نظرة للأمور محافظة بعض الشيء - همست أختُه الموسيقية، كما لو أن والديها يمكن أن يسمعا ما تقوله - لو حدثتهما عن حكاية الشيك، قد يصابان بصدمة، هذا أكيد.

الرجل الذي يقطن في الطابق السفلي، شخص يمارس الجودو ويصعد دائماً السلالم في قفزات متتالية، يحمل حقيبة رياضية فوق ظهره، محتقراً المصعد، خرجَ يتحدث مع ابنته، فشجعه حضور هذا الرياضي اللطيف للغاية، الذي يُحيّي الجيران بتفضُّل مفتول العضلات، وغرس في نفسه الشجاعة الضرورية لمواجهة العناد الرخو والبطيء للسّكّير.

- لا أملكُ ولا سنتيماً واحداً - قال باتجاه السلالم على أمل أن يسمعه الرجل الخارق وتخترق نظراته الأدراج مثل أشعة سينية - ابتعدْ من هنا، لقد قلتُ لك إن زوجتي مريضة.

المتسولُ الذي ظلّ جاثياً على ركبتيه فوق العتبة محدقاً فيه بعينين رمصاوين متوسلتين حاول أن ينهض على عقبيه المتهالكين لكن حذاءه انزلق فوق الرخام، وفقد توازنه، فتناثرت أوراق الكتاب فوق

الأرضية، وحتى لا يسقط تشبث به، وتمسك يائساً (ما الذي يحدث؟ ما الذي يحدث؟ صحتُ مفزوعاً) بسرواله.

- لا شيء - قالت ماريليا من بعيد بصوت حاد - ولكن إن لم تسرع لتناول وجبة الفطور، فسوف تبرد.

واقفةً، ترتدي قميصاً، قرب سريري، كانت تتمسك بفخذيَّ، ومعالمُ وجهها تتضح شيئاً فشيئاً تحت الصوف المنفوش لشعرها. داخل إطار النافذة الذي تحفُّه هالة ضوء رمادي، كانت النوارس تنزل فوق الماء في مجموعات كبيرة هندسية الشكل. كانت قطع الأثاث تستعيد تواضعها البني الأخضر الذي هو من طبيعتها. قارب صغير يبحر نحو المصبّ.

- أمضيتُ الليلة أتقيأ - قال محتجاً - قطع الكبد المقلي في المطعم القذر بقيت جاثمة على معدتي.

بدت له أطرافه مجردة من العظام، عرق مزعج، لزج مثل ورق الحلوى، يُلصقُ الغطاء بظهره. جلس فوق الوسادة وتفحص، مقزّزاً، سلة الخبز: هلاليات، خبز بالحليب، كعكة بالسكر، أقراص خبز عادية لها حلمات مثل حلمات راقصات التعري. وبداخِله، هاجساً، لا يرحم، مريراً، قاسياً، خطابُ الفراق المتلعثم الذي يعترف أنه عاجز على النطق به. شربَ جرعة قهوة، أبعد الفنجان بظهر يده، ثم التفت برأسه نحو البحيرة (كم هو ثقيل دماغي، فكّرَ، كيف يتعثر دمي في عروق أذنيّ): حجابُ السحب المعلق، خفيفاً وباهتاً، يقترب: بعد بضعة أيام سوف يبدأ المطر.

*

توفي زْوي س. باحث وأستاذ مساعد في كلية الآداب بجامعة

لشبونة. زْوي س.، الذي كان لنا شرف إدراجه ضمن خلية المساهمين في «مجلة التاريخ» لطلبة كلية الآداب، توفي بشكل مفاجئ في أفيْرو، في العاشر من الشهر المنصرم. كان في سن الثالثة والثلاثين. يتحدر من عائلة معروفة في الأوساط المالية وغيرها، كان يحصل دائماً على علامات مناسبة في الثانويات التي درَس فيها حيث سرعان ما تميز ببساطة المعاملة، عمق الذكاء والثقافة الفريدة. وتعود كتاباته الأولى (التي تحفظها أيادي صديقة بورع كبير) إلى هذه الفترة، وقد نشرها على شكل قصص وقصائد في جريدة الطّلبة الحائطية التي كان يشغل فيها مهمة نائب المدير، وتشهد على فكر فضولي قوي رافقه من دون فتور طوال حياته التعيسة (حسب شهادة من تقاسموا معه حياته الخاصة). بعد نهاية الدراسة الثانوية، تسجل في شعبة التاريخ بكلية الآداب، كاسراً بذلك، ربما بطريقة مفاجئة، تقليداً عائلياً من الاقتصاديين والمسيرين المرموقين، حتى يتكرّس للدراسة والبحث في بعض الجوانب الأقل شهرة من أمجاد شعبنا الضاربة في القدم، محاولاً لأجل ذلك مزْج الجوانب السيكولوجية والاجتماعية، وحريصا على أن يشرح سبب الظواهر التاريخية من خلال فحص متأن للوجه الحميمي والخفي لمن لعبوا أدوارها الكبرى. وكمثال لافت على هذا المنهج بحثُ الإجازة الذي أنجزه في موضوع «**دون أنطونْيو الأول، حكاية انتحار جماعي**» (طبعة منسوخة محدودة في عشرين نسخة، س/د) أو مقالاته القصيرة التي نُشرت من قبل على صفحات مجلتنا: «المثْلية المستترة في شخصية دون ميغيل» (١٩٦٨)، «ماريا دا فونتي وصراع الطبقات» (١٩٦٩)، و«المقاومة الشعبية من خلال الغزو الفرنسي» (١٩٧١)، التي عرَّضته، كما نظن، لبعض المضايقات من طرف الرقابة القمعية

والقاسية للدولة. وفي نفس الفترة، قام، بموازاة ذلك، بنشاط سياسي شجاع (كان يوزع مناشير ونسخ البلاغات) بصفته كاتباً **لقسم قطاع الترفيه بجمعية الطلاب** داخل كليتنا، وهو المنصب الذي سيستقيل منه لاحقاً بسبب الخلافات الجوهرية المتعلقة بالتوجه الذي ينبغي أن تتخذه المقاومة الطلابية على امتداد الليل الفاشستي الطويل الذي عبَرناهُ بألم كبير. بعد حصوله على الإجازة، التحق مساعداً بهيئة التدريس في المدرسة التي كان قد مارس فيها مهمة مدرّس بقسم «التاريخ الحديث ٢»، ليُنضجَ من خلال تحليل متأن للعوامل الاقتصادية (كان متمكناً بدقة نادرة من النظريات الماركسية التي احتفظ تجاهها، مع مرور الوقت، بمسافة نقدية نزيهة) تصوراته الشخصية، خاصة ما يتعلق منها **بالجمهورية الأولى** التي كان شارحاً شغوفاً لها. هكذا نشر على التوالي «وصف سيكولوجي لمانويل أرياغا» (مجلة *Historia*، عدد ٣، ١٩٧٤)، «تيبوفيلو براغا والمذهب الشيوعي» (جريدة *Jornal de Ideias*، عدد ١٢، ١٩٧٦)، «من محاضرات الكازينو إلى الخامس من أكتوبر» (وثيقة منفصلة من *Momenta Historica*، ١٩٧٦)، «تطور مفهوم الملكية عند رامالْيو أورْتغاو» (مجلة *Historia*، عدد ١٠، ١٩٧٨)، «أنطونْيو جوزي دي ألمايْدا، مسار حياة» (مجلة التاريخ، عدد ١٧، ١٩٧٩)، **الأصول السياسية الاجتماعية لاغتيال الملك** (طبعة على نفقة المؤلف، ٥٧ صفحة، ١٩٨٠)، «من دكتاتورية فرانكو إلى الجمهورية الدستورية» (جريدة *Jornal de Ideias*، عدد١، السلسلة ٢ ، ١٩٨٠)، دون أن يكمل مع ذلك أطروحة الدكتوراه، التي ما زالت من دون عنوان، حول فكر سيدونْيو بايش، التي نأمل أن ننشر منها بعض المقاطع المهمة، إذا ما حصلنا على موافقة أرملته المبجلة أو أحد ممثليها.

بموازاة ذلك، وتحت الاسم المستعار «ألبرطو جوديس» في طبعة على نفقة المؤلف، نشر ديوانين شعريين قصيرين لكنهما كثيفان، لم يتأكد، مع الأسف، تقبلهما الأكيد في الأوساط النقدية بتعاطف جمهور القراء المتقلب على الدوام: **عودة بروميثيوس** (١٩٧٦) و**خلو العرش من أجل الحب** (١٩٧٩)، بالإضافة إلى مجموعة قصصية تحت عنوان **مسار معلّق** (١٩٧٧)، في طبعة محدودة لم تحظ، بالإضافة إلى رغبة الكاتب الصريحة في ذلك، بتوزيع في المكتبات، لكننا نعرف أنها نالت أحر التصفيقات من كتّاب مرموقين مثل فرناندو نامورا[١]، فرجيليو فيريرا[٢]، جوزي كاردوزو بيريش[٣]، وأغوستينا بيسا لويش[٤]. في مهنته مدرسا، كان زْوي س. يعوض بعض الصعوبات في التعبير الشفهي (أمر عادي لدى العقول المتميزة) بمواهب نادرة من اللطف والدفء الإنساني، بموسوعية كبيرة وتمكن حقيقي من المواضيع التي يُدرّسها، مواهب سرعان ما نال بها تعاطفاً وديّاً من الطلاب كان أكبر دليل على ذلك الكنية اللطيفة التي أطلقوه

---

(١) فرناندو نامورا (١٩١٩-١٩٨٩)، طبيب وكاتب برتغالي تناول في أعماله الروائية والشعرية مواضيع مختلفة من وجهة نظر اجتماعية وإنسانية. (المترجم)

(٢) فرجيلْيو فيريرا (١٩١٦-١٩٩٦). انتقل هذا الكاتب البرتغالي من الواقعية الجديدة إلى التيار الوجودي من خلال عدة أعمال روائية وقصصية. (المترجم)

(٣) جوزي كاردوزو بيريش (١٩٢٥-١٩٩٨) روائي برتغالي حولت بعض أعماله إلى أفلام سينمائية. (المترجم)

(٤) أغوستينا بيسا لويش (١٩٢٢-٢٠١٩)، كاتبة برتغالية تعددت مشاغلها واختلفت الأجناس الأدبية التي مارستها. تهتم بالذاكرة الجماعية البرتغالية وتطرح أعمالُها مواضيع ذات طابع اجتماعي وتاريخي. (المترجم)

عليه، «عجلة ميشلان»، وأنعموا بها عليه من دون تأخير بسبب شكله البدين وطبعه المتساهل. ورغم طبعه المنطوي والخجول، لم يكن الأستاذ المتوفى يرفض أبداً استقبال الطلبة في أروقة الكلية، في مكتبة المؤسسة بل وحتى في بيته المضياف، ليناقش معهم أصعب النقط في برنامج المادة التي كان يُدرّسها بقرار من مجلس إدارة المدرسة. من دون أي طموحات مادية، كان يعيش بطريقة غاية في البساطة، حتى لا نقول في التقشف، التي ربما تجد تفسيرها في أيديولوجيته اليسارية، مع أنه لم يكن منخرطاً في أي حزب، على الرغم من أنه في فترة ما من حياته القصيرة كان يعتبر مناصراً متحمساً للمادية الجدلية، التي اتخذ منها مسافة في مقال نُشرَ بمجلتنا تحت عنوان «الديمقراطية والاشتراكية: خلطٌ ينبغي تجنبه»، وهو الذي شرفنا المونسنيور أسقف براغا باقتباسه في خطبة عيد الفصح. أما كاتب هذه الأسطر من دون ادعاء، مدير «مجلة التاريخ» وأمين مال «الحركة الكاثوليكية الجامعية في لشبونة»، الذي كان يكنُّ للمعلم المتوفى إعجاباً ودوداً، فقد تحدث عدة مرات مع زْوي س. حول المذهب الاجتماعي للكنيسة وما جاء في المنشورات البابوية الأخيرة، ليجد عنده فهماً واعياً وأيضاً، كما يجرؤ على تأكيده، تشبثاً ضمنياً (رغم أنه لم يعلن قط عنه صراحة) بمبدأ الشخصانية المسيحية وإمكاناته، بوصفه السبيل الوحيد للوجود في الكون بالنسبة للإنسان المعاصر، لينهي من دون السقوط في المغالاة المظالم الاقتصادية والسيكولوجية الفظيعة التي تميز الحضارة المعاصرة. كنتُ أسكنُ في شارع سامبايو بّينا، بالقرب من بيته، ومن حين لآخر، إن رأيتُ الضوء مشعلاً في الطابق، أدق الجرس في الأسفل، فينفتح الباب منصفقاً كالغطاء، أصعدُ فأجد هناك نظارتيْه الغامضتين، يديه

المترددتين، ابتسامته التي يبدو أنها دائماً تطلب العفو من ذاتها، الكتب المتناثرة كما اتّفق في كل مكان، اللُّعب المعدنية، والفوضى الأبدية للجرائد. كنا نجلس لندردش على كراسي شاطئية باهتة الألوان قرب مدفأة مطفأة، ورغم أسرته الغنية لم أفهم قط ذلك الديكور المغرق في استعراض البؤس، تلك الفناجين المشرومة، تلك الحصائر الممزقة، تلك القطع من أثاث الخردة التي تشدُّ توازن قوائمها قطعٌ خشبيّة أو من الورق المقوى. أين اكتشف، يا ترى، كل هذه المجموعة من القطع القديمة كريهة الرائحة، فكّرتُ، طرّادة الماء في المرحاض، مثلاً، صدئة ملتوية، كانت معطلة، حوض المجلى كان مُنسدّاً على الدوام، مذياع من أقدم طراز في ركن على الأرض يلقي نحو الخارج أحّات وصفيراً، الملصقات المثبتة على الجدران تصْفَرُّ مع مرور الوقت، كاريكاتورات، صور، عمال معامل صلب يشهرون قبضات يد مفتولة العضلات: شيوعي خجول؟ متسكع لا يقبل وضعه؟ النعجةُ السوداء التي يحتاج إليها أصحاب المليارات ليقدموها مثالاً لذريتهم؟ كان الرجل ينظف نظارتيه بطرف قميصه بحركات فرك بطيئة، عيناه العمياوان تبدوان لي متجهتين نحو الداخل مثل عيون الطيور داخل الأقفاص، يقدم لي خمرة فظيعة في كأس صغيرة ينفض عنها مسبقاً الغبار كمن يطفئ شمعة عيد الميلاد، **ألا** تريد أن تتذوق شراباً، ألا تريد أن تبلل لسانكَ، كانت ابتسامته الطفولية تطفو في الصالة كأنها حضور شخص توفي للتو، ينطق بجمل نادرة، ثم ينساني تماماً فيهيمُ ساهماً في متاهة داخلية لا بد أنها تعج بالنفايات الحزينة والكتب التي نخرتها الديدان المتراكمة في البيت، يوماً ما سوف أجلب لك جدجداً ليبهج قصرك، وعدتُه ذات مرة، جدجداً، حرباء، كنارياً، أي طائر، وعندما حدثتُه عن الطيور

نظر إليّ مندهشاً دون أن يجيبني، فرْقَعَ مفاصلَ أصابعه كْلاكْ كْلاكْ كْلاكْ، نهض، ألا تود أن تملك، ما أدراني، ببّغاء، الححتُ، حَسّوناً، دُرّة، واحداً من هذه الحيوانات الصغيرة التي تصيح تررو تررو، فظلَّ صامتاً، أنفه على الستائر المخرمة للنافذة. الصباحُ في حيّه لم يكن فيه ولا حتى حمامٌ، فقط نساء مسنات بسلال تبضّع بلاستيكية، يعدن إلى بيوتهن، فقط عمارات باهتة وقبيحة، فقط كآبة من دون أمل في الهواء. فكّرتُ على الأقل لو كنا نرى النهر من النافذة، على الأقل لو أن خيط ماء يدخل إلى الصالة، ثم إنه، كما تعرف، كانت هناك تلك المرأة البذيئة والرقحة التي تعيش معه، تلك الشعثاء، تطفئ سيجارة بعد أخرى في منفضة خشبية، تصارع القدور هناك في المطبخ، تنظر إليه، في نظري، بهدوء من دون حنان، وذلك الأبله لا ينتبه حتى إلى أنها لا تحبه، أنها تزدريه، أنها مستعدة لتستبدله بأول شيوعي ملتهب له لحية يظهر أمامها، لأن تلك المرأة، يا إلهي، لم يكن ثمة من يشك في أنها كانت تريد أن تضع قدماً حافية في سلم السلطة، كانت هي أيضاً تُدرّسُ في الكلية لكن وحدهم الملحدون والمجانين كانوا يتابعون دروسها، أشخاص مشؤومون بعيون صفراء يتآمرون في الزوايا باسم البروليتاريا، وأحياناً، عندما كنا نجلس على الكراسي الطويلة نتحدث ونشرب القهوة، كانت المرأة تقترب من الباب، دون أن تنبس بكلمة، على شفتيها ابتسامة صغيرة ساخرة، أو تُكوّم كلماتي وترميها في سلة الأوراق بحجة حاسمة، وهكذا يا عزيزي ما تقوله لا يساوي شيئاً، فينظرُ هو إليها بتَيْنك العينين المحايدتين، الكامدتين، الفارغتين من الحماس والأحاسيس، يداه فوق الركبتين، جسدٌ بدين كأنه يتطلّعُ (لماذا؟)، ابتسامته متحجرة كأنها تتطلّعُ (لماذا؟)، أنفه يتصاعد منه

الهواء كأنه يتطلّعُ (لماذا؟)، وأنا أُفكّرُ يستحيل ألا ترى أنها لا تحبّكَ، أنها تتلاعب بك، أنها لا تبالي بك، أنها تكرهُك، ولا تهمها في شيء ما تساويه أو ما لا تساويه. تذهب المرأة وهي تجرجر بسخرية حذاءها الخشبي في الممر، ما رأيُكَ في هذه الخمرة؟ كان يسأل كي يملأ الصمت، منعني الطبيب من تناول المشروبات الكحولية بسبب التهاب كبد قديم، منعني من الدهون، والانفعالات، والتمارين الرياضية، والحساء على الطريقة البرتغالية، منعني من كل ملذات الحياة، إلا من الحديث معك عن التاريخ، عن فيليب الأول، فيليب الثاني، فيليب الثالث[1]، عن ١٦٤٠[2]، عن ١٩٠٨[3]، عن كل هذه التفاهات العالمة التي أمقتُها، لكن ما الذي كان يريده حقاً، ما الذي كان يرغب فيه، بماذا كان يشعر؟ كنتُ أتساءل، معدتي تحترقُ وعيناي الكِبْرِيتيّتان تدمعان بسبب تلك المادة غير القابلة للوصف التي كان يفرضها عليّ دوماً في تلك الكأس المجهرية التي ينفض عنها الغبار، لديّ قفص حمام فوق السطح، قلتُ له وأنا أنظر إلى حذائه غير الملمَّع، تشقه تجاعيد من كثرة الاستعمال، لماذا لا تقوم بنفس الشيء كي تتسلى؟ ولبعض ثوان بدا لي وجهه أكثر حيوية وحركة، ارتعشت وجنتاه، تمددت خياشيم أنفه

---

(١) من أسرة آل هابسبورغ الذين حكموا إسبانيا بين القرنين السادس عشر والسابع عشر. (المترجم)

(٢) في سنة ١٦٤٠ انفصلت البرتغال عن الإمبراطورية الإسبانية واستعادت العرش بعد أن ظلت خاضعة لحكم آل هابسبورغ في مدريد منذ سنة ١٥٨٠. (المترجم)

(٣) في سنة ١٩٠٨ وقعت أول محاولة لإسقاط الملكية في البرتغال لكن النظام الجمهوري لم يبدأ سوى سنة ١٩١٠. (المترجم)

انتباهاً، أحبُّ الطيور، قال بصوت قادم من بعيد جداً، صوتٌ فضوليٌّ وطفوليٌّ، صوتُ طفل يبحث في الظلام عن أذن مُصغية، أحبُّ الطيور رغم أنه لم يشرحها لي أحد قط، كفّ أبي عن الاهتمام بها منذ زمن طويل، إنه يجمع صغار التماسيح في مسبحه، لقد أسرَفْتَ في الشرب، فكّرتُ، وجئتَ الآن تحدثني عن التماسيح والمسابح، كادت تقطع رجل أختي، تابعَ محدقاً في طرف الحذاء، غطست في الماء وهي تصعدُ كان تمساح معلقاً بفخذها، لا يمكن أن تتصور كم من الأسنان تملك هذه الحيوانات، بيضاء، مثلثة، صغيرة، حادة مثل السكاكين، من يريد شاياً؟ صاحت السليطة من المطبخ، صيحةٌ رددتها المقالي وبلاطات الزليج، اختفى الحمَامُ من الصالة في تحليق صامت، قلتُ لا بإشارة من رأسي، أنا، حبيبتي، صاح صيحة رخوة، محبطة، لا عظام فيها، أنا، حبيبتي، كرّرتُ داخل أعماقي، أيّ قطّ مخْصي صرتَهُ، إن كان لك أنت فقط، لا داعي لذلك، زعق الصوتُ، أتمنى أن يكون هناك أشخاص آخرون يهمهم ذلك، وبعد ثوان سمعتُ الحذاء الخشبي يحدث كْلوكْ كْلوكْ نحو الغرفة والباب يصفقُ ويغلق بعنف، لقد اختبأت دخل أسوار قفصها لتنام، فكّرتُ، ولتوضح لي أن الوقت صار متأخراً، لا بد أن تضطجع فوق حزمة تبن، فوق غائطها الخاص وعظام الخرفان، أو العجول، أو الحمير، التي يرمونها باتجاهها من بين القضبان، خمسة إشكودو للذهاب لمشاهدتها يوم الأحد، الدخول بالمجان بالنسبة للأطفال والجنود، اللبؤة الشيوعية في السيرك الأمريكي، الأمازونة الثورية، حفيدة إنْجلز تحكّ إبطيها داخل القفص، نهضتُ، نهضَ، نهضْنا، بقينا لحظة واقفين وسط أنقاض الصالة، وكان لا بد من المشي مثل اللقالق حتى لا ندوس الأوراق، أو العلب الكرتونية، أو أكوام الكتب، نمشي

كمن يقفز بخرق من حجَرٍ إلى حجَرٍ، حتى الرواق الضيق، **فكّرْ** في حكاية الحمام هذه، نصحتُه وأنا أودّعُه، ربما تجد تفسيراً وحدك، وبينما أنا أنزل في المصعد بقي وحده، ينظف نظارتيه بطرف القميص، شعرُه مبعثر حول جبينه، شكله منذهل كأنه استيقظ للتو، اللبؤة الشيوعية تنتظره في عتمة الغرفة، تحرك برائنها في التبن العفن للأغطية. ترك المؤرخُ سيّئ الحظ أرملة وطفلين قاصرين من زواج أول. تتقدم «مجلة التاريخ» الخاصة بطلبة كلية الآداب إلى العائلة المكلومة بخالص التعازي.

*

جلس فوق الهالة البلاستيكية للمرحاض وأغلق الباب: كان نفَسُ ماريليا في الحمام ما يزال يغشى المرآة، وكان وجهي شكلاً غامضاً مبيض اللون، يشبه بيضة القمر غير الواضحة وسط الضباب، أو بقعة المدينة بعيداً، فكّرَ، في الجهة الأخرى من نهر فوغا، تكسرها طبقات متتالية من الضباب، مقلوبة رأساً على عقب في الفضاء الداكن، غير المحدود في البعد. يُفَكِّرُ أحلقُ وجهي، آخذُ حماماً، أنظف أسناني، أخرج، بينما أنتِ تنتظرينني ممددة على السرير، روايةٌ بوليسية فوق صدرك، عنوان بحروف بارزة، غلاف زاعق، رجل وامرأة ممتلئة الصدر يتبادلان القبل بوقاحة. فتحَ الصنبور فانبجس دفق ماء شفاف متدفقاً من عل، من قرب السقف، يكبحه ستار بأزهار صغيرة، قبل أن يرتطم بالسجاد المطاطي في الحوض ويشكل بركة تتمدّدُ: عندما كنتُ صغيراً كانت أمي تأتي لتراقب استحمامي، تفركني بإسفنج مدور، تمرّرُ يداً سريعة ومحايدة، مثقلة بالخواتم، فوق ذيْنك القنفذين اللذين يشكلان خصيتيَّ: اغسل

جيداً أذنيك، اغسل جيدا عنقك، اغسل جيداً حبل سرتك. لا تنس أن تغسل مؤخرتك بعد أن تتغوّط. اختفت الحموضة بشكل تام تقريباً، تقلصت آلام المعدة إلى إحساس بعيد، تافه، يمكن تحمله: من جديد بصحة جيدة ومن دون أعذار، من جديد بيوم سبت طويل لا ينتهي في انتظاره. كانت الشفرة تقطع بشكل سيّئ، رغوة الحلاقة لا تلتصق بذقنه، منْتول معجون الأسنان يحرق لسانه، فجلس على هالة المرحاض البلاستيكية يجفف الشعيرات الداكنة من جسده بمنشفة خشنة، في حركات دائرية تتوسع، مثل تجاعيد بئر يلقي فيها أحدهم حجراً يسقط فوق السطح الناعم. ملفوفاً في ملاءة حمام باهتة، رآكِ، رأيتُكِ: لم تكوني مضطجعة على السرير، لم تكوني تقرئين، كنت تلصقين أنفك بزجاج النافذة، يداك وراء ظهرك مثل شرطي صارم، تنظرين غير مبالية إلى رطوبة الصباح.

- لم أعرفها جيداً، لستُ أدري - قالت الأخت الموسيقية في قاعة الدرس الفارغة، التي كانت تصطف على مقاعدها دفوفٌ، وطبول، وصنوج، ومثلثات، ومزامير خشبية، يضيئها النور الأخضر للنوافذ - كانت شخصاً منطوياً على ذاته، لم نتحدث قط تقريباً، وبعد موت أخي لم أرها ثانية. من حين لآخر، أقرأ اسمها في الجرائد حيث تقوم بعرض كتُب التاريخ، سمعتُ أنها تعرضت لبعض المضايقات في فترة ما في الكلية بسبب انتمائها إلى **الحزب**. لكني لا أظن أنها مسؤولة في شيء عن موت أخي.

- خُدام موسكو - أعلن كارلوس بشكل رنّان - هم أكبر المسؤولين عما صرنا عليه من بؤس: نقابات، إضرابات، قساوسة عمال، مظاهرات، كل هذا الهراء. لحسن الحظ أن جمعية الصناعات يقظة: البرتغاليون لا يرغبون في أن يكونوا أذيالاً للرُّوس.

هكذا تماماً، يا ماريليا: مرتديةً ملابسك كاملة، تديرين لي ظهرك، مسمرة فوق حذائك الخشبي (هل سبق لي أن رأيتك تنتعلين حذاء مختلفاً) تتفحصين الضباب بعيني أميرال فارغتين، عينيْ حيوان ثديي محنّط أو قطّ متوحش في متحف. غالباً ما كنتِ تظلين على هذه الحال في الأوقات الأخيرة، شاردة، ساهمة، قصية، تتفحصين كامبو دي أوريكي ثلاثة طوابق نحو الأسفل، واجهات العمارات المقشرة، الهدوء المعتاد العفن، ولم أستطع قط أن أتكهن بما تجترّين، ما يدور بخلدك، مشاريع، ذكريات، شعور بالذنب، أفراح، ما يبرحك أو يداهمك في مدّ وجزر: كما هو الشأن الآن، يُفَكِّرُ، متغربة، أمام البحيرة، داخل إطار الضوء اللبني لزجاج النوافذ على طريقة صورة فوتوغرافية قديمة.

- هيا بنا نتناول الغداء في مكان ما - قالت فجأة - أريد أن أتحدث معك.

استدرتِ نحوي، ولأول مرة خلال كل هذه السنوات، وجدتُك جميلة تقريباً، من دون عيوب تقريباً، جذابة تقريباً: لم يكن غودار، ولا السينما الأمريكية، ولا الرواية الجديدة، ولا شهور السجن قبل ٧٤، ولا معرفتك بالتعبيرية التجريدية، ولا تجربتُك مع الشرطة الدولية للدفاع عن الدولة أمام جهلي المخجل: كنتِ أنتِ وحدك، طيفكِ على صفحة الماء، عيناكِ الجافتان، الحادتان، الباسلتان، يداكِ البدويتان الضخمتان، الجامدتان فوق تنورتكِ، تشبهان قائمتَي طائر متجعدتين.

انتهت المرأة ذات الشعر الأشيب من ترتيب محفظتها، أغلقتها بمفتاح، ونهضت:

- هل تعرف ما أرغب فيه في يوم كهذا؟ - قالت بابتسامة قبيحة

تكشف عن حالة أسنانها السيئة - ألا أمارس النضال، أقسم لك، وأكتب أشعاراً. لكن لا تخبر أحداً، هذا سر.

أدخلتُ القميص في سروالي، لبستُ البلوفر من رأسي، سحبتُ سداد معطفي ذي المربعات الذي كان يمثل بطريقة ما التزامي بزيّ سياسي، وانخراطي المتشكك والمتردد مع الطبقة العاملة: **أستاذ مساعد في كلية الآداب يرتدي ملابس سمكري**: فهل يكفيني هذا، هل أكون في سلْم مع ذاتي، هل أفلح هكذا في تهدئة هذا الشيطان الصغير الملح بذنب ما كان ينبغي أن يكون ولم يكن؟

- أكتب أشعاراً - ألحت المرأة ذات الشعر الأشيب ويدها على مقبض الباب - كلا، بكل جد، أقضي ساعات طوالاً من الظهيرة في «بوكا دو إنفرنو» أنظر إلى البحر، أجلس في أرصفة المقاهي، أدردش مع أجانب، أزور المتاحف، وأترك الثورة تتحقق وحدها. على أي، هل تعرف، سوف تتحقق.

- آه أمي - قال متحجحاً - في إيطاليا، مثلاً، هناك حشود من الشيوعيين يحضرون القداس.

- إيطاليا ليست هي البرتغال - قاطعته أخته الصغرى وهي تحرك السكر في القهوة بحركات دقيقة - وقد قال بابا ما ينبغي قوله بهذا الخصوص، فلا تتفوه علينا بهرائك الماركسي هذا.

يُفَكِّرُ، مستقيمةً، عنيدة، مصممة، تنظر إليّ في غرفة نُزل أفيْرو كيف تحديْتِ أسرتي خلال ذلك العشاء في بيت والديّ، وأنا ممزق، قلق، من دون عزيمة، أحشائي تقطعها آلاف السيوف القاسية، وسط الأواني التي تلمع والضوء الهادئ للمصابيح، من دون ثقل، كأنها تسير على غير هدى.

- هيا بنا نتناول الغداء في مكان ما، أريد أن أتحدث معك.

منذ متى لم نعد نتحدث، يا ماريليا، منذ كم شهر ونحن نعيش جنباً إلى جنب في صمت راكد يتزايد؟ يُفَكِّرُ نستيقظُ، ننهض، نأكل، نخرج، نعمل، ننام: وحين نلتقي في أروقة الكلية كُنّا غريبيْن، لا نتبادل ولو نظرة متواطئة، ولا خيطٌ خفي يربطنا. يُفَكِّرُ حين يقولون لي زوجتُكَ أظل معلّقاً، واقفاً، مندهشاً مذهولاً. هل تكون زوجتي هي هذه المرأة الذميمة ذات الملابس القبيحة، التي تكبرني بخمس سنوات، مسمرة فوق حذائها الذكوري الفظيع، تلصق على الجدران نداءات إضراب، تتبعها مجموعة من الطلبة العنيدين الخنوعين، المؤيدين لاشتراكية مبسّطة؟ يُفَكِّرُ لو أن والديْ توشا رأياكِ معي، لو أن توشا رأتكِ معي، لو أن طفليّ رأياكِ معي، قد يديرون رؤوسهم، وينخرطون في حركات معقدة حتى لا يتحدثوا إليّ. يُفَكِّرُ ما زالت ديدان البورجوازية تنخرك، تُقوّضك، تتحكم فيك. يُفَكِّرُ لا أستطيع أن أجعل قشور الأشياء تكف عن كونها أكثر أهمية من الجوهر بالنسبة لي. يُفَكِّرُ، اللعنة، لماذا ينبغي أن تشغلني المظاهر إلى هذا الحد؟

- هل قرأت، مثلاً، ما قاله أسقف مدينة بْراغا بهذه الخصوص - سأله طبيب التوليد، وابتسامة انتصار تعلو محياه - لماذا لا تستخبر الأمور قبل أن تتفوه بأول كلام منمق يخطر على بالك؟

لم تجيبي بأي شيء، يا ماريليا، لم تكوني تدافعين عني، أنفُكِ المبرقع بنقط سوداء كان ينتقل من واحد إلى آخر في لامبالاة تلقائية مثل رادار. كانوا قد بلّلوا الحصى هناك في الخارج، حول النُّزل، وصارت الأحذية تُحدِث صوتاً مثل صوت الفكّيْن وهما تنسحقان مع الحجارة. يبدو أن النهر لم يكن يعرف مدّاً ولا جزراً: نفس اللسان الرملي الضيق، نفس الأعشاب المصابة بفقر الدم، نفس ارتفاع المياه، حساء حقيقي، وخلف النُّزل جلبةُ أشجار الصنوبر، رطبةً،

هادرةً، لا تنتهي. بلغت السيارةُ الطريق بقفزة صغيرة، ثم راحت تنزلقُ نحو أفيْرو. ضوءٌ أخضر كان يشتعل وينطفئ في لوحة القيادة: سوف نعاني من نقص الوقود، فكّرَ. الرجُل المسن الذي كان يترأس الاجتماع، جالساً عند طرف الطاولة، أمامه دفتر ملاحظات وقلم حبر، رفع ذراعه فتوقفت همهمات الحديث:

- إن الرفيقة قد طلبت للتو أن نسمح لزوجها بحضور اجتماعات الخلية بوصفه مراقباً.

لو حصل عطب في المحرك، يُفَكِّرُ، سنظل تائهين إلى الأبد وسط غابة الصنوبر، تحت الورقة الشفافة للسماء، نشيخ داخل السيارة مثل المومياوات القديمة التي تعض فمها بأسنانها الكبيرة الخالية من اللثات.

- ماذا إذن؟ - سألها داخل سيارة الأجرة من دون أن يحرك شفتيه تقريباً. كان عرق منتفخ ينبض في جبينه.

- لم يكن ذلك مؤلماً تماماً، لم يزعجني كثيراً - قالت ماريليا - لا تشغل بالك. يبدو أنني كنتُ محظوظة، لأنه لم يحدث ولا نزيف. نصلُ إلى البيت ثم أنام بضع ساعات وانتهى الأمر.

شابٌّ تغطي وجهه البثور حدّق إلى الرّجل المسن رافعاً إصبعه كما التلاميذ في المدرسة. تعابير جدّة مزيفة تُجعد ملامح وجهه.

- الكلمة للرفيق تينو - قال الآخر وهو ينقر الطاولة بقلم الحبر.

صادفا شخصيْن يقودان متثاقلين درّاجتين ببطء عالِمَيْن إنسيّيْن، ينحنيان على المقودين في وضعية جنينية. الجارُ الذي يمارس رياضة الجودو، مرتدياً الكيمونو، عبَرَ الأسفلت بأربع لفّات سريعة ثم اختفى وسط أشجار الأوكاليبتوس، فسمع نفسَهُ، مندهشاً، يقول أحبُّكِ، بينما أصابع تبحث متحسّسة عن يد ماريليا فوق الركبتين

النحيفتين بالقرب منه. تعالت منازل كبيرة متتالية بينما السيارة تسير، انفجرت على زجاج النوافذ الجانبية، ابتعدت، تافهة وجامدة، في المرآة الصغير المستطيلة.

- إن زوج الرّفيقة - قال المراهق بصوت قوي - هو أستاذي في الكلية. دروسُه البورجوازية إصلاحية. عموماً، إنه يروج لآراء مؤرخين رجعيين. وقبوله كملاحظ (بثور تحمرُّ، شفتان ترتعشان) قد يكون بمثابة إدخال غواصة اشتراكية اجتماعية، من دون أي مقابل نافع تستفيد منه الطبقة العاملة.

- سوف نستأنف كل شيء من البداية - قالت الأخت الموسيقية لتلاميذ الفصل الذي يحدثون جلبة. (أخذ ولدان صغيران يضربان بعضهما يائسيْن في عمق القاعة) - ميزان ثلاثة أرباع. عازفو الدفوف يجب أن ترفعوا الإيقاع شيئاً ما، من فضلكم.

منازل أخرى، أشجار أوكاليبتوس أخرى، منازل مهاجرين برتغاليين في الخارج بشرفات كثيرة، وزليج بألوان زاهية، كثير من القضبان الحديدية، وأعداد كبيرة من الضفادع الفخارية في الحدائق.

- هناك - قالت ماريليا.

مطعم على حافة الطريق قرب محطة وقود، إعلانات مشروبات غازية ملصقة على الباب والنوافذ، إعلان عن مصارعة ثيران، قديم انفكّ عن لصاقه، بحروف كبيرة حمراء، كان يُلوّحُ لنا. قواربٌ تتعفن فوق الرمال، وداخل أحدها مرساة صدئة تشهرُ أسنانها الثلاثة السوداء نحو لا أحد. أخذ التلاميذ يغنون، مصحوبين بمزامير القِرَب والدّفوف، وشيئاً فشيئاً اكتست أصواتهم كثافة وإقناعاً. سكت الرفيقُ تينو فجأة، وسط جملة على ما يبدو، كما لو أن آلية كهربائية تعطلت في حلقه، بيد أن بثور حبّ الشباب استمرت تحترق من السخط أو

الغضب، أو من النضال المقتنع، أو الحب الشغوف للطبقة العاملة، وأصبح الرجل المسن يتحدث الآن دون أن يُفهمَ شيءٌ مما يتلفّظُ به من جُمل. كانت رايةٌ حمراء ترتفع خلف كتفه، عدة أشخاص يدونون ملاحظات سريعة، ومن طرف القاعة رفعَ شخصٌ خلاسي ساعده. **أحبّكِ**، أحبُّ لباس البونْشو الذي ترتدينه، أحبُّ حذاءك، أحبُّ جسدك العاري الرديء الممدد فوق الأغطية، لقد ألفتُ رائحة عرقكِ، سخريتكِ، جفاء مزاحك اللاذع، مذاق لسانكِ المبلل في فمي، ألفتُ نُدب عملية استئصال الزائدة الدودية من جسدكِ، النُّدب على ركبتكِ، النُّدب على عقبكِ، أريد أن أعود يوم الأحد إلى بيت والديْكِ وإلى عنايتهما المفرطة في المجاملة، سوف نصفي الماضي، يا ماريليا، ننطلق انطلاقة جيدة، نشتري تذاكر لمتابعة دور السينما البلجيكية، سأشاهد كل الأفلام المضجرة لدولفو[1] من أجل حبك، سأتحول إلى المادية الجدلية، سأرفع اللافتات خلال المظاهرات، **رجلٌ** يتحدر من البورجوازية العليا، كان يصيح الخلاسي، إنسان مرتدّ، وما لدينا من بروليتاريين يشغلوننا كثيراً بأمور الانضباط داخل **الحزب**، بطبيعة الحال سوف أمتثل لقرار الرفاق ولكني مقتنع بأنَّ. خرجا من السيارة فلفّهُما الماء بهالة الموتى، ماذا نصفي؟ ننطلق انطلاقة جيدة، إلى أين؟ كانت هناك رائحة الوقود، والزيت، والغازات المتسربة، يا له من حنين إلى شارع أزيدو غْنيكو، فكّرَ فجأة، حتى الفوضى والغبار أفتقدهما، دفعا الباب، دخلا، فتعالى رنين الصحون، جلبة الأصوات وصخب الأواني، ثم تقدمت نحوهما

---

(١) أندري دولْفو (١٩٢٦-٢٠٠٢)، مخرج سينمائي بلجيكي. يعتبر أحد أعلام السينما الحديثة. (المترجم)

في دوامة مرتبكة. جلسا قرب سرب من السائقين الصامتين أمام آخر كأس صغيرة من الخمر، المرافقُ متكئة على غطاء مائدة ورقي حيث جبل من بقايا الأكل تتراكمُ بشكل عشوائي.

*

سنٌّ تؤلمني هناك في الخلف، من تلك التي لم يجد الطبيب بعد وقتاً ليعالجها، كل ثلاثة أشهر آخذُ موعداً لزيارته فينحني على فمي، مرآة صغيرة في يد وفي الأخرى مثقاب، ينثر من حوله رائحة خفيفة لا جنس لها من المعقم والخزامى. عادة، موظفة مكتب الاستقبال هي من تتكلف بكلبي، توثقه من رباط العنق إلى رجل كرسي، ربما تجول به في شوارع لوزان التي أرى منها عبر النافذة، وراء المصباح المدور الذي يعشيني، ساحة، بعض المنازل، هواء الثلج المعقم، نقي أكثر من اللازم وعاري: فواكه من البلور والجليد على الأشجار، المارة بجلد بلون الحليب، نسيج الصمت من دون لطخات الكلمات، بياضُ الموت المفرط. ألمي الخاص. أنا جالسة على أريكة طبيب الأسنان، أدوات لامعة وحادة تلجُ فمي وتغادرُه، تُحرّكُ، تسحب، تضغط، شيئاً ما (كُلّاباً؟) يثقب فكّي العلوي ويتفرّع في رأسي مثل شُجيْرة تهزّها الرجّات، شيءٌ كالأنين يصعد إلى حلقي، أنحني على حوض مغسل صغير وأبصق فيه حجارة دقيقة من الدم سرعان ما يحملها دفق الماء نحو البالوعة، بينما الممرضة التي تدير لي ظهرها تحضّرُ شيئاً ما لا أراه في فنجان زجاجي. أخفض جفنيّ، فتدنو مني أشكال غامضة ثم تبتعد، تتبخر لوزان، لم أعد في سن السابعة والأربعين، عضلاتي المتوترة تسترخي، أفتحُ عينيّ فأراني في منزلي الأول، مع زوجي الأوّلُ، عليةٌ مختبئة في حي لابّا

أو إشْتريلا أهدانا إياها والدُه، الصغيران ينامان في سريرين بطابقين في الغرفة الخلفية، أبحثُ عن أسطوانة أغانٍ برازيلية في الخزانة، أخرجها بثلاثة أصابع من غشاء السيلوفان، ألتفتُ، دائماً جاثية على ركبتيّ، نحو الوجه المدوّر لزْوي، وأقول **لا** أريد أن أستمر في العيش معك.

- Crachez[1] - أمرني طبيب الأسنان.

حجرٌ دقيق آخر يجرُّ معه شظية صلبة صغيرة (عظم؟)، بلون الخزف، بلون الرصاص، أضع رقبتي من جديد على المسند، أفتح فمي على مصراعيه، أنزل ستاريْ جفنيّ الأرجوانيين، **لا** أريد أن أستمر في العيش معك، قلتُ له، وكنتُ وقتئذ قد تعرفتُ على فرانْكو، كان في طريق العودة إلى سويسرا، إلى جنيف، لماذا لا تأتين معي، الشّعرُ الأشيب، ابتسامةٌ عالمة لساقي حانة أو مدرب التزحلق على الجليد، خاتم إفريقي من الفضة في إصبعه الأصغر، طريقة خاصة في مسك الكأس، في الشرب، في الكلام، زْوي، متسمراً وسط الصالة، ينظر إليّ، أخرق متردد، دون أن يفهم، كان فرانكو قد زارنا مرة أو مرتين، غاية في اللطف، عذب الحديث، يهتم بالتاريخ، رائع، زْوي، مستلقياً على الأريكة، ينصت إليه بعينيه الواسعتين الحسيرتين اللتين يملأهما الحزنُ، يهمهم من حين لآخر Je suis bien de votre avis[2]، كنا نلتقي في شقة إحدى صديقاتي التي تشتغل في لندن، كان فرانكو يضع سيجارته في منفضة المائدة على طاولة السرير، صدره العريض الذي يدغدغني شَعرُه وهو يرتفع

---

(١) بالفرنسية في الأصل، وتعني «ابْصقي». (المترجم)

(٢) جملة بالفرنسية في الأصل، وتعني «أشاطرُكَ الرأي تماماً». (المترجم)

وينزل بلطف، غرس يده في فرجي، اشتمَّها، جعلني ألحس الرطوبة البحرية لكفّه بينما كان يجولُ في نهديّ الكبيرين بطرف لسانه، سأذهب إلى جنيف حالما أسوي مسألة الطلاق، قررتُ، أحبُّ جلدكَ المحترق، تجاعيدك، عضلات ذراعك الليْفيّة، صعد لسانُكَ عبر عنقي حتى زاوية الذقن، Aide-moi[١]، سألني وهو يقود ذراعي، سأذهب إلى جنيف، إلى القطب، إلى الكونغو، أينما شئتَ، أحبُّكَ، ألمس الكيسين الجلديين لخصيتيك، حبّتي الزعرور الرخوتين المختبئتين هناك بداخلهما، ومباشرة بعد ذلك، الجذر السميك للقضيب، أنبوب اللحم المنتفخ، رأسه المدور الناعم الذي كنت أقوده عبر أغشية متوالية نحو داخل جسدي. طويتُ ركبتيّ، فرشختُ أكثر ساقيّ ورحت أتنهد بهدوء.

- Crachez à nouveau[٢].

لا بد أن طبيب الأسنان كان في سنّي تقريباً، يضع نظارتين زجاجيتين من دون إطار، قفازين مطاطيين، وجه صارم على الدوام ومتيقظ، مبرقع عند الخدين وعلى الجبين بعدة بقع من النمش، أنفه البغاوي الصغير يتقدم ويتراجع قرب فمي المفتوح على مصراعيه، مع شعيرات صهباء تبرُزُ خصلاتٍ من خياشيمه. بعد خمسة أشهر انتقلتُ مع الطفلين إلى جنيف، اتصلتُ بفرانكو، ردّوا على مكالمتي من متجر بقالة، فعلمت في النهاية أنه كان في بوسطن يشتغل مديراً لإحدى الشركات متعددة الجنسيات: لم يردّ قط على رسائلي. التقيتُه سنوات بعد ذلك، صدفة، في أحد المطاعم، هنا، رفقة كل أفراد

---

(١) جملة ثانية بالفرنسية في الأصل، وتعني «ساعديني». (المترجم)
(٢) جملة بالفرنسية في الأصل، وتعني «ابصقي مرة أخرى». (المترجم)

عائلته مثل الرؤساء الأمريكيين، مسناً، متعباً، نحيفاً، يتفحص قائمة الطعام مسلحاً بزوجين مختلفين من النظارات، زوجته على يمينه، امرأة متقدمة في السن ونحيفة، كانت فتحة الصدر المضحكة تكشف عن نحافة ضلوعها الناتئة. مدّت الممرضةُ كُلّاباً إلى الطبيب فغرسه فوراً وبكل مهارة في لثتي: ازداد الألمُ، امتدّ منتشراً بشكل غير منتظر نحو الأذن والرقبة، ثم تردد، انسحب ومات على مهل، مثل شعلة شمعة تنطفئ. نزعوا المنديل من حول عنقي، تراجعت الوزرات بعناية، فنهضتُ عن الأريكة (أين يمكن أن أصفف شعري؟)، نبح الكلب في الرواق، مستشعراً خطواتي، يحاول خطمُه أن يختبئ مني، يرتعش فوق صدره، وحين خرجتُ إلى الشارع أخذ النصف المخدر من وجهي يعود لي شيئاً فشيئاً، كما حدث قبل مدة طويلة يوم صفعني زْوي (كفّ مفتوحة، حركة سريعة، قلقة، يائسة) بعد أن قلت له أنا لا أحبّكَ وأريد أن أنفصل عنك، بينما الأسطوانة التي كنت أمسك بها في يدي تدحرجت على غير هدى فوق الموكيت واصطدمت بزاوية الأريكة، أخذ أحد الطفلين يبكي في عمق الشقة، وازداد بكاؤه، برزَ نُونُو بمنامته عند الباب، يعانق وسادته، وينظر إليّ بعينين جاحظتين من الدهشة.

*

يُفكّرُ هل ما زال من الممكن الإبحار في تلك المراكب؟ ذبابات كبيرة زرقاء تهاجم في الرمل شكلاً غير واضح، سمكة ميتة، بقايا طعام، جثة لفظتها المياه، سوداء من الزيت، نصف مغطاة باللعاب والوحل. في الجهة الأخرى من النوافذ، الغيومُ، السائلة والكثيفة في الوقت ذاته، كانت تزداد حجماً، تتضاعف، تبتلع سنتيمتراً بعد

سنتيمتر قبة السماء المشكلة من ورق صَرّ. قرب محطة الوقود، ديكٌ حبشي موثوق إلى وتد يلمس الغبار بتنورته البالونية المغطاة بالريش ويحرك حوصلته كما يُحرّك مديرٌ ذقنه المضاعف.

- ليست لدي رغبة في تناول الفطور - قالت ماريليا - اطلب لي فطيرة بسمك القدّ وقهوة.

كانوا يمررون الأطباق للنادل عبر ما يشبه شباكاً مفتوحاً في بلاطات الزليج في الجدار، وكان يُرى الدخان ونوافذ المطبخ، الجدران المُسودّة، مناديل مشبوهة علقت بمسامير، أذرع سمينة لنساء يحركن القدور. أنا أيضاً لا أشعر بالجوع، فكَّرَ. كان الرجال يتناولون الحساء بالخضر مع الخبز، يشربون نبيذاً في الكؤوس، يمسحون ذقونهم وأجْبُنهم بأكمام معاطفهم.

- قهوتان وفطيرة بسمك القدّ - قال للنادل المستعجل الذي يهرول بين الموائد، يحمل كومة من الأطباق والأطقم. يومية إشهارية خاصة ببطاريات «تودور» كانت معلقة فوق رأسه، وصفوف من القناني مصطفة فوق الرفوف المصبوغة بالأخضر. خلف منضدة من الفورميكا، كان شخص مُنشقّ الشفة ومتعب الهيئة يقدم كؤوساً صغيرة من ماء الحياة. وضع أحدهم أمامهما القهوتين، الفطيرة بسمك القدّ في صحن بلاستيكي وظروفاً من السكر. غطست ماريليا الملعقة في السائل الأسود المزبد: كان وجهها يشبه وجوه أولئك الذين يقفون على حافة المسبح مترددين قبل القفز ويتحسسون بقدمهم حرارة الماء.

- أعتقد أنه علينا أن نعود إلى لشبونة - قالت بصوت خفيض - كان والدُه جالساً إلى المكتب، يصبّ بعناية قطرة على رؤوس الفراشات وما إن تكف الحشرات عن التحرك حتى يثبتها بدبّوس على

ورق مقوى. جمجمته الصلعاء تلمع تحت عاكس النور الأحمر، وشيء من الدفء المريح، المذهّب والبنّي، ينبعثُ من الموسوعات المجلدة.

- بما أن معظم الرفاق عبّروا عن رأيهم، سنمُرُّ إلى التصويت - أعلن الرجل المسن وهو يهدئ النقاش بيديه المبسوطتين - ليرفع يده كل من يؤيد وضع المراقب - قال وهو يشبك ذراعيه بشكل جلي.

القهوة سيئة الجودة لا تذيب السكر، وتترك فوق اللسان ما يشبه مسحوقاً متحبّباً. شربها جرعةً واحدة واستند إلى ظهر الكرسي بينما كان والدُه يضع الورق المقوى داخل ما يشبه علبة بها جوارير مرقّمة وأسماء باللغة اللاتينية كتبت على لافتات فوق مقابض معدنية.

- اسمعْ، علاقتنا ليست على أحسن حال - قالت ماريليا بسرعة - ثم إنها لم تكن قط علاقة على أحسن وجه - فكرتُ ملياً في هذا وأعتقد أنه ينبغي لنا أن ننفصل لبعض الوقت ريثما تتضح لنا الأمور بشكل أفضل.

- هل تجد هذا قاسياً؟ - سأله والده وهو يرفع جبينه ساخراً نحوه، مستعرضاً بذلك الشعر الأبيض، الأشعث، على حاجبيه - على العكس من ذلك، يا بُنيّ، إنها طريقة للحيلولة دون أن يتحولن إلى برقات.

كان قد فقد ابتسامتهُ المرحة، الشابة، المتحمسة، وحيوية زمن الضيعة حيث كانوا يصلون في شهر يوليو على متن سيارة تعج بالحقائب والخادمات. تكونُ زوجة المزارع المستأجر قد فتحت النوافذ، نفضت الغبار عن الأثاث، شمعت الأرضية الخشبية، ووضعت أزهاراً صفراء في المزهريات. كانت غرف الطابق الأول تفوح برائحة الخشب والراتينج، وريح الظهيرة تحمل معها نسائم

دافئة من بستان الفواكه. كان والدُه يرتدي سروالاً بالياً وقميصاً قديماً، يتجول هناك في الأسفل وسط أشجار الكستناء، يداه في جيبيه، تحفّه هالة من الضوء، أخواتي يطفن حول ساحة المرآب على دراجات هوائية، شعرهن يتطاير مع الريح، والمقاود المعدنية تلمع. سكينة هائلة وزرقاء، إحساس الخلود كان ينزل من شكل الجبل هناك في الخلف.

– ماذا؟ – أجابها بصوت قوي حتى أن عدة ندماء التفتوا، مندهشين، بل حتى ماريليا تراجعت شيئاً ما إلى الوراء فوق الكرسي
– ماذا؟ – كرّر هامساً.

لكنه الآن صار رجلاً مسناً، عظام جمجمته ترتسم تحت الجلد، تتخلل يديه بقعٌ شيخوخة بنية، وحزمة من الأربطة البارزة الهشة في عنقه تنضغط تحت ياقةٍ من حرير. مُستعملاً ما يشبه شفّاطة، ونظارتين صغيرتين معلقتين فوق نظارتيه، كان يبحث عن رؤوس الحشرات بقطرة شفافة تتأرجح: عجوزٌ، يُفَكِّرُ، عجوزٌ لم يتبق له غير ممارسة هواية تليق بالعجزة، وسط قواميسه وموسوعاته عديمة الجدوى. ثلاثة أشخاص فقط، بمن فيهم ماريليا، رفعوا ذراعهم، وواحد منهم، على يسارِك، خفض في النهاية ذراعه بتثاقل، مثل لامسة تذبُل.

– ننفصل لبعض الوقت ريثما تتضح لنا الأمور بشكل أفضل – استأنفت كلامها بنبرة صوت خالية من التأثر والحقد التي كانت لها من قبل، تمسك فطيرة السمك بتقزز لا ينتهي – بل من المحتمل جداً، من يدري، أن نستنتج أنه لا يمكن لأحدنا أن يعيش من دون الآخر.

– عكس ما تظُن – قال والدُه – إنها لا تتألم إطلاقاً – حشرجة أو حشرجتيْن، حركة أجنحة خفيفة (وهنا نمسكها جيداً بالملقط حتى

لا تفقد ألوانها) وهذا كل ما في الأمر - رموشُه خلف زجاج النظارات المضاعف كانت تتحرك مثل قوائم أُمّ أربع وأربعين، وتظهر بوضوح أخاديد دامية على جفنيه - ثم هناك هذا السائل (وأشار إلى قارورة زجاجية بنية بالقرب منه) الذي لا يشتغلُ مادةً قاتلة فحسب، بل أيضا عاملاً يدخل في عملية التحنيط: يحتفظ بالجسد بطريقة أبدية تقريباً، شيئاً ما مثل المومياوات الفرعونية، هل فهمت؟ هناك أنواع كاملة، رائعة، تعود لأكثر من ثلاثمئة سنة: إنها في ملكية أحد الدوقات، رأيتُها في متحف من متاحف لندن.

- الممتنعون عن التصويت - أمر الرّجُلُ الذي يترأس الجمع، دون أن يتحرك، وبريق رضا عنيد على محياه.

طلب بدوره قهوة أخرى وفطيرة صغيرة بسمك القدّ حتى يملأ الفراغ المروع في معدته. لا: بل بالأحرى بيضة مسلوقة مع ملح وفلفل حار. فوق الرمل، رجل نحيف، يرفع سرواله حدّ الركبتيْن، يتبعه كلب مطأطأ الرأس، كان يدفع قارباً صغيراً نحو ماء راكد بلون القصدير.

وقنينة ماء «بيذْراش» صغيرة من فضلك: كان النادل يمر ويعود ليمر بين الموائد، منهمكاً، يحرك رأسه مؤكداً دون أن ينظر إلى أحد. نبضاتٌ جامحة في صدغيه، يدان لا تجدان شيئاً تتمسكان به: أحبّكِ، كان يتردد بداخله صوتٌ أبله، مكسر، زائف، فانفلتَ من فمه ما يشبه التجشؤ.

- ولا أي امتناع واحد عن التصويت - شدّد الرّجُل الذي يترأس الجمع، وهو يحدق في عيني الرّجُل الذي كان قد رفع ذراعه ثم أنزلها بعد ذلك، وهو ما ردّ عليه بنظرة منحرفة، خنوعة وخائفة - المرجو من الرفاق الذين يصوتون ضد هذا الأمر أن يعربوا عن رأيهم.

أحياناً، يا والدي، كنتَ تجلس تحت الدالية لتدردش مع ذلك الأعمى الذي كان وكيلاً لجدي ويقطن في منزل صغير خلف الضيعة مستنداً إلى الحائط المرصع بقطع القناني الذي يحد الضيعة، وظلٌّ زمردي، محفوف بالذهب مثل أغطية صحون الكنائس، ينزلُ على حركاتك. كان الأعمى يستمعُ إليه وهو يحك أذنه بإبهام فظيع من ظفرين، يشبه إبهام ابنه الذي كان يُشغّل آلة في معمل تصبير الطماطم ويأتي أحياناً على متن دراجة نارية محدثاً ضجة جهنمية، يضع خوذة ضخمة على رأسه تجعله يشبه خنفساء فظيعة. جالساً تحت الدالية، كنتَ تتحدث لفترات زوال طويلة مع الأعمى، أو تدخنان في صمت، جالسين معاً جنباً إلى جنب على الدكة الحجرية، بينما الظلُّ الزمردي يغير اتجاهه، أغصان أشجار البستان تتضح معالمها، والبيتُ المغطى بالنباتات المتسلقة يرتسمُ تحت السماء الشاحبة بجلاء معدني. الأعمى، الذي كان يجيد المشي من دون مساعدة ودون أن يتعثر عبر طرقات الضيعة، مستكشفاً بحذر الفضاء من حوله بواسطة عكازه، ربما يستطيع أن يشرح لي الطيور، يفتح ويغلق فمه على سن وحيدة متعفنة مغروسة بين لثتَيْن ضيقتَيْن ربما يحدثني صوته النورسي اللبدي عن حركة الغابة عندما تعود إليها الطيور، عن برد الليل عند مستوى الأرض وهو يعزف الناي في كثافة الأغصان. قام الرّجُل الذي يترأس الجمع بعدِّ الأصوات دون أن تتغير تعابير وجهه.

- الحساب مضبوط - قال - صوتان لمصلحة القرار، لا يوجد أي امتناع، وتسعة عشر صوتاً معارضاً. بتوافق إجماعي، لن يستطيع زوج الرفيقة حضور اجتماعات الخلية.

- إنك لم تهتم قط بكل هذا، ولكني سأريك مجموعتي - اقترحَ والدُه وهو يتوجه نحو خزانة كبيرة بها جوارير ضيقة، مدمجة بين رفّين

من الكتب، قرب مائدة السيجار والمشروبات - خمسمئة وسبعة وعشرون نوعاً مختلفاً، إنه رقم جيد، ألا ترى ذلك؟ هل تعرف أنه يمكنني أن أبيع هذا بثمن جيد لمتحف من المتاحف الطبيعية؟

أسئلة كانت في الحقيقة تأكيدات، يُفَكِّرُ، وذلك السعال المتسلط، الحسود، لتأكيد قوته: ورثتُ عنك أخواتي شيئاً من عجرفتكَ، من يقينك القاطع بأنك المركز، والمحور، والمحرك الحقيقي للعالم. وحدها أختي الموسيقية كانت تشبهني، متحفظة، غير عدوانية، دائماً تبحث عن شيء ما فُقد نهائياً ولا يمكن استرجاعه. سحَبَ والدُه الخطاف المعدني لأحد الجوارير وعرض واجهة زجاجية بها اثنتا عشرة حشرة مصلوبة، مرتبة وفق حجمها، مع مستطيل ورق مقوى لكل واحدة.

- ما رأيك؟ - سألهُ متباهياً.

- سوف ننفصل عندما نصل إلى لشبونة - أوضحت ماريليا وهي تحرك بالملعقة الصغيرة عجين السكر في قعر الفنجان - سأغادر البيت وأذهب لأقضي بعض الوقت مع والديّ: يستحسن أن أغادر أنا، لن تجدَ بسهولة، هكذا بين عشية وضحاها، مكاناً تستقر فيه.

- هل تريد أن تحتج على النتيجة أيها الرفيق؟ - سأل الرجل الذي يرأس الجمع، منحنياً نحو الأمام مع لطف ينذر بالشؤم - ما الذي بدا لك متنافياً مع الديمقراطية؟ أي شيء بدا لك غيرَ قانوني أثناء النقاش وخلال التصويت الذي قمنا به؟

كنتُ أجثمُ، هل رأيت، فوق النافذة المدوّرة في العلية المكتظة بالأسِرّة المُفكّكة والكراسي العرجاء حتى أراقب بشكل أفضل الشكل المتحرك للغابة، الظلّ السريع لأولى بومات الليل، أفقية في الشفافية البنفسجية التي تفصل أشجار التفاح في البستان، وأرى الأعمى هناك

في الأسفل، يشذب شجرة ورد بحركات بطيئة، دقيقة، صاعدة، في مداعبة حكيمة لا تنتهي: لو نجحتُ في أن ألمسكِ بهذا الشكل، بأصابعي التي صارت نَفَساً من القبلات، رائحة معطرة، تنفُّساً خفيفاً في شعْركِ، لكنت معي إلى الأبد، لما غادرت قط، ولكان بإمكانهِ أن يذهب إلى الجحيم منزلُ والديْكَ في حي أوليفاييشْ حيث يقطنان، بالقرب من الطائرة البرمائية لكابو زْويفو[1]، المنغرس في الأرض وسط دخان من البترول، قطرساً محنطاً يتنازل عن العرش.

- أبقى وحدي في شقة شارع أزيدو غْنيكو؟ - سألها - لأشاهد النفايات تتراكم؟ فقط قبل لحظات، في السيارة، قلت لكِ إنني أحبُّكِ. كنتُ أعتقد أنني لم أعد أحبّكِ ولكني أحبُّكِ.

ترك النادلُ البيضة المسلوقة فوق غطاء المائدة الورقي واختفى محملاً بصحون وأطباق الألومينيوم التي تقطر مرقاً مليئاً بالدهون: طائرٌ آخر، فكَّرَ، طائرٌ مسكين يرتدي مريلة، تُدوّخُه طلبات الزبائن، الصيحاتُ، الخدود العديدة البذيئة المبرقعة باللحى وهي تمضغ، وتدوخه أوامرُ الطباخة عبر النافذة الضيقة المفتوحة في الحائط وسط بلاطات الزليج. وضع الشاب النحيف مركبه في الماء، رمى بداخله الكلب كأنه عبء جامد، قفز بدوره قفزة جراد خرقاء، جمع الحبال في الخلف وراح يجدف بقوة، يبتعد شيئاً فشيئاً، فوق سطح الماء الهادئ، من دون انعكاس. كسّرَ قشرة البيضة، وأخرجها بأصابعه كمن يقشر حبّة زعرور، كما انتزع الغشاء الأبيض الشفاف الذي يغلفها من الداخل ويلتحم بيديه بإلحاحٍ لصاق. ملّحَ، بزّرَ وعضّ من دون شهية المادة الرخوة، بينما في الخارج كان مركب آخر يغادر الرمال

---

(١) محطة من محطات قطار الأنفاق في لشبونة. (المترجم)

باتجاه أفيْرو، يقوده هذه المرة رجلان، قصيران، بوجهين عابسين، يشبهان زوجاً من العصافير الغاضبة. في المطبخ كان سائقو الشاحنات يتحدثون في زقزقة، في نعيق، في قوقأة سريعة جشاء، أو يتحركون على طول منضدة الشرب يمشون جانباً مثل الببغاوات حين تقف على المجثم. كانت ماريليا تنظر إليه وعيناها الصغيرتان المدورتان، مثل دُرّة، تسخران منهم في تهكم، تحت الريش المفرط لرأسها.

- لماذا يجب أن تبقى وحدكَ في شقة شارع أزيدو غْنيكو، لماذا تُضَخّمُ دائماً كل شيء؟ - تساءلْتَ وأنتَ تقشر البيضة بأظافركَ المقوسة الصفراء. فحسب علمي، أنت لستَ معاقاً، يمكنك دائماً أن تجد رفيقة: ثمة كثير من النساء المتوفرات في تلك الأماكن.

- أيها الرفيق - سأل الرّجلُ الذي يرأس الجمع - هل تشكك في الديمقراطية الداخلية للخلية؟ هل تعي، أيها الرفيق، خطورة هذا الاتهام؟

- لم يكن قط منخرطاً في الحزب، أؤكد لكم ذلك، ثم إنه لم ينتم قط إلى أي حزب - أكدت الأختُ الموسيقية وهي تعبُّ جرعة من شراب البرتقال. (كانت طيور البجع تذرع بتثاقل بحيرة الحديقة جيئة وذهاباً) - المسكين، لا أتصوره يرفع الألوية أو الرايات، أو يناضل في أي شيء: كان شخصاً فردانياً بطبعه، هل تفهم، وحيداً، بورجوازياً مثل كل أفراد البيت، في أسرتنا. كان يعيش في زمن متخيَّل، يا سيدي، زمن ميت، خارج الفضاء، في ماض غير واقعي يتشكل من أباريق مكسوة بالفضة وأحاديث الخادمات.

الآن كان المطعم ممتلئاً عن آخره بالطيور، بل حتى رجل محطة الوقود هناك في الخارج راح يقفز مثل طائر دوري أعرج، يتفحص إطارات شاحنة صغيرة محملة بالإسمنت. كانت صيحات الطيور

تشكل ما يشبه كورالاً حاداً يصم أذنيه ويفزعه، وقف فجأة ميكانيكي وهو يحرك جناحي كمّيه، كأنه يهمّ بالتحليق نحو السطح. كان للبيضة مذاق حبات البِشْتة، مسح أصابعه على سرواله، استند إلى ظهر الكرسي مثل دجاجة مسنة تتحرك فوق فقْستها.

- أنت بحاجة إلى مكان قار - قالت ماريليا - بصوت دُرّة - إن أخذت تنتقل من غرفة إلى أخرى فستصاب باكتئاب، أنا أعرفك كما أعرف ظهر يدي. ستكون مثل طيور الحمام المريضة، أنت تعرف كيف هي، منكمشة عند أقدام التماثيل - وكان وجهها، الأحمر والأزرق، المائل على كتف واحدة، يتأملهُ من دون رقّة، بنفس الحياد الموضوعي الذي كانت تحكُم به، جدّية من دون حماس، على أفلام ستانلي كوبريك - ستكون في شقة شارع أزيدو غْنيكو أحسن حالاً من أي غرفة خادمة في حيّ بايْرو آلْطو، أليس كذلك؟

غرفٌ ضيقة، دواليبُ بها معالق ملابس من الأسلاك الحديدية، نوافذ تطلُّ على فناءات داخلية، أو فناءات خلفية، أو أزقة بائسة تغطيها النفايات والقاذورات، أسرّة بأفرشة من نسيج البركال، مغاسل صدئة، صاحبات منازل صمّاوات خشان، ملابسي من مصبنة إلى مصبنة، كما اتفق. يُفَكِّرُ **عندما** كنتُ أسكن في كامْبو دي سانتانا كان هناك مُقْعدٌ في الغرفة المجاورة يئنُّ طوال الليل ويمنعني من الدراسة، ولا يهدأ إلا مع أولى أضواء الفجر التي تخترق بصعوبة النوافذ المغبرة والمتسخة. ذات يوم، مات فنزل التابوت يتمايل عبر السلالم، يغطيه قماش أسود، مثل ثوب جدتي، يحمله رجُلان أو ثلاثة رجال غير مبالين. يُفَكِّرُ **كنا** نعيش يفصلنا حاجز مبطن بورق مزركش ولم أره قط، بل لم أكن أعرف حتى وجهه. وكان هناك أيضاً مغني أوبرا، يضع دائماً وردة قرنفل بيضاء على عروة معطفه

المكوي بعناية، وعند نهاية الشهر كان يختبئ من الجميع على أمل أن ينسوا أنه لم يُؤَدِّ واجب الكراء، وهو ما لم يكن على الأرجح قادراً على أدائه أبداً. ذات ليلة، صادفتُه يتسول في المقهى الذي كنتُ أرتاده لقراءة الجريدة، بكل أنفة، من طاولة إلى أخرى، يتوجه إلى الناس بفخر محتشم كمن يقدم لهم خدمة. كان يسكن في القبو، فأغرق الجدران بملصقات تمثّلُ شخصه، شاباً، بعينين تلمعان بمادة المُثبّت وزيت الشعر.

- غنّيتُ في مسرح ساوْ كارلوس - قال لي بفخر وهو يعرض حزمة من المطويات الدعائية - أديتُ صوت الباريتون. كلا، اقرأ هذا من فضلك (وأشار بإصبع به عقد من داء النقطة): **أميلْكار إسْبيرانْسا**، هل ترى اسمي؟ إنه يظهر بشكل واضح، أميلْكار إسْبيرانْسا؟

فتح أربطة مطاطية في محفظة عفنة وأشهر قصاصات من الجرائد.

- هل تريد أن ترى التعليقات؟ - قال بشرارة ضوء صغيرة في عينيه - ما كانت الصحف تقوله بخصوصي؟ انتظر قليلاً، أنا أتحدث بجد، اقرأ هذا فقط: **مع أميلْكار إسْبيرانْسا، أصبح للبرتغال صوت باريتون**. جميل، أليس كذلك؟

- أيتها الرفيقة - سأل الرّجُلُ الذي يترأس الجمع بغضب بارد - هل تلمّحين إلى أنني أثرتُ في التصويت؟ هل أنت واعية، أيتها الرفيقة، تمام الوعي بما تؤكدين؟

- والداي بحاجة إليّ، لم يعد لهما من شخص آخر - قالت ماريليا وهي تشعل وتطفئ ولاّعتها البلاستيكية، مفتونة بالشعلة على ما يبدو - مع ما تعانيه أمي من ضغط الدم يوماً ما ستُصاب بإغماء،

لا بد أن يكون إلى جانبها أحد يخفف عنها الصدمة. بالكاد يعرفان القراءة والكتابة، فكيف يتدبران أمرهما؟

- كنتُ على وشك أن أغني في حفل بمدينة باداخوز - كشف السيد إسْبيرانْسا وهو يقذف شعره الكثيف نحو الخلف، بدفعة حاسمة - كنجم من نجوم البرنامج.

يُفَكِّرُ أرغبُ أيما رغبة في أن ترحلي، وتختفي، وتغربي عن وجهي، والآن هذا القلق، هذا الخوف، هذا الرعب، هذا الحب المفاجئ المتزايد لأجلك، هذه الكرة المنتفخة من الحنان في غصتي.

- ابقيْ معي - طلبتُ بصوت منخفض، وفوراً استعدت في ذاكرتي حديثي مع توشا، قبل عدة سنوات، التُحف مكسرة، الغضب، المرارة، الخنوع النهائي: أنزل السلالم متعثراً بحقيبتي، أنادي سيارة أجرة، أنزل في قبو بشارع لوسْيانو كورديرو، به خزانة من العلب وستار ينزلق من نسيج البركال، أريكة قابلة للطي، مصباح فوق الأرضية من دون عاكس نور، وصاحب البيت، مبالغ في الرسميات، يسعل في ظهره من فرط تدخين السجائر الرخيصة:

- كما يمكن أن تلاحظ، يا سيدي، إنها غرفة رائعة.

يُفَكِّرُ لن أصمد وحدي، يُفَكِّرُ ربما ما زلتُ أستطيع أن أسترجع كل هذا، يُفَكِّرُ يمكن أن نمدد إقامتنا في أفيْرو لثلاثة أو أربعة أيام، نلصق شظايا حياتنا الزوجية، نبدأ من جديد. دفعتُ بيدي على طول الغطاء الورقي كي أمسك بيدكِ (أحبّكِ)، لكن الولاعة اختفت من تحت الكفّ، اختبأت، لجأت، منطفئة، فوق ركبتيكِ: اللعنة، ما الذي ليس على ما يرام كي لا تسمحي لي حتى بأن ألمسكِ؟

- لديكَ هنا مغسل صغير - قال صاحب السجائر الرخيصة -

أما الدّشُّ فتجده في الباب عند نهاية الرواق. أيام الأربعاء والسبت، لأن الغاز مكلف جداً، خمسة عشر إشكودو لكل استحمام. أما الصابون والمنشفات، فهي على حسابك، بطبيعة الحال.

- غنيتُ في الكوليسيوم، مع فرقة سيرك دولية - همس السيد إسْبيرانْسا وهو يداعب مرفقيه بسُلاميات تتوق إلى الماضي - كنتُ أدخل مباشرة بعد أحد السحرة، أغني عرضاً خاصاً بمهرّجيْن. كانا يتبادلان الصفعات وأنا، غير مضطرب، أرتدي حمالات وقميصاً به خطوط، أطلق لحناً غنائياً من أوبرا «توسكا» إلى أن يطرداني بضربات مكنسة نحو الكواليس. نجاح رائع، يا صديقي، لكن العرض، مع الأسف لم يتكرر قط. حينئذ أصبحتُ صديقاً للقزم الذي يأتي ليلعب معي الضّامة أيام الأحد، وهو من رماني بحلوى على وجهي.

- أقترح التوقيف الفوري لعضوية الرفيقة - قال الرّجل الذي يترأس الجمع بصوت صافر من الغضب - لأنها شككت في تضامن الخلية العمالية لأسباب عاطفية خالصة، وبالتالي بورجوازية. أود فقط أن أضيف، أيها الرفاق، أن كل هذا يثبت، مرة أخرى وبكل وضوح، التأثير السلبي للرأسمالية.

القزم، الذي كان يرتدي دوماً ربطة عنق أنيقة، وجلده بلون السيلوفان المجعد، كان يصل بعد الفطور، يتقدم مثل إنسان آلي بحذائه المبرنق، في فمه حاملُ سيجار، يفرك يديه الدقيقتين، المتواجدتين عند طرف ذراعيه اللتين بالكاد تلمسان خياشيمه، ثم يجلس على كرسي، يهدهد ساقيه أمام رقعة الضّامة الورقية. كان يكسب قوت يومه بواباً في مطعم بحيّ ألْفاما لأن الزبائن كانوا يحبون أن يقوم هذا الرجل القصير المشوه، تحت قناع قرد لا يكف عن

الكلام، أن يدفع نيابة عنهم دفة الباب وهو يبح في دمدمة من الكلام المبهم.

- هذا بلد لا يحترم الفنانين - كان يشرح السيد إسْبيرانْسا بنبرة احتقار تنمُّ عن كثير من المرارة وهو يضع البيادق في أماكنها استعداداً للمقابلة الموالية دافعاً منذ بداية اللعبة بزِرّ المنامة الذي يعوض بيدقاً مفقوداً - هل رأيتَ، يا صديقي، كيف يتعاملون معنا؟

- أنا من يبدأ - كان القزم يصرخ مغتاظاً.

سارع السيد إسْبيرانْسا ليدفع الزّر إلى الوراء ويدير رقعة الضّامة بطريقة يستحوذ بها على البيادق السوداء:

- سامحني، يا سانطوس، لقد تحمستُ كثيراً وأنا أتحدث معك يا دكتور: إنك تعرفني، يا إلهي، وتعرف كم أن الظلم يؤلمني. أصير مجنوناً، أؤكد لك، مجنوناً تماماً.

أضاء بصيصٌ من الشمس لحظةً الغطاء الورقي، نزل هناك في الخارج، عبر البحيرة، واختفى: ضوء محبَط كان يحيط بالوجوه العابسة، القناني، فوق الرفوف، الجدران المتقشرة ذات اللون الأمغر الكئيب، صورة قديسة داخل إطار لم أكن أميزُها جيداً رغم النظارتين.

- سوف آخذ أغراضي - اقترحت ماريليا - ونصف دزينة من الكتب على أكبر تقدير، لست بحاجة إلى شيء آخر. ثم إن حدسي أخبرني أنك أردت أن تأتي إلى أفيْرو لتحدثني عن هذا الأمر، أليس كذلك؟ حتى نخرج معاً بعد أربع سنوات، فإن هذا يعني أنه كان هناك أمر خفي. هل أنا مخطئة؟ كن صريحاً، أنا لا تعجبني لعبةُ القط والفأر.

أغلق والده الجارور الأول وفتح جوارير أخرى في الأسفل، مليئة بأنواع ضخمة لها أجنحة مثل لوحة ألوان الرّسم.

- فراشات من أمريكا الجنوبية - قال - أمرتُ بجلبها مباشرة عبر الطائرة.

- سانطوس، أيها العزيز على قلبي - صاح إسْبيرانْسا وهو يربت على كتف القزم - هذه الحركة ستكون آخر زقزقة تصرخ بها.

- سامحني أيها الرفيق - صاح الرّجُل الذي يرأس الجمع متوجهاً إلى المراهق ذي البثور المشتعلة - ولكن سوف تتاح لنا الفرصة لنناقش وجهات نظرك التروتسكية في اجتماع لاحق، في حالة ما لم تتحلّ بالحكمة للتفكير في الأمر قبل ذلك. أشترط التصويت الفوري على مقترحي وأستغني تماماً عن تعليقات تؤدي إلى تقسيم الصفوف.

- ابحث لنفسك عن خادمة - نصحته ماريليا - وسترى كيف ستعود سريعاً، إن شئتَ، أتيتُ من حين لآخر لألقي نظرة على شقة شارع أزيدو غْنيكو وأساعدك إن كنت بحاجة إلى ذلك. فالرجال لا يحققون الاكتفاء الذاتي إلا نادراً، أليس كذلك؟ لكن لا أحد يمكنه أن يبعد عن فكري أنك كنت تخطط لأمر من هذا القبيل.

- لقد صوَّتُّ ضد وضع الملاحظ - زعق المراهق مشتعلاً (هل تنامين معه؟)، لكني ما زلتُ أحتج على الطريقة المتبعة. أتهم الرفيق الرئيس بالشطط في استعمال السلطة وأحذره أنني سأرفع وقائع ما حدث كتابياً إلى الهيئات العليا في الحزب.

باكراً جداً عند الصباح، كنتُ أقترب من النافذة وأرى والدي تحت الدالية يتحدث مع الأعمى، أو ينظر إلى أشجار الورد، أو يعطي أوامر للمزارع المستأجر، بمزاج رائق جداً، من دون ربطة عنق، جالساً على كرسي الدراجة الهوائية لأختي الكبرى، تشد سروالهُ مشابك غسيل. كانت أمي تقرأ مجلة فوق العشب، جالسة

على كرسي طويل، قرب حوض الأسماك المغطى بأوراق كبيرة كامدة، من دون بريق، وغلام من طين يزودها ببوله الذي لا ينتهي: لا بد أن هناك صوراً تعود إلى تلك الفترة، يا ماريليا، ليس في بيت الضيعة لأنهم باعوها ليبنوا عمارات عندما بدأت لشبونة تتوسع بشكل مفرط، بل في حقيبة عادية في علّية بحيّ لابّا، في أظرُف أو ألبومات متعفنة، صور أشخاص باسمين، في مجموعات، ينظرون إلينا بعيون بلون التبغ الجاف من الماضي.

- فعلاً، خطرت على بالي هذه الفكرة - اعترفتُ وأنا أفتّتُ بأصابعي قشرة البيضة - لكن تلك الأيام القليلة كانت كافية لأفكر بشكل أحسن. في الحقيقة، أتفهمين، لا أعرف جيداً ماذا أفعل من دونكِ.

- ها قد سقطتَ في الفخّ - زعق القزمُ منتصراً وهو يقفز في مقعده. كان يضع خاتماً به حجر أسود في يده اليسرى، يلفّه شريط لاصق حتى يناسب حجم أصابعه التي تشبه أصابع سحلية - انظر كيف سأردُّ على لعبتكَ.

- هذا هنا، حيوان نادر جداً - قال والدُه وهو ينظر إلى حشرة داكنة باندهاش مفتون - لو علمتَ كم دفعت مقابله، لاندهلتَ.

- عندما كنا أطفالاً - تذكرت أختُه الموسيقية - كان هو ووالدي يتفاهمان جيداً، ثلاث بنات، هل فهمت، الرغبة في أن يكون له ابن، رجل يتحدث معه، يسرُّ إليه بتعقيدات الأعمال. لكن زوي وُلدَ منحرفاً، لم يرغب قط في الاستماع لأمور المقاولة، وشيئاً فشيئاً اكتسب أصهاري مواقع مهمة، وهم من يديرون الآن كل شيء.

قال للنادل إنه يريد قهوة أخرى، محاولاً الحفاظ على هدوئه بينما قلقٌ فظيع يكبر بداخله، ينفخ كفّيه، ويجبرُ الدم على الركود

بسرعة أكبر في جسده. في الخارج، كان رجلٌ محطة الوقود يملأ صهريج شاحنة جثم سائقُها في أعلى الهيكل، عقب سيجارة مطفأة في شفته السفلى، وفي الجهة الأخرى من الطريق كانت أكتاف أشجار الصنوبر ترتعش من الحمى، داكنة، سميكة، ضخمة. ثمة دائماً قسط من الليل يختبئ داخل الأشجار، يُفكّرُ، جزء من الظل، صلب ومنيع، لا تخترقه أي شمس، نواة الغياهب التي تسكنها الطيور زوالاً. قاربٌ صغير حرّكَ شفرةَ الماء الأفقية، تاركاً وراءه أثر زبد جامد انساب حتى بلغ الضفة في موجات صغيرة متتالية، تافهة ومسطحة أكثر فأكثر، بينما مئات النوارس تموج فوق السطح، تدفعها قوة الأمواج، هناك بعيداً، وسط الخليج حيث كان يصعبُ تمييزُ رؤوسها من الأعناق.

*

أحياناً، أيام الأحد، عندما كان سانطوس يزورني هنا، يأتي ليتابع مقابلة أو مقابلتين، يطرق الباب، يطلب الإذن بالدخول، يجلس فوق هذا الصندوق الذي تراه هناك لأنني لا أتوفر على أثاث، فقط بعض الأشياء التي قُدّمت لي على سبيل الصدقة وتلك العلبة التي تحتوي على الصور وقصاصات الصحف عن مساري الفني التي سأريك إياها بعد لحظة، لتكون لك، يا سيدي، على الأقل، فكرةً عن حجم غياب التقدير المتفشي في هذا البلد: لو تفضلت جريدتك واهتمت بهذه القضية فقد أحصل على شيء ما، على معاش، تقاعد، مساهمة بسيطة لشخص كرّس حياته لسنوات في التعريف باسم بلده، لأن الظروف منعتني دائماً من رفض دعوات كثيرة تلقيتها، مثلاً من بيلْيا نْويبا ديلْ فْريسْنو ومن باداخوز، بالنسبة لشخص عمل على نشر

اسم بلده في كل بقاعه، ضمن فرقة المهرجين «المكانس وشركاؤهم» الذي يختم عرض السيرك الإيبيروأمريكي الدولي الكبير. كنت أغني لحناً غنائياً من أوبرا كارمن، متنكراً في زيّ مصارع ثيران، كرةٌ مطاطية مكان الأنف، يرافقُني عازف الساكسفون والأكورديون حتى اللحظة التي يأتي فيها «المكنسة» يلوي عنقه ويجبره على السكوت، ثم يأتي «رأس الذئب»، أخو «المكنسة» خلسة ينتعل حذاء ضخماً مثقوباً ليلوي أذنه ويجبره على أن يبدأ من جديد، كانت الأوبرا تلاقي نجاحاً كبيراً في الأقاليم، المشكلة الوحيدة أن «المكنسة» كان يدفع له أجرها سيئاً ومتأخراً، ومرت عليّ أيام، يا سيدي، كان يتعين عليّ كي آكل أن أقترض قطع نقدية من فئة خمسين سنتيماً من القزم الذي كان يقدم عرضاً كوميدياً وحده، رفقة زوجته، القزمة بدورها، وأطفالهما الثلاثة الأقزام، يتبادلون ركلات وصفعات فظيعة يضحك منها الناس حدّ البكاء، لا بد أنك تذكر «الأقزام الهنغاريون»، كان هذا هو اسمهم الفني المستعار، كانوا يقدمون أنفسهم كهنغاريين، شعب آسيوي، بل كانوا يتحدثون لغة مبتكرة لا يفهمها أحد، مع أنهم كانوا برتغاليين مثلك ومثلي، وربما أكثر لأنهم ولدوا في مدينة بورتو، كان والدُ سانطوس يشتغل مساعد بناء في ميرامار، عملاق كان ينظر إلى ابنه كما لو كان كلباً نحيفاً لم يكبر، لا بد أن إخوانه ما زالوا هناك في دكان خرداوات كان في ملكهم، كل شيء داكن وصدئ يرتعش من ضربات مطرقة، ملّت زوجةُ سانطوس من تلقّي الركلات ولعب دور الهنغارية فاستبدلته بموظف في بنك «فاماليكاوْ»، نحيف يعشق القزمات ويخبئ ملابس داخلية سوداء للنساء داخل جارور في مكتبه، استمر سانطوس مع السيرك لكنه غادر هنغاريا ليصبح كولومبياً، يربطونه إلى لوحة تصويب ويرمونه بنبال وسكاكين،

دون أن يصيبوه أبداً وأثناء فترات الاستراحة يساعدُ الأشخاصَ المكلفين بمدّ الحبال التي يستعملها البهلوانيون أو يضعون القضبان للأسد الوحيد العجوز الذي لدى الفرقة، حيوان بلغ مئة سنة، أقسمُ لك، يشبه معطفاً سميكاً بشعر الجمل وبطانة ممزقة التقطوها من صندوق قمامة، يتثاءب من دون توقف بينما يقوم مروض يحمل مسدساً بلاستيكياً يتظاهر أنه حقيقي، يرتدي لباساً من الوبر المخطط ويحمل سوطاً يحاول إقناعه أن يثقب دائرة ورقية رقيقة أو أن يصعد فوق قاعدة ويرفع قائمتيه الخلفيتين، والحقيقة أنه سرعان ما أصبح من دون مال يساعدني به على اقتناء الطعام وغرق في الخمرة لدرجة بدأ هو من يستجديني المال، ولم ينقذني غير مدام سيمون، مروضة الحمام وطيور الترغلّ التي كانت تختم الجزء الأول من البرنامج بطيورها التي تجر عربات بلاستيكية صغيرة وتدفع بصدورها عربات يدوية من القصدير، كل ذلك في صمت، يفيض شعراً وجمالاً، ومدام سيمون، بفستان طويل، شعر مذهب، كتفين عاريتين وسمينتين بشكل كبير، تتحكم في الحيوانات بعصا صغيرة، تجول في الجمهور من حين لآخر بعينين تفيضان سخاماً من فرط الكحل، وفي مقطورة تحمل لباس نوم يابانياً من ثوب الساتان به تنين له لسان ملتو وسط الظهر وألسنة لهب زرقاء وخضراء تخرج من فمه المشرع، كانت لها صورة تمثل القديسة فيلومينا[١] مع فتيل زيت وصورة للممثل إيرول فْلين[٢]، هل تذكره؟ داخل إطار من ورود الزليج، كان شارب إيرول

---

(١) عاشت في اليونان في القرن الثالث وأصبحت قديسة كاثوليكية منذ القرن التاسع عشر. (المترجم)

(٢) إيرول فْلين (١٩٤٠-١٩٥٩)، ممثل سينمائي من أستراليا. برز في أفلام المغامرات. (المترجم)

فلين يتبسم للقديسة فيلومينا بوقاحة لا مثيل لها ويعطي ذلك الانطباعَ، سامحْني، أنه سيغادر إطار الورود ليتحسس نهديْها برضاها، وكانت مدام سيمون تحضّرُ لي مقبلات، أطباقاً باللحم، حلويات نفيخة، أطباقاً محضرة بعناية، تضع غطاء مائدة من ثوب مشمع به معيّنات صفراء وبنفسجية، قنينة نبيذ أبيض وقطعتي خبز صغيرتين، تشغل الحاكي، موسيقى تانغو وتجلس على الأريكة لتراني آكل، لا بد أنها كانت في الخمسين أو الستين من عمرها لكن ما تضعه من كميات المساحيق على وجهها يغرق التجاعيد في عجين موحّد حيث كانت ابتسامتها تحفر عظايات تتلوى كما في البنايات القديمة، وأنا أمضغ المقبلات، يدوخني عطرها مثل ذبابة يهاجمها مبيد الحشرات، مدام سيمون تشبك ساقيها، ينفتح لباس النوم على فخذيها فتبرز قطعة لحم ضخمة أمام عينيّ المندهشتين المفزوعتين، تهدهد بطرف قدمها خُفّاً به شُرّابة كبيرة تشبه بودرة وجه أو تنحني لتدردش معي فأرى داخل تقويرة اللباس نهديْها كرتيْن متدليتيْن، كنتُ أبلغ وقتئذ، دعني أرى، دعني أفكر، ثلاثاً وثلاثين أو أربعاً وثلاثين سنة، أفرقُ شعري، ربطة فراشة منقطة في العنق، فأحسب نفسي تيتو غوبي[1] البرتغال، كنت أنتظر في كل لحظة وحين وصول رسالة تدعوني لأغني في سْكالا رفقة ستيفانيني أمام جمهور مندهش من نقاد يرتدون المعاطف، وأتخيل على طول الصفحة الأولى من جريدة "*Diario de Noticias*" اليوم الموالي عنواناً عريضاً يقول «**أميلْكار إسْبيرانْسا يسحر عشاق الموسيقى في إيطاليا ويحظى باستقبال من لدن البابا**»، كانت مقبلات مدام سيمون تنزلُ على معدتي رخوةً مريحة، يبلّلها لعاب

---

(١) تيتو غوبي (١٩١٣-١٩٨٤). مغني أوبرا وممثل إيطالي. (المترجم)

النبيذ، طائر ترغلّ تائه يرفرف قرب رأسي، يقلع في تحليق ثقيل مثل ملاك يعاني من حموضة المعدة ويذهب ليختبئ وسط الستائر في دوامة من الأجنحة، هديل لا يتوقف يأتي من الأقفاص المتراكمة في ركن من الأركان قطعُ ريش ضالّة تطفو داخل المقطورة، تحط فوق السجاد، فوق كتفيّ، في صحني، فوق الشعر الطويل المذهب للمروضة، تندفع خلف ظهرها في تموجات برّاقة من المعدن المذهّب، وتزداد مساحة الضيعة الواسعة على الفخذ كلما تأرجح الخفّ، الرّموشُ تغمز متثاقلة في اتجاهي، تغطيها قطع رقائق دقيقة، الفمُ ينكمش على شكل كأس بارزة ففكّرتُ **الوجهُ** سينفجر قريباً جداً ألف شظية مثل مُرْبِكَة تتفكك قطعُها، فكّرتُ كم من المئات من التجاعيد المتداخلة سيتضاعف عددها تحت هذا الإسمنت، نهضت مدام سيمون لتحضر القهوة، وحين تتحرك، يُحدِثُ فستانُها حفيفاً خفيفاً مثل ورق التبغ بينما تُبخّر الجوّ بعطرها الصيدلي، أشعلتْ موقد النار النفطي بعود ثقاب بارع فانبثقت شرارةُ تُويْج أزرق من الغصب في الأنبوب المعدني، **قويةٌ** أم خفيفة، سألتْ بصوت مغمى عليه أمام اندهاشي الممتن، بين بين، همستُ بخجل وأنا أبحث عن سجائري «تيبْ تُوبْ» في جيوبي، ملأتْ فنجانيْن، وضعتْهُما فوق إعلان خاص بأثاث «نخاريب السوس» رفقة علبة سكر صفيحية وملعقة مغروسة في المسحوق الأبيض، وضعتْ كل شيء على الكرسي قرب الأريكة ذات التشجيرة، جلست من جديد تعرض البدانة المتجعدة لركبتين كالفيل واقترحت بنبرة لاحمة **إسْبيرانْسا**، ألا تفضل أن تشرب القهوة في الصالون؟ ابتلعتُ ما تبقى من نبيذ أبيض في كأسي، أولاً لأن هناك كثيراً من التعساء الذين يعانون من الجوع ثم لأن النبيذ الأبيض يقوي مقامات صوتي الحادة، وأنت تعرف، يا عزيزي، أن الواجب

الفني يعلو على كل شيء آخر، فإما أن يكون المرء محترفاً أو لا يكون، والاحتراف يفترض تضحيات مستمرة، التفاني، نكران الذات، الزهد، بينما طيور التّرغَلّ والحمام تفقد صبرها داخل أقفاصها المصنوعة من الأسلاك الشائكة، وضعتُ أزار معطفي ومشيتُ بأدب نحو التشْجير، جلستُ في أحد الطرفين وسيجارتي بظفر إبهامي، ومن نافذة المقطورة كانت تُرى خيمة السيرك الممزقة وقطعة من قفص الأسد الذي يهزُّ رأسه من دون توقف في نوم على مشارف الإغماء، مثل موظف متقاعد، كان يُسمع كالعادة صوت «المكنسة» يتشاجر مع أخيه، كانا عازبيْن، ينامان معاً واكتسبا شيئاً فشيئاً عادات زوجين مشاكسين، انتهيتُ من ضرب السيجارة بظفري، حملتُها إلى فمي، فظهر فجأة لهيبُ ولاعة قرب أنفي، كان الإسمنتُ ينشق في ابتسامة لا تنتهي تعج بأسنان صفراء كأنها حبات القرع، كان العطر يخنقني، الشعر المُذهّب يُعْشيني، المحجران الفحميان يلتهمانني، اتسعت التقويرة فجأة عندما انحنتْ إلى الأمام فلمحتُ، هناك بالداخل، تخاريم ليلكية وأزهاراً من قماش رقيق شفاف، انفصل خفّ من قدم وسقط على الجانب ملاقياً حذائي، أظافرُ مدام سيمون القرمزية داعبت ذقنها المضاعف بتثاقل شهواني، خواتم بارزة، ترصعها حجارة كثيرة، كانت تلمعُ، قبّلْني، يا إسْبيرانْسا، أمَرَتْني وسط نحيب وهي تفتح لي ذراعين بدينتَين تصدر منهما رائحة مزيج من عطر الكولونيا وعرق الإبطيْن، هدَلَ حمامٌ خلف الستار، بدأ الحاكي قطعة «باسودوبْلي» مندفعة، انزلقت الصينية بضجة على الأرضية، صاح «المكنسة» الوغدُ اللئيم تجاه «رأس الذئب»، فوجدتُني مرة أخرى أستكشف الألغاز الضخمة لثوب النوم الياباني، التموجات المغطاة بقشرة ذهبية تلمس وجهي وما يشبه المحجم

يمتصُّ عنقي ويقول أميلْكار. تزوجنا في ألْمايْريم، وكان سانطوس شاهداً على زواجنا، بجاكيت كبير، وقوراً، جِدّياً مثل أحد البابوات، صغيراً جداً، ما زلتُ أراهُ يرسم اسمه، لسانه خارج فمه، قرب الصليب الصغير الذي كتبه موظف دفتر السجلات المدنية على هامش الورقة المختومة حتى لا يُخطئ أحدٌ، اكتُب هنا، في الأسبوع الموالي انتقلتُ إلى مقطورتها وأخذت أساعدها في إطعام الحمام بالذرة وتحضير عروض جديدة مع حيواناتها، مثلاً، أجعلها تُخرجُ رؤوسها في وقت واحد من منزل خشبي صغير، أو تحلّق حاملة راية برتغالية وراية فرنسية في مناقيرها لأن أحد أسلاف مدام سيمون كان من مدينة مارسيليا وكانت قد أغرمت قبل أربعين سنة غراماً عاصفاً ببهلوان عقلة في مدينة نيس خانها بعد ذلك مع لوّاءة من مدينة «سبتي ريوش» تاركاً لها كإرث بنتاً في سني تشتغل معلمةً في مدرسة ابتدائية في ميرانْدا، أكثر النساء معاناة من البثور وقصر النظر عرفتُها في حياتي، كان سُمْكُ عدسات نظاراتها يفوق سمك زجاج كُوّات السفن وتتحدث كأن واحداً زائداً واحداً يساوي اثنين إلى قسم من القردة المنغوليين، بهم ألمُ أسنان، جربٌ والتهابُ كبد، عندما كانت سيمون تتحدث عن ابنتها كانت دائماً تقول لو مرّ السيرك بميرانْدا يحب أن تتعرّف على ابنتي أورْطينسْيا وتكون رجُلَ أُمٍّ كما ينبغي لأن البنت المسكينة لا تذكُر شارل، وبينما كان الزملاء ينصبون الخيمة في أرض خلاء بحثنا عن البيت والناس يلتفتون في الشارع للنظر إلينا، طابق أول غاية في الحزن مع وكالة نقل أموات غاية في الحزن، عند كل طرف، مستعدتان معاً لتدفنا بطريقة غاية في الحزن كل ميراندا، صعدنا سلالم لولبية بالية كأنها رفات قديمة وفي الأعلى، ممسحةُ الباب على شكل لسان، زرُّ الجرس المعدني،

فستانُكِ القرمزي اللصيق جداً يحرقُ العتمة، في سن الستين، إن كانت بخصر لائق، تبقى المرأة امرأة، يا سيدي، دارت مفصل الباب، فظهرت المعلمة، نحيفة دميمة، عند العتبة، أورْطينْسيا، لقد تزوجتُ هذا الرجل، فانشقَّ وجهُ البنت قسميْن من الدهشة، لمعت النقطتان الغامضتان وراء نظاراتها، في قاعة الأكل حيث أثاث متهالك تدعمه قطع ورق مقوى شربنا نبيذ بورتو في كؤوس صغيرة زرقاء، من خلال الستار المبرقع بنقط كبيرة كان يُرى الزقاقُ، حدائق بها أقفاص دجاج، كَمٌّ من الأسطح، بعد صدمة هذا اللقاء، ذهبت سيمون تصلح زينة وجهها أمام مرآة صغيرة زُيّنَ ظهرُها بصورة لإستير ولياماس[1]، فمٌ عبوس على شكل كأس، الجفنان، الخدان، أريدُ أن يحصل انسجام بين العزيزيْن على قلبي، كانت المعلمة تنظر إليّ بعتاب لا يوصف، غادرنا على الساعة الثامنة بسبب العرض وطيور التِّرغَلّ التي كانت تتضور جوعاً في أقفاصها، بعد ظهيرة من فترات الصمت شديد الانتقام، توقفات دامية وإشارات حنان مبالغة من لدن زوجتي التي كانت تشد عنقها بيد وتشهرُ بالأخرى حامل سيجار مُذهباً، بلغنا مقطورتنا في اللحظة التي بدأ فيها طابور صغير يتشكل أمام كشك التذاكر الغارق في الموسيقى المنبعثة من مكبرات الصوت وصوتِ «المكنسة» الصدئ الذي يعلن عن أسماء الفنانين، كان كاشف ضوء ينير قفص الأسد المحتضر الذي يتأمّلُه مجموعةٌ من الناس المعجبين، ومن حين لآخر كان الحيوان يفتح فمه الفارغ في تثاؤب خنوع، كانت مدام سيمون تثرثر مع حمامها بصوت حاد

(١) إستير ولياماس (١٩٢١-٢٠١٣)، سبّاحة وممثلة أمريكية شاركت في عدة أفلام غنائية. (المترجم)

وودود، طرقَ حفيدُ «المكنسة» الزجاج كي يأمرها أن تلتحق بحلبة السيرك رفقة طيورها، جاء مستخدم مكلف بالحسابات ليأخذ الأقفاص ويحملها إلى الكواليس، استبدلت فستانها الأحمر بأشرعة طويلة سوداء، تطفو مثل أغصان أشجار، وأثناء الاستراحة بين اللباسيْن برز الجسد المدور، البض، الرخو، الأرداف المترهلة، الدوالي، طيات البطن المتوالية، أورام القدمين، وأظنُّ أنه حين نزلت عيناي من الساقين إلى القدمين اتخذتُ لحظتَئذ قراري، وأنا ألاحظ، من المرآة المحاطة بمصابيح صغيرة متعددة الألوان كنتُ أصفف شعري أمامها، الأصابع الغضروفية القشرية المتراكبة، فتنامى في دواخلي تقزُّزٌ غريب، انزعاج، اشمئزاز عميق أعمى، حموضةُ تقيؤ. كنتُ سأدخل الحلبة فقط في الجزء الثاني من العرض، إذ كان الوقت كافياً لأجمع حقيبتي فنسيتُ، في عجلتي أو توتري، حذائي، أخذتُ قطار التاسعة وعشر دقائق إلى لشبونة ووضعتُ بذلك حداً لأكبر مسار غنائي واعد في فترتي، ويستطيع أي كان، يتحلى بقدر متوسط من الموضوعية، وسبق له أن تابع عروضي، أن يؤكد ما أقوله لكَ، ماتتْ سيمون بعد بضعة أشهر من ارتجاج في المخ، بعد أن سقط فوق رأسِها لاعبُ العقلة الكبير، وتفرق أعضاء الفرقة، وجد «المكنسة» عملاً واشتغل خادماً في مبولة بساحة روسْيو في لشبونة لكنهم طردوه لأنه كان يختلس مادة البوتاس، باعوا الأسد لمهاجر برتغالي في فنزويلا أمر بتحنيطه كي يزين به رواق بيته، أما أنا فعثرتُ على هذه الغرفة واشتغلتُ لبضع سنوات في ملاه ليلية بساحة «إنتينْدينْتي»، أؤدي أغاني السامبا رفقة مغني مجموعة «نيكاس» و«شياطين الإيقاع»، كلهم ينتعلون أحذية بيضاء، يرتدون معاطف مخططة وقبعات من تبن، وجدتُ من جديد سانطوس في حانة «بيكاباو» حيث

كان مكلفاً بمستودع الملابس وبيع السجائر الأمريكية للنساء، إن الحياة لا تسير دائماً كما نشتهي، أليس كذلك، يا سيدي؟ والشيء الوحيد الذي يمكن القيام به هو الاستسلام، أنا والقزم نلعب بعض المقابلات بحبات الفاصوليا أيام الأحد، أو نذهب إلى حديقة كشك الموسيقى هناك لنسترجع ذكريات السيرك، وقد لاحظتَ، يا سيدي، كيف أن الشيخوخة منحته مظهرَ مولود جديد متجعد وأحمر، مليء بالتكشيرات والتشنجات، رضيع في ملابس رجل، قُبّعةٌ فوق الرأس، ربطةُ عنق يشدها دبوس، وضعنا رقعة الضّامة قرب النافذة، هكذا نرى قطعة من المدينة، السيارات، المارّة، كنيسة، تماثيل، تلك العمارات الشاهقة الآن، يجلب سانطوس قنينة ماء حياة تبعث الحياة في فتيل الروح، أحياناً، وأظن أن هذا هو ما يهمك أن تعرفه، كان الدكتور يأتي إلى غرفتنا، يطرق الباب، يستأذن الدخول، مهذباً، كتوماً، حزيناً، يسحب ذلك المقعد ويتابع مقابلاتنا في صمت، دون أن يشرب، يتأمل بوجه غير مهتم الملصقات على الجدار، أنا بسروال فضفاض، قبعة تيرولية، وشارب من الورق المقوى، ومدام سيمون باسمة، أكثر شباباً من الفترة التي تعرفتُ عليها، وسط دوامة من الحمام، ذات يوم سألني لماذا كل هذه الطيور فشرحتُ له إنها زوجتي المتوفية التي كانت تروض طيور الترغلّ، فيستمع لي في صمت، هل رأيتَ، يتفحّص الحيوانات، يفتش مناقيرها، عيونها، أجنحتها، قوائمها الدقيقة كأنها من أسلاك حديدية، قوادِمَها البيضاء، الرمادية، المزرقّة، التي تحلّق، لمدة لحظة، في أرجاء العلّية في رقصة قلقة فوق جمجمة القزم، فوق جمجمتي، فوق جمجمة الدكتور الذي يتأملها، منذهلاً، خدّاهُ السمينان يرتعشان، بابتسامته الكهنوتية الحزينة، لست أدري إن كنت تذكر ابتسامته مثل دمية من فخار، من

تلك التي نسحب منها خيطاً فيبرز من تحت عباءتها، مع كامل احترامي، قضيب ضخم، حكى له القزم ما كانت الطيور تستطيع القيام به بتلك العربات القصديرية والأراجيح المشكّلة من الخيوط، والرجل يستمع، فاغر الفم، ربما تستطيع مدام سيمون أن تشرح لي الطيور، قال، منذ ثلاثين سنة وأنا أسعى إلى ذلك، ثم أضاف، أخيراً، أستطيع أن أشرب قطرة من ماء الحياة، ثم عبّ من القدح، صار بنفسجياً، ألمّت به نوبة سعال، وقد يحدث له أي شيء آخر، فكّرتُ، وفي تلك اللحظة بالضبط، هل فهمت، تيقنتُ أنني سمعتُ، لست أدري إن كان ذلك يأتي من السطح، أو من الدولاب، أو من فراش السرير، هديل دردشات، احتكاك ريش، همساً انتشر من جدار إلى جدار حتى تحولت الغرفة بكاملها إلى خلية ضخمة من الأصوات النابضة التي لا تطاق، وتأكّدتُ من أنّ الدكتور ينهضُ ببطء، عمودياً، من كرسيه ليذهب إلى الخلف، ناشراً جناحيه، مثل ملاك مضحك، حسير النظر يسعل، في الزرقة الباهتة للملصق.

*

بدأت المراكبُ تعود الواحد تلو الآخر في الليل الرمادي باتجاه لسان الرمل الضيق على الساحل، وهناك في الخارج كفت الحافلات الضخمة عن هزّ الطريق كما في صور الأفلام القديمة، حتى أن الرجل المكلف بمحطة الوقود دخل إلى المطعم ليدردش مع النادل حول فطائر سمك القدّ، يقربان رأسيهما أمام المنضدة المنحرفة من فرط القِدَم، كأنهما عاشقان متواطئان. فكّرْتُ قضينا نهاية الأسبوع اللعينة هذه نتسكع بين حانات قذرة، نجلسُ على كراسي صلبة وغير مريحة، ننظر إلى أيام تمضي مليئة بالمطر، داكنة، معتمة، ثقيلة،

ننظر إلى النوارس وطيور البطّ تطفو فوق البحيرة بجمود لُعَب ميكانيكية، نستمع للريح تعزف الناي في أشجار الصنوبر، نشتمّ رائحة الطحالب العفنة والقصب المتحلل الذي صار مستنزفاً على الشاطئ، ولهذا أظنُّ أنه من الأحسن أن ننهي ذلك، سأعود لأعيش مع والديّ، يمكنكَ أن تحتفظي بالشقة، من حين لآخر سآتي لأساعدك إن شئت، باختصار كل ما كنتُ أنوي أن أقول لها قبل أن أكتشف أنني كنتُ فعلاً أحبها، أنني لا يمكن أن أستغني عنكِ، اللعنة، أنني لا أعرف كيف أطفو برأسي فوق الماء من دونك، نفس الخطاب، نفس الكلمات، تقريباً نفس النبرة الباردة اللطيفة، وها أنا ذا، بيضة مسلوقة في قبضة يدي، ملح وبزار يسيلان عبر مقبضي، الذي تحول إلى دمية بئيسة ترمز للدهشة. يُفكّرُ بعد قليل سوف نلج النُّزل في السيارة، صامتيْن، لا نتبادل كلاماً (ما الذي نقوله الآن؟)، بعيدين جداً عن بعضنا، يا ماريليا، حتى أنه إن اقتربنا بالصدفة لا نلمس بعضنا، غريبين عن كما كنتُ أنا وتوشا عندما ضغطتُ على زرّ المصعد، وحيداً مع حقيبتي عند قرص الدرج، فظلّت هي من باب الأدب عند الباب، كما لو كنتُ زائراً، فكّرَ، ابتسامة مريرة عابرة على محياها، يدها على المقبض، والطفلان يرقبان من ورائها بفضول. أين يذهب بابا؟ سأل الصغير فتجمد كل الدم في جسدي. قالت توشا سأحكي لكما ذلك من بعد. نزيلُ الغرفة الرابعة على اليمين، هناك في الأسفل، كان يفحص بريده: تحية السلام المعتادة التي لا تُلزمُ في شيء، لامبالاة لطيفة. يُفَكّرُ ما الذي قد يحدث، مثلاً، لو ارتميتُ في حضنه باكياً؟ وبعد ذلك على الفور ذلك الشارعُ، مألوفاً، معتماً، لا يتغير. وضع البيضة كاملة على الصحن، مسح أصابعه على المنديل الذي أُخرجَ من حلقته البلاستيكية، أسند

مرفقيه على المائدة وبحث في أعماق ذاته عن مظهر غير مبال، طبيعي، بينما آلاف الإبر غير المرئية كانت تخترق أحشاءه، عنيدة، مستمرة، سادية.

- ألم تعودي تحبينني؟ - سألها بصوت واهن، وشى به تردُّدُه.

- ألم يسبق لكَ أن قتلت أي فراشة؟ - سألهُ والده غير مصدق وهو يُقرّب علبة مسيّجة كان ينبض شيء ما بداخلها - الصعوبة الوحيدة، يا بُني، تكمن في عدم إتلاف أجنحتها.

كان الرجال يسحبون المراكب نحو اليابسة، يولون لنا ظهورهم، ويختفون تحت شرفة المطعم الخشبية، يحملون حزمات من الحبال على أكتافهم: أين ذهبوا، يُفَكِّرُ، أين يذهبون الآن؟ كثير من تلوينات الرمادي، كثير من البقع المتراكبة المتنوعة تتحرك ببطء نحو الخليج؛ كانت السماء تشبه وجهاً كبيراً مقعراً بلا ملامح، يتكئ على قمم أشجار الصنوبر القاتمة.

- إن كان ثمة شيء لا يمكن أن نتقبله، أيتها الرفيقة - نبّهَ الرّجُلُ الذي يترأس الجمع بوقار مقلق - فهو أن تتداخل المشاعر الشخصية مع الصراع الجماعي الصعب الذي نخوضه من أجل النصر النهائي للاشتراكية.

- إن الأمر لا يتعلق بالحب من عدمه - قالت ماريليا وهي ترسم ساهمة شكلاً حلزونياً بعقب سيجارتها في رماد المنفضة - إنك دائماً تطرح الأمور بعبارات عاطفية، فيُبسّطها ذلك ويفرغها من معناها. اتضح لي الآن أنه لأسباب مختلفة ينبغي لنا أن ننفصل. إن الأمور ليست على ما يرام بيننا، ربما كانت دائماً هكذا، لست أدري. أصول اجتماعية مختلفة، تكوين مختلف، أهداف مختلفة. منذ أكثر من أربع سنوات تقريباً وأنا مبعدة من الحزب بسبب علاقتنا وأظن أنه

حان الوقت لأقترب من الحزب. أشعر بالذنب من كل هذا، أكره أن أتخلى عن الأمور وسط الطريق.

- هل تريدين أن تذهبي لبيع طبعات رخيصة من كتب ماركس في ساحة روسْيو، كما لو كانت أعداد خاصة من مجلات نسائية خاصة بأعياد الميلاد؟ - سألتُها بشيء من الغيظ.

- عليكَ أن تمسكَها بحذر شديد - قال والدُه، وأصابعه الخفيفة، الدقيقة، تُقلّب محتوى العلبة بحركات طحلبية بطيئة. هناك ملاقط وقفازات خاصة بهذا الغرض، لكني أشعر بالراحة هكذا.

- توقفَ عن زيارة البيت - قالت أختُه الكبرى - لم أره قط في الحقيقة، لم أره تقريباً، هذا أمر واقع.

الرجل الذي كان يترأس الجمع انحنى إلى الأمام وتمسك بحافة الطاولة بعنف كبير حتى صارت مفاصله بيضاء.

- إن الطبقة العاملة لا ترضى بالضعف، أيها الرفاق - زأرَ - ودكتاتورية البروليتاريا لا تقبل المراوغات.

ظلَّ الجارُ ينظر إلى بريده عند البهو الذي زرعتْ فيه البوّابةُ أصصاً بأزهار جائعة، رفعتُ ذراعاً آليةً نحو سيارات الأجرة، وفي الأعلى كانت توشا تُنعسُ الطفليْن بنجاعة جافة كأنها ممرضة. يُفَكِّرُ لقد أدركا أن شيئاً ما غير عادي كان يحدث لكنهما لا يجرؤان على السؤال، يرتديان المنامتيْن، ينظفان أسنانهما، وينامان. يُفَكِّرُ أحنُّ إلى فُرشتَيْ أسنانهما الصغيرتيْن، بينما طيور البطّ تقلع من الماء وترسم قَطْعاً زائداً باتجاه المدينة. يُفَكِّرُ الملابس المزركشة فوق الكرسي، الأحذية الصغيرة، يُفَكِّرُ تنفسهما وهما نائمان، يُفَكِّرُ كيف قبلتُ أن أتخلى عن كل هذا.

- إن أرسلوني لأبيع كتب ماركس في ساحة روسْيو فسأبيع كتب

ماركس في ساحة روسْيو - قالت ماريليا وهي تُخرجُ ولّاعتَها من حقيبتها الأبدية الخرزية البلهاء - لكن، يا إلهي، كيف يصعب عليكَ أن تتقبل أنك لست أنت مركز العالم وأن هناك أشياء كثيرة أهم منك؟

- المقهورون، أعرف ذلك - قال - أحفظُ هذه الأسطوانة عن ظهر قلب. (وكانت الإبر تخترقه أكثر فأكثر، بقلق لا ينتهي).

خرجَ رجلُ محطة الوقود مرة أخرى ليحشر نفسه داخل علبة زجاجية، تعج ببراميل الزيت وحزم الفواتير: سوف يغلق بعد قليل، فكّرتُ، يمتطي دراجته النارية ويغادر مفرقعاً ومهتزاً فوق الأسفلت، في صخب من قطع قصدير ترتطم. في الأخير، أخرج الأبُ من العلبة، يشدها بين السبابة والإصبع الأوسط، زوجيْن من الأجنحة التي تهتزُّ، وفي وسطها جسم ضئيل يحرك قوائمه الدقيقة ومجسّتيْه.

- لقد انتهى الجزء الأول من العملية - همس قائلاً - انظر الآن كيف سأفعل.

- طبعاً، كانت تصلني أخبار زْوي من حين لآخر - قالت أخته الكبرى وهي تهزُّ كتفيها - كنتُ على علم بأنه ما يزال يُدرِّس في الكلية، أنه يحرر أطروحة تحريضية، وأنه لا يجرؤ على أن ينفصل عن زوجته المعتوهة. العالم قرية صغيرة، كما تعرف، قررتْ اثنتان من صديقاتي متابعة دروس التاريخ في الكلية وكانتا تريانه دائماً هناك.

- أيها الرفاق - أضاف الرجل الذي كان يترأس الجمع وهو يترك حافة الطاولة - من الآن فصاعداً، لن أتساهل مع الانحرافات البورجوازية في الخلية، وهي الانحرافات التي كنت إلى غاية اليوم المسؤول الأول عنها. وبصفتي مسؤولاً، أنا مستعد منذ الآن للقيام بالنقد الذاتي، وباسم الأممية الاشتراكية أشترط نفس الموقف من كل الرفاق.

يُفَكِّرُ لا أريد مرة أخرى أن تقوم السيدة أغوسْتينْيا، تلك العوراء، وتسقي النباتات الهزيلة المحتضرة عند مدخل العمارة، أن يظهر مرة أخرى ذلك السمكري المرح الذي كان يأتي باستمرار كل أسبوع ليسلك مجرى المغسل المنسدّ بنفس السلك الحديدي، أن تتجادل توشا مع الخادمة عن كل صحن يتكسر، أن يظهر بيدرو صباحاً، يحتضن وسادته، ليطلب في صمت بمحجريه المدورين أن ينام معنا في السرير. كانت هياكلُ المراكب المقشرة ترشح ماء زيتياً مثل الحساء، والألوان الرمادية في الخليج تغير شيئاً فشيئاً ظلالها.

- مهما صعب عليك أن تقتنع بذلك، فإنكَ لست مركز العالم - أضافت ماريليا، التي بدأت سيجارتُها تحترق في يدها الجامدة - لكنك صرت كبيراً لتفهم ذلك. أنت رجل مثل الآخرين، يا عزيزي، لك ما لهم من أهمية.

يُفَكِّرُ من دون عدوانية، من دون تهكم، من دون حقد، من دون رغبة في فرض أفكار من خلال شبكة معقدة من القياسات المنطقية التي تنفعها عادة في كبح قدرتي على الرّد. من دون حنان تقريباً، يُفَكِّرُ، من دون لطف تقريباً، كمن يتحدث إلى طفل عنيد، بليد نوعاً ما. يُفَكِّرُ ما الذي تشعرين به نحوي في هذه اللحظة؟ رأفة، غضب مكتوم، شفقة خنوع، لامبالاة شاملة، مطلقة؟ ومع ذلك، كان وجهها دائماً هو نفس الوجه، غير متناسق، قبيحاً، مفرطاً في الجدية. فتحَ والدُه جناحي الفراشة فوق ورقة، شد أطرافها بدبابيس دقيقة، بحثَ بعينيه عن القارورة التافهة الصغيرة التي تحوي السائل القاتل.

- جُعَةٌ - طلبتُ، رافعاً إصبعي نحو النادل الذي جثم فوق مقعد ليشعل التلفاز فوق رُفّ قرب السقف. كانت طيور البطّ تمرُّ في مثلثات، عالياً جداً فوقنا، باتجاه أشجار الصنوبر حيث تكثر الرياح،

باتجاه البحر الشاسع: فهل كانت هناك منحدرات جرداء في الشمال، أماكن تضع فيها البيض، تنام، جحور وسط الرمال بفراخ قلقة؟ وضعَ رجُلُ محطة الوقود قفلاً على القفص الزجاجي، تأخر في شد حزام خوذته المنبعجة، أقلع دراجته النارية الصدئة يدفع دواسة بحذاء رياضي، وانطلق ينفث دخاناً خلف طيور البطّ. وأخيراً، توقفت سيارة أجرة بالقرب منه، وسرعان ما فسح شارع أزيدو غْنيكو المجال لشوارع أخرى متشابكة ومختلفة، باعة متجولين، قاعة سينما، مقهى البلياردو أيام الثانوية. شخصٌ مصاب بالصرع ممدّدٌ في قارعة الطريق كان يبصق دماً مزبداً في فواقات صغيرة، ترقبه بفضولِ عالم حشرات امرأتان عجوزان، تحملان كيسين من البقالة في ذراعيهما.

- أقترحُ باسم الخلية - قال الرجل الذي يترأس الجمع بابتسامة صغيرة لاذعة - أن يتمّ نسيانُ هذا الحادث المؤسف بشكل فوري. (كان صوته يجتهد عبثاً في أن يكتسي عذوبة لا يملكها) لن نسمح، أيها الرفاق، للانشقاقات، مهما كانت صغيرة، أن تتعمق بيننا.

والنوارس، فكَّرَ، متى ستغادر النوارس أو تلك الطيور الصغيرة، البيضاء، ذات الذيول الطويلة، التي تتقافز فوق الرمال؟ متى سيفرغ الخليج من الطيور ويصير أفقياً ومسطحاً مثل بطن ينتفخ بطيئاً حتى يلامس الليل؟ رفعت أختُه الكبرى سماعة الهاتف بحركة فاترة.

- كانتا طالبتين لديه، لا تفهمان شيئاً من تلك الأشياء المعقدة الغريبة التي كان أخي ينطق بها في دروسه. تخلّيتا عن الدراسة بعد ستة أشهر لأن الحنين شدّهما إلى لعبة البريدج ولم يعد لديهما الصبر لتحمُّل ذلك الملل. نذهب الآن بالضبط إلى النادي كي نهزمهما.

يُفَكِّرُ ماذا صارت السيدة أغوسْتينْيا، ماذا صار البيروقراطي في الطابق الرابع، الحزين دائماً، الساهم، البطيء، المفرط في

الانحناءات، والمجاملات، والعبارات من قبيل «من فضلك»، «لا داعي للحرج» وما إلى ذلك من تودّد؟

- لقد غادر بابا - قالت لهما توشا - ابتداء من هذا اليوم سنكون وحدنا في البيت نحن الثلاثة.

- قطرةٌ صغيرة، بحذر شديد، فوق الرأس - قال والدُه. قطرةٌ زرقاء ارتعشت على حافة القارورة، انفصلت، سقطت على الحشرة، فاهتزّ جذعُ الحيوان ثانية واحدة، تحركت القوائم فيما يشبه تشنجاً وبدا كأن الجناحين ينفصلان عن الدبابيس الصغيرة. ظلَّ الأب، بجبينه المنحني جانباً، ينتظر وهو يصفر بصوت مكتوم.

- أنا صديقتك قبل كل شيء - قالت ماريليا وهي تعبّ جرعة جعة وتبتسم لي بشاربها الأبيض حول الفم - قد لا يعني هذا لك شيئاً كثيراً، ولكني حقا صديقتكَ.

مذاق السائل المرّ، ألوان المساء أكثر فأكثر قتامة، مثل عيون تنام، النادل يجثم مرة أخرى فوق المقعد بحثاً في أزرار التلفاز عن صورة لا تصلُ. والريح، هناك في الخارج، تُشعثُ الأعشاب الذابلة في المشاتل.

- يوم الأحد - أعلنت توشا بمرح وهي تستند إلى سريرَي الطفلين بطابقين - سيأتي أبوكما ليبحث عنكما ويأخذكما إلى حديقة الحيوانات. تذهبان معه لتقدما خمسة إشكود للفيل، تزوران قرية القردة وتأكلان الفستق. هل أنتما مسروران؟

يُفَكِّرُ الدميتان اللّباديتان في غرفتها، اللوحات على الجدران تمثل دببة، قططاً و«الرجل العنكبوت» معلقاً بخيط واحد إلى عمارة شاهقة، قطع الأثاث الزرقاء مزينة بزهور سخيفة بعض الشيء، الفوضى الأبدية، في السلة القصبية الخاصة باللعب. في الخارج،

ليلُ حيّ لابّا، يُفَكِّرُ، هادئ، معتاد، يكاد يكون حميمياً، هدوء الشوارع المعروفة، الروائح المألوفة، للصمت.

- تحيا الطبقة العاملة - زعق ذلك الذي يترأس الجمع، رافعاً قبضة يد مشدودة، واقفاً أمام الراية الحمراء في الركن - يحيا النضال من أجل تحرير شعوب العالم المُضطَهدَة.

- ألو؟ - همست أختُه الكبرى في الهاتف وهي تلوي الخيط الحلزوني حول إبهامها - لا، سأمر حالاً لأبحث عنك، كنت أهُمُّ بالخروج في السيارة. تبدأ منافسات الدوري على الساعة الخامسة والنصف، أليس كذلك؟

- هذه الحكاية معكَ كانت بمثابة وقفة في حياتي - شرحت ماريليا وهي تنظف فمها بكُمّها - اكتشفتُ أنني لا أليق للزواج، أفهمتَ، ثم إن هناك أشياء أكثر أهمية بالنسبة لي.

فقط عندما جلس إلى المقود تذكّر أن عليه أن يفتح الباب الآخر. الرّجُلُ في المطعم كان يتابع من الشرفة وهو يلوي عنقه، مهتماً للغاية، الصور التي لا تظهر على الجهاز.

- وهذا كل ما في الأمر - قال والدي وهو يمسك حشرة جامدة بين أطراف أصابعه وينقلها إلى لوحة ورقية خشنة - ها هي ميتة تماماً. بسيط، أليس كذلك؟

عندما شغّلَ المحركَ بالقرب من القفص الزجاجي، كان عليه أن يُشعِل المصابيح الأمامية لأن الظلام كان قد نزل. واشتدّ الظلام حتى أنه لم يكن ممكناً ملاحظةُ الحضور القريب، الربوي، للأمواج.





الأحد

بدأ الخليج يغرق ببطء في النوم، مثل صوتين يتداخلان: في البداية، كان فقط اللسان الجامد من دون روح، لسان الرمل المتسخ، أشجار الصنوبر الممزقة في الضباب، المراكب النادرة والمدينة بعيدة، غير واضحة مثل عيون العميان، ثم جاءت بعد ذلك الطيور، والنوارس، والبط وطيور لا اسم لها من نهر فوغا غزت ساقيه وساعديه، التهمت برقوقتيْ خصيتيْه العفنتيْن، مزقت بمخالبها داخل بطنه، حطت على كتفيه، على كليتيه، على ظهره، نقرت الحلم المشوش الذي كان يتخبط فيه (كانت أمُّه تحضن بيضة ضخمة تحتويه، هو وأخواته، بينما هي تلعب الورق مع صديقاتها)، وحين اقتحم أول تحليق للطيور مزقزقة في رأسه، استيقظ وفي زبدِ عظامه إحساسٌ بأنه غريق ومذاق أعشاب بحر في فمه المشرع على صيحة مكتومة. كانت أغطية سريره تطفو ببطء نحو الشرفة، طحالب متفرقة ترقص على الوسادة، هربت سمكة شفافة تضرب بزعانفها من بين فخذيه واختفت في جارور المنضدة، وسط القمصان والملابس الداخلية. كانت ماريليا تشخر بصوت خفيض جداً فتأثر لتنفسها الذي يشبه تنفس حيوان هامستر، كما تأثر للأصابع التي تتجاوز الغطاء فتقترب وتبتعد من حين لآخر في تشنجات دافئة ونباتية: سنوات

عديدة وأنا أنظر إليك تنامين عندما ينتهي مفعول أقراص النوم فأستيقظ قلقاً في الظلام، أشعل المصباح وهدوءُ شكلك المتمدد بالقرب مني يثيرُ حنقي مثل سوء حظ غير عادل، سنوات عديدة قضيتُها أكرهكِ في صمم من العمق الحجري للأرق، أُفكّرُ بشهوانية في هشاشة عنقك النحيف، أفكرُ في قطع معصميك بالمقص في علبة أدوات الخياطة، في أن أغطي وجهك بغطاء الوسادة العنيدة.

- لا، لم أشك قط أنها لم تكن تحبه - قال والدُه غير مصدق، وهو يبحث عن السجائر في جيب صدريته - لكن، اللعنة، ما الذي تريد معتوهة كهذه أكثر من ذلك؟

كنتُ أستيقظ، أشعلُ المصباح متحسسا (أعمدةُ الإنارة في شارع أزيدو غْنيكو، هناك في الأسفل، تُظهر قليلاً الستائر وتمنحها عذوبة لا لون لها) وأُفكّرُ لا بد أن الساعة تشير إلى الثالثة، الرابعة صباحاً لأنني دائماً في هذه الساعة أعود لأطفو فوق ذاتي، فوق الأغطية، يُدَوّي بكاء طفليّ في أذنيّ، وتوشا، قبيحة، شعثاء، مهددة، ضخمة، تريني الشارع بسبّابتها الضخمة المتوترة، هيا اخرُجْ، لم أعد أريدُكَ هنا. الماء المتجمد في الثلاجة، التي يشبه محتواها من بعيد حقيبة يدوية للنساء، كان لهُ مذاق الحديد، قدماهُ الحافيتان الباردتان تنكمشان فوق بلاطات المطبخ، عرق بارد ينزل عبر ظهره، بين الجلد والمنامة، الساعة الكهربائية فوق الباب تشير إلى الثانية والنصف، ثم يجلس، في الأخير، على أريكة الصالة، لا يُدخّنُ، لا يقرأ، لا يُفكّرُ في أي شيء، يحدقُ بعينين جاحظتين في الظل الهندسي للرّف. بعد مدة، وصف له الطبيب أقراصاً كان مفعولها يستمر إلى غاية الخامسة أو السادسة صباحاً تخنقُ أحلامَهُ في عجين عكر لا يحتفظ عنه سوى بذكريات أحداث جزئية ومفككة، فلم يعد ينهض بعد ذلك من

سريره، يظل يستمع للنهار يكبُر مع ضجيج العمارة، التي كانت تدوي في أحشائها صحون، طرّادات ماء، أدوات أكل، صفير خشن يصدر عن المصعد، الأصوات الحادة للجيران الذين يبدو أنهم في شجار دائم. كما هي الحال الآن، في أفيْرو، فكَّرَ، في غرفة النُّزل المتخمة بالرطوبة والمحاصرة بالخليج والنوارس، يسمعُ خطوات العجوزين الإنجليزيين اللذين يتحركان مثل غوّاصَيْن في الرواق، بينما صدرُكِ يصعد وينزل، يُقرّب ويُباعدُ عِصِيَّ مروحة ضلوعك، فيبدو أنه يتحكم في تأرجح الأثاث، تدفُّق دمي وحركة الجدران في تموجات مدّ وجزر.

- إن لم يتم إشعالُها بأعواد ثقاب خشبية أؤكد لك أن المذاق ليس هو نفسه - شرح له والدُه وهو يعرض سيجاراً بابتسامة إعلان في المجلات: رجل ما يزال أنيقاً، بصُدغيْن أشيبين، أنيق الملبس، يجلس على أريكة جلدية في ركن مريح من المكتبة. نفخ خدّيهِ وهو ينثرُ سحابة دخان، تفحص الرماد بتكشيرة صارمة: ليكن واضحاً أنني بقيت دائماً بعيداً قدر الإمكان من هذه العلاقة.

- احتجتُ إلى وقت طويل قبل أن أتشجع وأتحدث معه بكل صراحة، أكره حالات الالتباس - قالت المرأة غير المهتمة بمظهرها وهي تنفض القشرة عن معطفها بظهر يدها - لم يكن ذلك لانعدام الشجاعة، هل فهمت، بل بسبب هشاشته. وذات يوم، اغتنمت الفرصة عندما اقترح أن نقضي نهاية أسبوع في الريف فعزمتُ على الأمر. طبعاً، ما حدث بعد ذلك لم تكن له أي علاقة بهذا الموضوع، فلا أحد يموت جراء علاقة فاشلة.

بنتُ العم في المصحة دخلت تدمدم إلى قفص، تخفي خديها تحت لحية طويلة لبابا نويل:

- المرأة ذات اللحية، سيداتي سادتي، التي وصلت للتو خصيصاً من كولومبيا - زعق الطبيب الهندي نحو الأسرة الجامدة في المدرجات - سوف تمزق أمامكم ثلاثة دلائل هاتفية، بفضل القوة المثيرة لعضلاتها. نطلب من الجمهور المحترم أن يتفضل ولا يقترب نظراً للخطر الطبيعي الخاص بمزاجها المتوحش.

ساعتُكِ اليدوية فوق طاولة السرير من الفورميكا كانت تشير إلى السادسة والنصف، أسراب النوارس تحوم من دون كلل فوق البحيرة. ظِلٌّ لا شكل له يكبرُ، يقترب وتتضح معالمه فجأة في ذهني: نَنْفصلُ. كان تنفُّس ماريليا يهزّ الآن الأثاث فيما يشبه الغضب، يبدو أن السقف على وشك أن ينهار فوق رقبتيْنا في قشور من الجص المغبر، نوافذُ يصعب تحديد مكانها كانت ترنّ، تنهّدَ الهواءُ في الأنابيب فامتدّ ضجيجُه طويلاً في الصمت، مثل اهتزاز كمان جهير: نَنْفصلُ نَنْفصلُ نَنْفصلُ، كان يُرددُّ نعيبُ الطيور بسخرية، كلبٌ يعوي غاضباً تحت النافذة (نَنْفصلُ)، أشجارُ الصنوبر تُحيّي بعضها بعضاً محركة أذرعها الطويلة القاتمة حيث الليل، الجاثم، يختبئ (نَنْفصلُ)، نَفَسٌ جامد يهمسُ لقمم أشجار الأوكاليبتوس سرَّهُ الغامض: نَنْفصلُ. السيد إسْبيرانْسا، بحاجبين مصبوغين وحمالات سروال ضخمة، عدّل الميكروفون بينما كان القزم، خلفه، واقفاً على الكرسي، يجرب آلة الكلارينيت التي يموجُ صوتُها الأنثوي في شكل لولبي حول نفسه، كأنه حلقة دخان خفيف جداً.

- لم يأت قط بعد ذلك أيام الأحد ليلعب الضّامة، قرأنا لاحقاً في الجرائد، صدفة، ما حدث له - قال بصوت معدني كأنه من يوم البعث، يشوّهُه قمْعُ مكبّر الصوت - إحياء لذكراه سأعزف قطعة باسودوبلي شهيرة تحمل عنوان "*Te Quiero España*".

- يا لها من حماقة - قال والدُه بابتسامة وحركة ضجر جعلت خاتم مرحلة الدراسة الجامعية يلمع في إصبعه الصغير - حسب علمي، لم يسبق لأي فرد من أفراد العائلة أن انتحر بسبب شيء سخيف كهذا.

- لم يبدُ لي متأثراً كثيراً عندما تحدثنا في هذا الموضوع - قالت المرأة غير المهتمة بشكلها وهي تنزل عبر سلالم الكُلّية باتجاه محطة الحافلة، تسحب المحفظة خلفها كما لو كانت طفلة سريعة الغضب - ظل هادئاً، صامتاً، ينظر إليّ بوجهه العادي الخالي من أي تعبير. نفس الوجه كالعادة، ظاهرياً، هل ترى ما أعنيه؟

- كان شخصاً عُصابيّاً من الطراز الأول - قال طبيب التوليد وهو يجمع وزرته في خزانة المستشفى ويسحبُ صدريته من علّاقة أسلاك حديدية - والعُصابيّون، أتعرفُ، يتحملون في هدوء الزلازل العاطفية. إن كان قد انتحر، ولاحِظْ أنني أذكرُ الانتحار فقط على سبيل الفرضية، إن كان قد انتحر، أقول، فأكيد أنه أقدم على ذلك لسبب آخر مختلف تماماً.

الآن، أنا مستيقظ تماماً - فكّرَ - أستلقي على سرير في هذا النُّزل الفظيع الأبله الذي يعريه نهر فوغا شيئاً فشيئاً، باستثناء رعشة ماء خفيفة على سطح المرايا وصورة نورس على الستائر، معلق فوق الخليج كأنه طائر لا وزن له، من ورق. أنا مستيقظ تماماً وسط هذه الضجة التي تصمُّ الآذان داخل جمجمتي، غارقاً في صمت الصباح الجصّي، أشبهُ جمجمة مستخرجة لحيوان قديم جدا، يملأ الضبابُ محجريَّ، أسناني مقتلعة تتجول فوق حذوة لثتَيَّ، وحضوركِ القديم للغاية بجانبي، تشخرين مثل تمساح لا شكل له تحت الأغطية. السادسة والنصف، السادسة وخمسة وثلاثون، السادسة واثنتان

وأربعون: ضوء مائل، برتقالي، يشقُّ بصعوبة طريقه عبر الضباب ويقترب من الضفة في هالة من عدد لا يحصى من جزيئات الضباب المعلقة التي تشبهُ الطيور، وسطها، سُفُناً بلا دقّة، فقدت وجهتها، ولم يبق منها سوى ظلال عظامها الظاهرة على صور الأشعة السينية في صفيحة السماء المعتمة. أسندَ ظهرهُ إلى قبّة السرير، مرّر أصابعه عبر شعره المتناثر، شبه الشفاف، على جبينه، ثم أغلق جفنيْه: كان قد خرج إلى الشارع، وتوشا هناك في الأعلى، تغلق الباب، تداعب بلمسة ساهية الطفليْن، تُركّب رقْمَ هاتفٍ (وأخيراً، تخلصتُ منه، تصوري ذلك) إحدى صديقاتها، وتدردش مطلقة ضحكات صغيرة وأسرارا، تشبك ساقيها فوق الوسادات المتناثرة على الأرض: أيتها العاهرة، لقد خرّبْتِ حياتي. وقتٌ طويل قبل أن تقبلي حبي، وقتٌ طويل أن تقبلي الزواج بي: لستُ أدري، أنا بحاجة لأفكر، هذا شيء سابق لأوانه. أختاك الصغيرتان كانتا تتهكمان بي في الرواق عندما ذهبتُ لأتناول العشاء هناك لأول مرة، مدّ لي والدُك أصابع رخوة، ساهية، دون أن يرفع مؤخرته عن الأريكة، يتابع الأخبار على التلفاز بالنصف الأسفل من نظارتيه.

- هل أنتَ بخير؟

بحركة غير ملحوظة من حاجبيها، أمرت أُمُّ توشا أن يقدموا لي الحساء: على الجدار، منظر طبيعي إنجليزي من القرن التاسع عشر يعرضُ، بين ستائر نافذتيْن، باقة ألوان خضراء رائعة وثقيلة.

- هشٌّ الطبع شيئاً ما بالنسبة لذوقي، يفتقد القوة - قالت، وأوتار عنقها بارزة تحت تجاعيد جلدها - لم يكن أصيلاً، وكان يفتقد القوة، أتفهم، كان يظهر من الوهلة الأولى أنه لن يكون بنفس قوة ابنتي.

واحدة من أخوات توشا، تنتعل حذاء باليه وترتدي ما يشبه بذلة سباحة برّاقة، صعدت فوق قاعدة صفراء ثم طوت جسدها حتى لمست برأسها تجْويفتيْ ركبتيْها.

- الأشخاص البُدن يثيرون الاشمئزاز - قالت بصعوبة بين أسنانها، من خلال ابتسامة متكلفة - كان بطنُ ذلك الشخص دائماً يثير رغبتي في التقيؤ.

ماريليا، فكَّرَ، ماذا سأفعل الآن؟ لم أتمكن قط من إدراك الأهمية التي كنتِ تشكلينها بالنسبة لي: كنتُ دائماً أجدكِ مصممة أكثر من اللازم، قوية أكثر من اللازم، قادرة أكثر من اللازم أمام ترددتي الأبدية، أمام خوفي، أمام فزعي المضحك من كل شيء، أمام شكّكِ الأبدي حول **وماذا بعد؟** كل لحظة. لم يكن فقط ماركس، والسينما الأمريكية، ومسرح الطليعة، والأظافر المقلمة قصيراً، وسوء الذوق في اختيار الملابس، والأب بقميصه الداخلي عند نافذة البيت، شعر صدره ينفلت من آلاف الثقوب في الثوب: كان ذلك هو الأمان في الفوضى، الهدوء الداخلي في غبار الأثاث، اليقين بحضوركِ وأنا أرى حبيبات القشرة على المشط، الإحساس بأنك تحمينني من القمصان التي لا تنظفها الخادمة بعناية، من غياب الحليب في الثلاجة، من زيارة الطبيب النفساني، من الوحدة والحمى، الأمل بأنك ستدافعين عني من الحنين إلى توشا والطفليْن، من المرارة المستمرة، المتسائلة، لأسرتي، من الأسئلة، من النظرات المُقنّعة بطرف العين، من التظاهر بالدهشة، من التكشيرات. نهضَ ليشرب ماءً لأن اللعاب كان يمنح فمه مذاقاً مراً، فلمح، في الجهة الأخرى من الستائر، المنظر الطبيعي المعتاد، الراسي مثل لوحة، نَفْسُ أشجار الصنوبر، نَفْسُ أشجار الأوكاليبتوس، نَفْسُ الطريق شبه الخالية من الحركة، نَفْسُ الضباب اللزج والبارد.

- منذ غادرَ البيت لم أعرف جيداً كيف كان يعيش - قالت أخته الموسيقية مرتدية لباس النوم، خرقاء وذميمة، ترسم طواحين بذراعيها ويديها، تحت السلك الحديدي الذي كان أستاذ الرياضة، في توازن صعب، ينجزُ فوقه تمارين معقدة - كان يعيش حياة بوهيمية مستسلمة، أظنُّ، حياةً يومية ضيقة الأفق.

- انعدام المال، انعدام المال - صاح طبيب التوليد في العتمة وهو يمسح وجه كارلوس بمكنسة مرحاض مليئة بالرغوة ويحمل في اليد الأخرى موسى خشبية ضخمة - هناك أشخاص يحبون التمرغ في مظاهر البؤس، أليس كذلك؟

- كان أصهاري دائما ينبهونني إلى عجزه عن تدبير أموره الخاصة ويحذرونني في كل لحظة من خطورة إسناد أي منصب من مناصب المسؤولية في المقاولة إليه - قال والدُه وهو يحرك رأسه في استسلام كئيب بينما كان يُخرج أصّاً ورقيّاً من الجيروانيوم من جيب معطفه بمهارة ساحر سيرك - الحقيقة أنه كان شخصاً غريب الأطوار له اهتمامات غريبة، وهواجس عبثية: اسمعوني جيداً، قبيل موته بقليل، جاءني يطلب مني أن أشرح له الطيور، كما لو أن الطيور يمكن أن تُشرح: لم أفهم قط ما كان يعنيه بالشرح: هل تفهمون الطيور أنتم؟

نهض تحت وابل من التصفيقات (كان بعض أفراد الأسرة واقفين على المقاعد الخشبية يصيحون بحماس، ترتطم أياديهم بهيجان مجهول، يفتحون أفواههم ويغلقونها هاتفين باسمه) واتجه نحو الحمّام، يتبعه مخروطُ نورٍ كاشف ضوء، ومنامة المهرج ترقص بشكل مضحك من حوله. جفناهُ المزينان بالهالات، أنفُه الأحمر ولحيتُه التي لم تُحلق أثارت ضحك الجمهور: عمٌّ بدينٌ، هناك في

الخلف، بفم فارغة، كان يضرب ركبتيْهِ بكفّيه، يختنق من الضحك. عندما طلى خدّيه برغوة «بالْمولايْف»، صار الضوء بنفسجياً، فبدا رأسُه فجأة مثل باسور على وشك أن يتفرقع، انفجرت قهقهة عالية وسط الجمهور، سرعان ما شددت عليها الفرقة الموسيقية بخوار صدرَ عن آلة النافخ المترددة. شارداً، سخيفاً، أخرق، نظر إلى نفسه في المرآة وهو يمسحُ وجهه بمنديل ثم فكّرَ منذ كم سنة، يوماً بعد يوم، وأنا أكرر هذا العرض الأبله؟ لماذا لا أستقيل من السيرك أو لماذا لا يُسرّحونني من هذا العمل؟ فكّرَ بينما كان صوت والده يخترق الزجاج ويعلن بنبرة مخنوقة عن الفنان الموالي الذي أغرقهُ حماسُ الجمهور تحت التصفيقات والصيحات.

– هكذا – كان يهمس والدُه وهو يشهر قارورة الفراشات – قطرة واحدة على الرأس تكفي – ثم انحنى ليصب بواسطة قطّارة قطرته القاتلة في الخياشيم الذابلة لأُمّه – انتبهْ – قال – كيف أنها لا تتأخر كثيراً في الموت: لحظة قصيرة، رعشة أو رعشتين وانتهى الأمر – فتحَ صنابير الحمّام، جلس على حافة الحوض وترك الماء ينزل حتى بلغ الثقب الأعلى، يتحسس من حين لآخر الحرارة بإصبعه. وشيئاً فشيئاً غشى البخار السطح المعدني، والزليج وزجاج الغرفة الضيقة، وراح مصباحُ السقف، عموديا، بعيدا عنه، يسيرُ على غير هدى في ضباب من البخار، حتى صار قمراً قصيّاً، لبنيَّ اللون وباهتاً. فكّ أزرار معطف المنامة وهناك كان جسده المدور من دون ضلوع، يتساقط طيّات مترهلة فوق العظام، الوردة الشعثاء لعنّته، ركبتاه المتقاربتان، الحولاوان اللتان تتشاجران بعنف: انحنى المهرج بلباس براندبورغ بحركة تبجيل وأشار إليّ بقفازه الضخم:

– سيداتي سادتي، أيها الأطفال والفتيات، أيها الجمهور

المحترم، ها قد أشرفنا على لحظة أوج عرضنا لهذا اليوم - صاح وهو يقوم بشقلبات استعراضية حول الركح - يقدم لكم «سيرك غاريبالدي الكبير» مباشرة عرضه الفريد. إن الإدارة تنصحُ مرضى القلب، والنساء الحوامل، وكل من يعانون من الاكتئاب، أو أصحاب الأحاسيس المرهفة عموماً أن يغادروا القاعة تفادياً لأي صدمات عاطفية مزعجة. كما يمكن أن تلاحظوا، يقوم زْوي س. الذي لا يُنسى بأخذ آخر حمام في هذه اللحظة بالذات.

تمدّدَ بجسمه الكامل، وضع رقبته على المينا، أغمض عينيه، فطفت أطرافُه حُرّة فوق الماء في كسل بطيء للشَّعْر. حتى رأسه، الذي خدّره بخار الماء والأرق، كان يتأرجح بشكل خفيف بينما والدُه، في المكتب، كان يضع أمّه فوق لوحة ورقية عليها عبارة (اسم باللغة اللاتينية؟) عند قدميها. فكّرَ في أي جارور من جوارير الخزانة سيضعها؟ ثم بدأ يطلي جسدهُ (العنق، الإبطين، البطن) بقطعة صابون نموذجية من تلك التي توجد في الفنادق، ملفوفة في ورق فضي أخضر، لإبعاد النوم. انحنى والدُه حتى كاد يلمس الأرض ثم أدخل اللوحة في الخزانة المخصصة للأنواع الأقل ندرة أو في حالة سيئة، والتي تنبعث منها أحياناً رائحة لزجة. برز وجهه، محرجاً، فاعتذر:

- لم أُطوّر بعد تقنيتي، وقد أتلفتُ كثيراً من الحيوانات بسبب السوائل غير المناسبة: لا يمكن أن تتصور كم يمكن أن يكلفنا الخرقُ غالياً.

حلَقَ وجهَهُ في حوض الحمّام متحسساً ذقنه وخديه، وهو يخرج من الماء ملفوفاً في غطاء ردائه، يُتوّجُ رأسَهُ الأصلعَ شعرٌ مبلل مثل شعر أعضاء مجلس الشيوخ الروماني في السينما، فتأكد أن أعضاء الفرقة كلّهم، بملابس الحفل المفرطة في الألوان والعباءات

المخملية، كانوا يراقبونه، مزدحمين قرب ستار الركح. أختُه الموسيقية، نصف مختفية وراء الظل المربع البراق لعضلات أستاذ الرياضة، كانت تكفكف دموعها بمنديل محتشم: كان خيط مُجَمّل الرموش ينزلُ نحو فمها، حلقات شعرها تنحل شيئاً فشيئاً لتتحول إلى أهداب عادية لا أناقة فيها. الطبيب الهندي، إبرةٌ ضخمة تخترق صدرهُ النحيف مثل درويش، يملأ شهادة الوفاة وهو يسند الورقة إلى إحدى ركبتيه الهزيلتين. دخلت الجوقةُ الموسيقية (ثلاثة أو أربعة أبناء عمّ بشَعْر حزين، يجلسون على منصة قرب الركح) غير مضبوطة، في قطعة تانغو، فأخذ ينشف جسده على إيقاع الطبل بينما جذعه غير الواضح يظهر ثانية من أسفل إلى أعلى في مرآة، صدئة وشاحبة، مثل عريس حورية البحر: بهذا الشكل المحتضر لا ينقصني سوى شص في فمي، فكّر، لا ينقص سوى أن يكون قد اصطادني أحدهم قبل لحظة. يُفَكِّرُ عندما نصل إلى لشبونة هل ستأخذين حقيبتك وترحلين، أم أنك ستبقين لبضعة أيام أخرى في شقة شارع أزيدو غْنيكو، قصية، غريبة، تحدقين في حبات بطاطس العشاء المقلية بتركيز فاتر؟ هل سأرمي صوركِ في القمامة، هل سأجمعها في الحقيبة، هل سأشعر بالغضب، والحزن، والخنوع، وأغلق على نفسي، مثل مصغّرات سُفن البحّارة، داخل قنينة من ماء الحياة، هل سأنشر نَفَساً قاتلاً في مدرجات الكُلّية؟ هل سأبحث عنكِ، يا ماريليا، بعد وقت قليل، كي أطلب منك والدموع في عينيّ، أتوسل إليك مثل كلب منبوذ، لتعودي؟ هل سأنزل من الحافلة، شاحباً من الخوف، في حيّ والديكِ، وأنتظركِ مستنداً إلى علبة الرسائل، أفرش قارعة الطريق بأعقاب السجائر؟ أم أنني سأنجرف في علاقة عاصفة مع أي طالبة، مزاجية، متهكمة، مراهقة، تسحبني كل ليلة من طرف ربطة عنقي

خلف شروطها المتسلطة نحو حانات مدخنة تعج بفتيات شابات بشعر دهني، ينتعلن خفافاً ويرتدين تنانير طويلة مزركشة بأزهار، رفقة أشخاص من ذوي عبقريات لا جدال فيها، يحملون حقائب، ويشاركون كل سنة في مسابقات شعرية بدواوين من قصائد مهشمة بكل تأكيد؟ أختُه الصغرى، بتنورة وقفازين أبيضين حتى المرفقين، وماكياج مفرط، في توازن على دراجة هوائية ذات عجلة واحدة، رسمت في الهواء، فاتحة ذارعيها، حركتين حلزونتين بمعصميها:

- ها نحن هنا جميعاً، ها نحن هنا جميعاً - قالت بصوت دمية مسرورة - ما كنا لنفوّت لحظة موته، أليس كذلك؟

- أتْلفْتُ كثيراً من الحيوانات، لا جدوى من إنكار ذلك - قال والدُه معتذراً، تعلو وجهه تجاعيد تقزز - لكن الآن، عكس ذلك، لا أخطئ ولا حيواناً واحداً. هل تريد أن ترى؟

بدأَ يفتح بحماس جوارير الخزانة فلمحتُها، مشدودةً بدبابيس إلى لوحات ورقية صغيرة، طيورَ طفولتي، تلك التي كانت، مع نهاية الظهيرة، تقلع محلقة من شجرة التين نحو الغابة، أجنحتها مصلوبة وعيونها مائية جاحظة من فرط الرعب.

- هل نقوم بنقر بطونها؟ - اقترح والدُه بضحكة متواطئة وهو يمدُّ يدهُ نحو السكين الفضية التي تُستعمل لقطع الكتب - إن مزّقْنا بطونها ونظرنا إلى ما بداخلها، ربما تمكّنتَ، هل فهمتَ، من الحصول على هذا الشرح الشهير للطيور.

ارتدى لباساً داخلياً نظيفاً (صفق الجمهور لحسن مراعاته) جوارب وقميص البارحة (وهو ما أثار صفيراً أو صفيرين متفرقين يعبّران عن استهجان في صفوف الجمهور)، سروالاً مخملياً من القطيفة (لا أرتديه أبداً تقريباً، فكّرَ، فلماذا، يا إلهي، فكرتُ أن

أضعه في الحقيبة؟) معطف الزي الشيوعي، ثم بقي لبضع لحظات جامداً، وسط الغرفة وهو ينظر إليكِ تنامين، ويُفكّرُ **لماذا؟** شيء ما لا رجعة فيه تكسر يوم البارحة مثل محرك قديم منهوك توقف، فشعر لحظة أنه مهجور تماماً ووحيد للغاية في صباح أفييْرو الذي ما زال يعكس في المرايا تموجات ظله من دون ألوان. كان ضوء ملطَّف ينير منحرفاً الأثاث، لباس بونشو المعلق على الكرسي مثل جلد حية انسلخت، عقب خارج الأغطية، معلق في الهواء مثل قدم شخص مشنوق. يُفَكِّرُ **رأيتُكِ** عارية لأول مرة في شقة صديقتكِ في ألْجِيشْ، كنتِ قد دعوْتِني لنذهب هناك كي نتحدث على راحتنا، في هدوء عن أورسون ويلز، **لم** يخرج أحد قط فيلماً مثل «المواطن كين»، هل لاحظتَ مثلاً لقطة الشيخوخة، وكنتُ أفضّلُ فيليني، فيسْكونتي، المخرجين الإيطاليين الذين تنعتينهم بالمنحطين. كانت الشقة في طابق رابع من دون مصعد، تطل على شارع يمر منه الترامواي، تحفه منازل قبيحة، أشجار نحيفة، مستودعات في حالة رديئة، وسط ضجيج معدني صادر من المكاتب. يُفَكِّرُ **تحدّثنا** لساعات طوال جالسين على أرائك يغطيها ما يشبه البلاستيك اللؤلؤي، مع نسخ لوحات فنية رديئة على الجدران، سُتُر صغيرة وسقف بُنّي مُدْخِن، غياب تام للشخصية في المنافض المعدنية وقطع الأثاث البسيطة، يحمل كل واحد كأساً من شراب عرق سوس في يده، جدياً بعناد، يضع قدميه على الغطاء المخطط الذي كان يُستعمل سجاداً وتبرز منه طيات تحت الأحذية. كانت هناك كُتُب محاسبة فوق رفّ منخفض، مجلات قديمة، حصالة على شكل خنزير خزفي تمثل «تذكاراً من مالفيرا»، ومن حين لآخر، كانت الأنابيب تحتج صائحة باضطراباتها الغازية. في الحمّام، حوض الدّش المتسخ، يحيط به ستار ممزق،

حوض المرحاض مسدود، تفوح منه رائحة كريهة، حيث تتراكم أوراق النظافة وزبد من البول، أثارت اشمئزازهُ ففضل أن يغسل يديه في حوض الاستبراء، هارباً من المغسل حيث تتناثر خصلات شعر أشقر وشظايا صابون جاف. حتى المرآة كانت مدنسة ببراز الذباب وحشرات منسحقة تحت الصفعات، أمّا القارورتان أو قوارير العطر الثلاثة الموضوعة فوق خزانة صغيرة بيضاء فبدت له فاسدة يغطيها الغبار. ضاجعا بعضهما في وضعية غير مريحة على وجه السرعة في غرفة ضيقة فوق أريكة كانت منابضها تنفلت باستمرار تحت جسديهما، وبعد ذلك، عندما دخنا سيجارة وهما مستلقيان على ظهريهما، يرميان الرماد في بلاستيك العلبة، ويلتقطان جرائد برازيلية من كومة الأوراق المصفرة تحت السرير، سمعا صوت المفتاح في القفل، فتغطيا بسرعة بغطاء السرير من ثوب البركال، ومباشرة بعد ذلك تقريباً، متشبثةً بمحفظة ضخمة، دخلت الصديقةُ مثل عاصفة وأهداب فستانها تدور في دوامة، رمت المحفظة في ركن، جلست على الأرض، اتكأت على قطعة أثاث ذات أبواب زجاجية ربما كانت تتراكم مختلطةً بداخلها ملفاتٌ ومجلات، ثم سرعان ما بدأت تشتكي من تلاميذها في الثانوية (تنتمي إلى تلك الفئة من النساء، فكّرَ، اللواتي يكسرن عيدان الأسنان قطعاً صغيرة في المطعم)، وتمسحُ نظارتيها على ذيل معطفها وتكشط بظفرها قشور البيض فوق غطاء السرير، في نوبة تنظيف مفاجئة وغير متنظرة.

- كانت غير مرتاحة تماماً، المسكينة، لا تعرف ما تفعل - لامتْهُ ماريليا بعد ذلك بنبرة اتهام في الحافلة - وأنتَ، فوق ذلك، بوجه كالقرد، صامت مثل قبر، لم تقدم لها أي مساعدة.

شيئاً فشيئاً، بين جرعتين من الشراب المحلى (لا أستطيع أن

أشرب شيئاً آخر، ماذا تريدون؟) بفضل شظايا حديث، قطع من حوار، جمل عرضية، فهم أن صديقة ماريليا كانت تُدرّسُ الرياضيات في أمادورا، أنها عاشت لسنوات مع طالب برازيلي يدْرُس الطب، أنها تناضل في منظمة ثورية وأنها لا تحب كثيراً أن تستحم: كان عرق ماعز يمتزج بعرقها في تداخل سميك من الروائح المقرفة والقويّة، بينما صفيحةٌ من الشمس تشطرها زاوية أثاث إلى قسمين كانت تتسلق الجدار مثل حلزون. عندما نهضت الفتاة، وشعرها الواضح من دون لمعان يتراقص حول عنقها، جمع بسرعة لباسهُ الداخلي من الأرض وارتداه ثم راح يبحث عن جواربه تحت السرير.

- كان عليك أن تشكرها لأنها أعارتنا بيتها - تابعت ماريليا بصوت مكتوم، بعد صمت طويل وغاضب - بدل أن تسحبني شبه عارية إلى الخارج. (كان وجهها ينعكس على النافذة في تلك الظهيرة المحتضرة: ماريلياتان غاضبتان، فكّرَ) بعد هذا الحادث، أُقسمُ لك إنني لن أعود ثانية إلى هناك.

لكني كنت أشعر أنني لست مرتاحاً، متواضعاً، محتقراً، عارياً جداً أمام تلك المرأة المفرطة في الكلام، المُبالغة في العفوية، التي تنطق من دون توقف بأسماء أشخاص لا أعرفهم، تضحك معكِ عن أحداث من الماضي لا تعني لي شيئاً، تذكُر حقباً من عصر حجري تتقاسمانه ولا يعنيني في شيء. وغيابُ الحشمة لديكِ أمامها كان يثير أعصابي، وأنت عارية الكتفين، مكشوفة النهدين، سرّتك في الهواء، أطراف شعر جسدك متشابكة. لبستُ سروالي بينما كانتا تثرثران، أغلقتُ أزرار قميصي، عقدتُ بصعوبة رباط حذائي، اتكأتُ بشكل ظاهر على الباب وأنا أنتظركِ، لكنك، دون أن تريني، تابعت باهتمام الحوار المضطرب مع صديقتكِ، بنهدين يرتعشان حماساً وكأس

فارعة في يدك، نسيتني تماماً، تخططان للقاءات، زيارات لمعارض، أمسية عند رسام من عشاقك السابقين، في غرفة مظلمة تطل على فناء خلفي حيث كل الكراسي لطّخت بالصباغة قاعَ سروالي وحيث، ساهمة عن كل شيء، كانت امرأة عجوز وحيدة بشعر صبغ باللون البنفسجي ترتفع في الهواء في ركن من الصالة وتشتمّ الكوكايين عبر ورقة مالية من فئة مئة إشكودو.

- هذه أمي - قال الرسام، بشعر فوق كتفيه وصوت مزماري وهو يقدمها لنا، يدور حول نفسه بخطى راقص خفيفة ويوزع النبيذ الأبيض على مجموعات من الملتحين المقتنعين، نساء شابات بقبح لا يمكن تداركه يلفهن دخان ثقيل عذب من الحشيش.

- ألم تنتبه إلى أنها كانت متضايقة مثلنا وأنها كانت بحاجة إلى شيء من الحديث كي تسترخي؟ - سألتهُ ماريليا وهي دائماً منعكسة في زجاج النافذة، بنفس نبرة الاتهام الحادة: كانت الواجهات تنزلق، سائلة، خلفها، من العمارات، والمحلات، وزوايا الشوارع، من الناس المزدحمين أمام كشكٍ للجرائد - لكن، طبعاً، أنت لا تطيقُ أصدقائي ولم تفهم شيئاً مما كان يجري.

انحنى إلى الأمام فوق مقعد الحافلة ورأى نفسه أيضاً في المرآة، ضبابياً، ثقبان سوداوان مكان العينين وظلال متحركة على الخدين والذقن. كمّش أصابعه وأطلقها خفية، فحاكتهُ الصورة فوراً: ما في الأمر من شك، إنني أنا. إنني أنا، وأكيد أنني بنفس ملامح ذلك الأبله المسرنم التي كنتُ أتسكع بها في ورشة الرسام، أتعثر بلوحات عبثية (خط أسود، خطان أسودان، ثلاثة خطوط سوداء، دائماً نفس الخطوط، على خلفية بيضاء، أو صفراء، أو خضراء)، بقدمين ملتويتين، أظافر طويلة، نعال توراتية، أحذية رياضية، جزمات بنعال

منحوتة من عجلات الإصلاح الزراعي للمثقفين، وأخيراً، فوق جسد العجوز البنفسجية، المثقلة بالقلائد، التي تُقبّلُ باندفاع شاباً أمرد يضع سواراً من جلد الفيل حول كاحله، ويتدحرجان معاً فوق حصيرة مغربية. إنْ كان هؤلاء هم العشاق الذين كانوا لك من قبلي فأكيد أنهم العشاق الذين سيكونون لك من بعدي، فكّرَ، يدهُ على مقبض الباب يراقب نومكِ في صباح أفيْرو، التي كانت سماؤها تنتشر أكثر فأكثر تحت الغيوم مثل قضبان مروحة تنفتح أفقيا انطلاقاً من سطح الخليج الذي تنعكس فيه الصورة المنسحقة للمدينة، المرسومة بخفة على القماش. شعراء بلثات تعاني من داء الحَفَر، سينمائيون متسكعون لهم آراء قاطعة، نقاد موسيقى الجاز ينبحون في سيقان بعضهم بشراسة متملقة، أشخاص غير محددين، بلفاعات هندية حول الأعناق، يبحثون عن بالون أوكسجين لسيجارة منقذة داخل جيوبهم الفارغة. وليلُ لشبونة هناك في الأسفل، يُفَكِّرُ، أكوام المعلبات التي يجمعها عمال النظافة، النجوم القطبية لأعمدة الإنارة التي تضيء، ثابتة، أشكالاً بيضوية زرقاء على الجدران، ضوءُ محلّ لبيع أجهزة التلفاز يخترق الظلام قرب مخْفرٍ للشرطة.

- كلنا هنا، كلنا هنا - كررت أختُه الصغرى وهي دائماً تصعد منحدراً حلزونياً ضاغطة على الدواسة - باستثناء أمي، طبعاً - أضافت بصوت هامس مثل دمية.

استمر والدُه يعرضُ عليه جوارير وجوارير من الطيور المصلوبة، الطيور الصغيرة لطفولته التي تطفو، بطونها في الهواء، في سمائها الورقية الموسومة باللواصق، تكمشُ قوائمها الصغيرة على بطونها النحيفة المتجمدة، وبينما كان يغلق الباب بلطفٍ حتى لا تسمعه ماريليا وينزل إلى الطابق الأرضي من النُّزل، يتبعه مخروط كاشف

ضوء الموسيقى الحزينة للفرقة، جال بعينيه عبر حشد الوجوه الأليفة للفنانين الذين يرقبونه، متراكمين قرب الستائر، متنكرين خلف الماكياج، والأنوف المزيفة، والشعر المستعار، والريش، فلم يفلح، فعلاً، في تمييز أمه وسط هذا المزيج من أبناء العم، والمعارف، ورفاق الثانوية، وأصدقاء الأمس الذين التقى بهم صدفة في الشارع، وقد انتفخت بطونهم، صلعت رؤوسهم، وازدادت همومهم وجدّيتهم. فكَّرَ ربما اتصلوا مرات عديدة من العيادة بحثاً عني، ربما قطعَ والدي رحلة أعمال ليعود على وجه السرعة إلى لشبونة، منزعجاً، يصل إلى أموريراشْ، يضغط على شعره فوق صدغيه، كي يتحدث مع الطبيب، يهمس في الرواق يفتح ويغلق قضيبيْ نظارتيه، ليجلس، في النهاية، وحيداً منزعجاً، على واحد من تلك الكراسي المثبّتة الصلبة في قاعة الانتظار، محدقاً بعينيْ مُوثّق غير مباليتيْن في مجلة قديمة جداً.

- توشا، مقبولةٌ إلى حد ما - قال صوت أمّه، الضخم، في الميكروفون وهو يجعل أعمدة الخيمة ترتعش - لكن، ماريليا هذه، يا إلهي، لا أريد حتى أن أسمع كلاماً عنها.

حرّك المزارعُ المستأجر بضع ميليمترات يديه البدينتين لكن الحساستين مثل لاقطين، موضوعتين فوق ركبتيه. كانت خياشيمه الخشنة تشتمّ الهواء بلطف.

- ستكون سنة جيدة، أيها الفتى.

ستكون سنة جيدة، أيها الفتى، يُفَكِّرُ وهو جالس إلى مائدة الفطور، يتفحص باشمئزاز لا يمكن تجنبه سلة الخبز القصبية، دوائر الزبدة، الأباريق المعدنية، الفواكه البلاستيكية في كأس من الخزف. خيط ماء بطيء يسيل من شلال مدمج في الجدار، يتعثر من محار إلى

محار حتى يختفي من دون مجد فيما يشبه ثقب تصريف في حوض استبراء. النادلُ، يرتدي صدرية، منديلٌ على ذراعه، يغفو مستنداً إلى صوان يعج بالكؤوس وأكوام من الصحون. عبْر النوافذ، كان النهار الثابت ينتفخ بقيْح من المطر والنوارس الجامدة التي ترقص هناك بعيداً فوق البحيرة، ترسم بقعة أكثر قتامة، بلون مداد المطابع. تدحرجَ وقواقٌ بطريقة خرقاء وسبح وسط الضباب باتجاه أشجار الصنوبر.

- آخر وجبة أكل يتناولها المؤرخ المشؤوم - أعلن القزم وهو يقوم بشقلبة ساخرة، أمام الضحكات المستمتعة للجمهور. كان السيد إسْبيرانْسا يحشر أنفه في رقعة الضّامة، يضع البيادق استعداداً لمقابلة جديدة، وما إن يسحب بيدقاً حتى يسارع ليعوضه بزِرّ من أزرار المنامة:

- من منا يبدأ الآن؟ - سأل متردداً وهو يحك رأسه. على ملصق، رجل شاب، يرتدي سترة، كتفٌ أعلى من الأخرى، تجمعه به نقاط تشابه بعيدة، يبتسم، بلطف مفرط. شريط مائل، في زاوية، يعلن بحروف حمراء **أميلْكار إسْبيرانْسا، صوتُ مارْفيلا الرومنسي**.

يُفَكِّرُ لماذا لا أرى أمي تتناول فطورها عند مائدة من موائد الصالة الفارغة، كتابٌ مفتوح قرب فنجانها وقطعة خبز محمص منسية في يدها، على بعد سنتيمترات قليلة من فمها، تنتظر مكالمة هاتفية من الخارج لن تأتي أبداً، تنتظر أبي، فجأة مرحاً وحنوناً، يقول لها **سأعود** قبل المنتظر من إيطاليا، يا فيرناندا، ما رأيكِ في نهاية أسبوع على شاطئ البحر؟ احتسى جرعة قهوة وهو ينظر إلى الماء، والأشجار والشجيرات على الضفة، أكثر فأكثر جفافاً، والرطوبة التي تُلصقُ على الشرفة نَفَسها الحيواني القلق. حرقت القهوة لسانه،

ولمدة لحظة واحدة، كفّ عن الشعور بقُلاع مؤلم في خده الذي لم يستطع أن يتوقف عن مصّه باستمرار. الجمهورُ، المنحني على الكراسي، كان يتابع العرض في العتمة بانتباه مبالغ، فكّرَ، من دون خوف ولا هلع، كيف سيكون هذا المساء حين نصلُ إلى لشبونة؟ هل سأساعدكِ في حزم الحقائب؟ هل سأقبل أن ترحلي؟ هل سأطلب سيارة أجرة عبر الهاتف ونظلُّ نحن في الصالة، صامتيْن متوتريْن، ننتظر صوت المحرك هناك في الأسفل، صوت المنبه المتردد المنبعث من السيارة؟ هل سنودع بعضنا في الرواق، بقبلة مريرة، تعج بالعتاب وتغلي بالحقد؟ هل سأعود إلى الداخل، أغلق الباب وألاحظ بحزن أن كل غبار شقة شارع أزيدو غْنيكو في ملكي، كل المجلات، كل الكتب غير النافعة، كل الهراء؟ كيف نشغل آلة الغسيل، التي اشتُريت مستعملة من بائع بالرهن أحْول كان يعرج في ذلك المحل اليائس المظلم حيث تتراكم قطع من الغرق والمآسي؟ إنْ رنّ الجرس فهل أقول من هنا، هل أجيب، مطوياً على اثنين مثل مطواة، عند عتبة الباب؟ صفّق الجمهورُ لشكوكه المنزلية بينما هو يمسح ذقنه بمنديل، يدفع كرسيه نحو الخلف، ينهض. وراء زجاج النوافذ، كان الضباب يتلاشى مثل بذلة بالية، المراكب المقلوبة وعوارضها في الهواء على الشريط الرملي قرب النّزل كانت باهتة أكثر فأكثر، مثل وجوه تستفيق بعد غيبوبة طويلة. خطوط غير واضحة من الشمس تتسكع من دون وجهة بين الغيوم فيظل الأفق مقفراً، خالياً من الطيور والكلاب.

– أن أشرح له الطيور، هل تتصور هذه الحماقة – قال والدُه بتكشيرة خنوع – يطلبُ مني أنا أن أصبح عالم أحياء هكذا بكل بساطة، هل فهمت، وما أنا إلا رجل أعمال مسكين.

لمسَ المائدة حيث من المفترض أن تجلس أمّه، وفي طريقه أخذ سكيناً كبيراً للنشر من فوق الصوان المليء بالصحون والكؤوس بينما القزمُ، الذي أنارهُ فجأة ضوءٌ بنفسجي عنيف، طفقَ يصيحُ:

- سيداتي سادتي، أيتها الفتيات أيها الفتيان، الجمهور العزيز، عليكم أن تنظروا بانتباه إلى سلاح الانتحار الفظيع: ليس هناك من حيلة، ليس هناك من خداع، ليس هناك من كذب: إنه، كما يمكن أن تعاينوا ذلك، فولاذ حقيقي، أصيل وبرتغالي الصنع، نفسُ الفولاذ الذي انتزع لشبونة من أيادي المسلمين، ووطد العقيدة المسيحية والإمبراطورية، جال حول الكرة الأرضية، وهو الذي يدفع في وقتنا الأرز نحو الفم ويساعد، بلطف لا يضاهى، في استخلاص الشوك من سمك البياض في المطعم.

وبنبرة مسرحية متسائلة تليق بنهاية الحلقة، موجهة لتحفيز فضول الجمهور:

- فكيف سيستعملها رْوي س. الخلّاقُ؟

لم تكن فراشات، يُفَكِّرُ، كانت طيور حسّون، طيور خُضيْر، عصافير، شحارير، طيور أبو الحناء، وطيور الهدهد مصلوبة على الورق، طيور الغابة التي يجمعها في خزانة مكتبه، في عشرات وعشرات من الجوارير المرقّمة، يقترح عليّ بنبرة متواطئة، بصوت مهموس يصدمني، رغم مزيل رائحة نَفَسه العجوز في أذني:

- هل نفتحُ بطونها لنرى ما بداخلها؟

- هل سيقطع عروق معصميه، الشريان السباتي، الحنجرة بكاملها، هل سيقوم بعملية هاراكيري؟ - سأل القزمُ بصوت جهير بينما فتيات شابات يضعن أكاليل على رؤوسهن وينتعلن أحذية عالية الكعب، وابتسامة جامدة فوق أحمر الشفاه، كنّ يقمن بجولة حول

الحلبة وهنّ يحركن أردافهن، ويرفعن لافتات كُتب عليها **يقطع عروق معصميه، يقطع الشريان السباتي، يقطع الحنجرة بكاملها، يقوم بعملية هاراكيري** - سيداتي سادتي - زعق القزمُ بصوت وقور - إن الإدارة، رغبة منها في إرضاء المتفرجين، ستقوم بتوزيع أكياس صغيرة مملوءة بالهدايا القيمة على من يتكهنون بالطريقة التي اختارها الأستاذ التعيس لينتحر، بفضل التعاون الكريم للعوازل الذكرية دونالد، دونالد العدوٌّ رقم واحد للنمو الديمغرافي، وجوارب من نوع السيدة بينيلوب، فالبسيها سيدتي لتري الفرق في النظرات الرقيقة لزوجك، وبتعاون نوادي «اليد الحديدية» الرياضية في شيلاس، التي لها فروع في طافيرا، بوفووا وفارزين، لأنه في أقل من سنة واحدة ستجعلُ منك «اليد الحديدية»، ياسيدي، موضوع حسد كل الرجال والرغبة المشتهاة للجنس الآخر.

وضع السكين في معطفه دون أن ينتبه إلى ذلك النادل الذي يغمض عينيه، ثم غادر قاعة الأكل وخرج إلى الشارع. كان جسده متشنجاً، ظهره يرشح عرقاً، قميصه يلتصق بكتفيه، امرأة مسنة في مقصورة خبأت بسرعة وجهها وراء أصابعها. وهنالك كان مكتب استقبال النُّزل، **يُفَكِّرُ**، رفُّ المفاتيح، البطاقاتُ البريدية فوق دعامتها المخروطية من السلك الحديدي، الهاتفُ، مطوياتٌ كُتِب عليها «**زورا أفيبْرو**»، المنفضةُ الكبيرة المدورة من الخزف الأمغر عليها الحروف الأولى للنُّزل، الموظفةُ العدوانية، تعلق نظارتيها حول عنقها وتشدهما بسلسلة صغيرة، كانت تملأ بخطها الصعب ما يشبه ورقة بها مربعات. **يُفَكِّرُ هناك** كانت نباتات البحيرة تحت السلم الحلزوني، والأخضر القاني، شبه البذيء، لأوراق لامعة من جهة وكامدة من الجهة الأخرى، البرّامات التي تشبه لوامس لزجة، الأحجار المكسوة

بالطحالب، والضفادع الخزفية: ذات مرة، نجحتُ في استدراج توشا إلى «الدفيئة الباردة» بعد ساعات من الحجج النباتية القوية (لا أستطيع أن أصدق أنك لم تزوري قط ذلك المكان، هناك نباتات سرْخس رائعة من تصميم شانيل استوردوها مباشرة من باريس، لا بد أنك رأيت صورها على صفحات مجلة فوغْ)، وجلسنا على مقعد خشبي تحت شجيرة مقززة تفوح برائحة كريهة، وكنتُ أهمُّ بتحسس نهديكِ، لمس فخذيكِ، وتقبيلكِ، عندما، فجأة، بعد مرور فوج من تلاميذ الثانوية أمامنا تقودهم أستاذة بساقيْن مشيقتيْن يتابعهُما رجلان بشاربين ونظارتين سوداوين يضعان عقب سيجارة في الفم ويدمدمان غزلاً، تحَوّلَ ما اعتقدتُ أنه شجرة أوكاليبتوس مصغرة إلى حارس يرتدي بذلة، قصير القامة وبدين، وتقدم نحونا في دوامة من الحقد:

- أية قلة حياء هذه؟ - قال متذمراً.

توشا، شاحبةً، كانت ترفع تنورتها، تعدل صدريتها، تعيد ترتيب شعرها بصعوبة ويد مرتعشة، وأنا أنكمش على الألواح الخشبية، أختنق من الخوف، أفتح وأغلق فماً من دون خدّين، من دون لثة، من دون أسنان، من دون لسان، صارت مجرد كهف يشلّهُ الفزعُ. الحارسُ، أمامنا، كان يدور حول نفسه من الغضب، ثم ظهرت مجموعة جديدة من الأطفال عند منعطف ممر من النباتات.

- ارفع قائمتك من هناك، أيها الحيوان - قال الرّجُل، وقد احمرّ وجهه - سوف تحترم السلطة قبل أن أجبرك على احترامها بقوة الركلات.

نسيتُ تماماً إبهامي الآثم عند جذر أعلى فخذكِ، يحكُّ ببطء عانتكِ من أسفل إلى أعلى، نسيتُ تماماً ركبتي الملتصقة بركبتكِ، ربلتيْ ساقيْنا المضغوطتين الواحدة على الأخرى، رأسيْنا المنذهلين

القريبين أكثر من اللازم. كنتُ أرشحُ فزعاً رغم أن الرجل كان أقصر قامة مني، أكثر ضعفاً، يفوقني سناً بكثير، يسهل تخويفه بتهديد صفعة أو بشبح والدي القادر على كل شيء. يُفَكِّرُ **لحظتَها**، يا توشا، أمام جُبْني، أمام عجزي عن القتال، هل بدأت تحتقرينني؟ ابتعد نحو الطرف الآخر من المقعد، لمس غصن أذنه، ومن أنفه اقترب بطنُ الحارس، مدوراً، صغيراً، رخواً، وهشاً، تغطيه أزرار فضية كبيرة: ولكني، مع ذلك، لم أكن قادراً على رد الفعل، يُفَكِّرُ، تابعت أنكمشُ، أشحُب، أشعر بدمي المتسارع غير المتساوي في صُدْغَيَّ، بينما الرجلُ يدرك خوفي فتزداد عجرفته وتتقوى شجاعته.

- والآن، أيها الوقحان؟ ما رأيكما في غرامة جميلة، ما رأيكما في إقامة قصيرة في مخفر الشرطة تشفيكما من نوبات الشّبق أمام الملأ؟

يُفَكِّرُ رأسٌ صغير أصلع، عينان ضيقتان بليدتان، عود ثقاب في ركن من فم ملتوٍ يتراقص على إيقاع كلماته، أنف ينخر، يشع من العجرفة، ينتفخ مثل قضيب عليل. وعادت الشفتان لتتحرّكا بازدراء شائك.

- ثلاثة أيام في السجن ستشفيكما حالاً من هذا الشبق.

فتحت توشا حقيبتها، تبحث عن منديلها، ثم مسحت عينيها. يُفَكِّرُ كم كان عمرنا وقتئذ؟ اثنين وعشرين. ثلاثة وعشرين؟ تأمل للحظات نباتات الرواق، رخوة مثل أغشية مخاطية، لاحمة بشكل مقرف، ثم استند إلى شجرة السرو المعلقة في البطاقات البريدية المعلقة على السلك الحديدي وهو ينتظر من الموظفة العدوانية ذات النظارات المشدودة بسلسلة إلى عنقها أن تنتهي من خريطتها وتهتم به، وتجاعيد انزعاج على جبينها. أدخلَ الحارسُ أصابعه في حزامه

وحرك قليلاً جسده المدور، الخالي من العضلات. كان رأس قلم يطل من جيبه.

- أوراق التعريف - سأل بهمس زيتي مليء بالتهديد - بطاقة الهوية وبطاقة العمل.

- هلّا تفضّلتِ وهيأتِ لي الحساب - قلتُ بلطف - سنعود اليوم إلى لشبونة.

لم تكن هناك من سيارة أخرى غير سيارتنا عند الباب، رابضة فوق الحصى، تسند مدخنتها إلى نبات جيرانيوم ضخم كأنها ترعى منه، كما لو كانت حيواناً ثديياً كبيراً من المعدن صارت مصابيحه مطفأة معتمة، تمشي نائمة في عمق محجريها، ثم كان هناك الرّمل، الصباح الضبابي اللزج، أكتاف الأشجار المرتعشة في الصمت، السماء والبحيرة تنعكسان بشكل متبادل، مثل مرآتين متوازيتين. الحارسُ الذي كان يحرك أذنيه وهو يقرأ ابتعد بخطوة مترددة إلى الخلف: كانت نبرة صوته قد أصبحت محترمة بشكل مقلق.

- هذه الوثيقة، هل تعني أنك دكتور؟ - سأل وهو يدفع قبعته على رقبته ويتلوى من الخجل.

- إن الشاب التعيس - قال القزم منتحباً بأبّهة وهو يشير بسبّابته الحازمة إلى الأُسرة في المدرجات - سوف يغادر النُّزل ليقوم بجولة نهائية وأخيرة. سيداتي سادتي، إننا على وشك أن نصل إلى أقصى نقطة، إلى قمة، إلى أوج، إلى ذروة عرضنا المشهود. أيها القائد، بوليرو رافيل.

الأشخاص الأربعة أو الخمسة الذي يشكلون الفرقة الموسيقية غيّروا الإيقاع، يقودهم شخص نحيف للغاية، يضع ربطة عنق وشعراً مستعاراً، يوجههم بعصا في قبضة يده، بحركات قوية تجعل كُمّيْه

القصيرين جداً يرتفعان ليكشفا عن قفازين أبيضين فوق أصابع طويلة جداً، وبعيداً، فوق الماء، تتمايلُ قليلا، كانت طيور البطّ ونوارس نهر فوغا، جامدة منذ أزمنة غابرة، تنتظر ماذا؟ نظرت إليه موظفة مكتب الاستقبال من دون لطف، تفتش دون أن تنظر إليه في كومة من المستطيلات الورقية التي تغطيها أرقام صغيرة جداً:

- يجب إخلاء الغرفة قبل منتصف النهار بالضبط - قالت له بنبرة صوتها اللاذعة.

يا لها من امرأة جافة، يُفَكِّرُ، يا له من جسم جاف، يا له من غائط جاف، هزيل يفيض حقداً. يُفَكِّرُ إن حموضة المعدة التي لا بد أنها لا تعاني منها، إضافة إلى أحشائها المتفحمة، لا بد أنها تشكل دوامة من الكبريت. كان لأعضاء الفرقة الموسيقية أنوف بعدة ألوان، خدود تغطيها المساحيق، قبعات سوداء مستديرة، قمصان مخططة وحواجب مرسومة بالفحم.

- إنه دكتور، تماماً - قالت توشا - أستاذ يدرِّس في الجامعة. وصوتها الباهت من حقد لاذع يبدو أنه يلينُ الحارس، يفرغهُ من سلطة صياحه، يخفف من عدوانية بذلته، يحوله كائناً تافهاً ومحلياً، خنوعاً، مستعداً ليرتبك مقدماً كل أنواع الاعتذارات. لحظتَها قررتُ أن أتزوجك، يُفَكِّرُ، لحظتها أعجبتُ بك لأول مرة: عيناك الشاسعتان، فمك المزدري، مرارة الفزع المبتلع بالقوة تتغير في نبرة الزعيمة التي لا يُردّ على كلامها. يُفَكِّرُ طريقة كلامك مع خادمات التنظيف، مع السباكين، مع البائعات في السوق الممتاز، مع الخياطات، التفوق منذ الولادة، الذي ترَيْنهُ جلياً لا يقبل الدحض، كحّة جدّكِ الفيكونت في حنجرتكِ، غطرسة الصوت الفاتر والمسيطر لأمّكِ وهي تعطي الأوامر لأطفالك فوق لوح لعبة الطاولة. يُفَكِّرُ

لحظتها قررتُ أن أتزوجك كي تحميني من الآخرين، كي تمنعي حراس الدفيئات من تهديدي بالشرطة، كي تقرري مكاني، مهما بدا ذلك سخيفاً، في كل ما كنتُ عاجزاً عن اتخاذ أي قرار بشأنه. بحماس، اقترب القزمُ من الميكروفون:

- هناك جزئية أخرى لطيفة، سيداتي سادتي - أعلنَ بتباه، بينما كانت الفرقة الموسيقية تسكت في هدير من الطبل - أظرفتُنا السرية، المخصصة لمكافأة من يتكهنون بطريقة الانتحار، قطع المعصمين، الشريان السباتي، الحنجرة، هاراكيري، ثقبُ الرئتين، أزمة قلبية صاعقة، اغتنتْ للتو بفضل هبة سخية من طرف «**مرهم القذف**» الذي يمكن أن يُكبّر بسهولة حجم قضيبك بثلاثة سنتيمترات ونصف. إذا كنت، يا سيدي، تعاني من مشكلة الحجم، تخجل من التبول في المراحيض العمومية، زوجتكَ تشتكي من عدم الرضى الجنسي، الذي غالباً ما يكون مسؤولاً عن سوء تفاهم الأزواج، حتى لا نتحدث عن انفصالات عاصفة وعمليات طلاق مؤلمة؛ على أي هل أنت قلق من حجم عضوك الذكوري؟ ضع «**مرهم القذف**» صباحاً مساء وستحصل بسرعة على ذلك الحجم الرائع الذي طالما حلمتَ به. إن «**مرهم القذف**»، وهو المرهم الذي يضع البرتغاليين، وفق آخر الإحصائيات عن معهد «اللذة» في ولاية أريزونا فيليبس، فيليبس وفيليبس، في الصف الأول داخل العالم غير الاشتراكي فيما يتعلق بالقدرة على الانتصاب وحجم الجيوب الكهفية. «**مرهم القذف**» هو الدواء الوحيد من هذا النوع الذي لا يتسبب في طفوحات جلدية، ولا في أي تشوهات أو آلام. وبعد هذا الخبر السار، أيها القائد، هيا بقطعة بوليرو رافيل مرة أخرى.

رفعَ الشخصُ ذو المعطف الذّيْلي والشعر المعقود المكنسة،

أشار عازف الأكورديون بحركة من ذقنه إلى عازف الكلارينيت وإلى صاحب القيثارة الكهربائية، فاستُأنفت الموسيقى، حزينة، تزداد قوتها شيئاً فشيئاً، المرأة العدائية في مكتب الاستقبال تدير له ظهرها بشكل جلي، أهملته لتفحص ملفاً، ترددتُ ثانية واحدة، محتاراً، دفعتُ بركبتي الباب الزجاجي الذي انفتح من دون ضجيج، وأبدت مفاصله مقاومة زيتية خفيفة، ثم خرجتُ في برد الصباح، النّتن برطوبة معلقة خانقة، كما لو أن آلاف الجزيئات القُطنيّة الشفافة كانت ترقص، خانقة في الجو. أما الحارسُ، فأعاد لي الوثائق مصرحاً:

- عفواً سيدي الدكتور، ولكني اعتقدت أنك أنت والسيدة واحد من أولئك الأزواج المنحلّين الذين يمضون أوقاتهم في اللمس والتحسس أمام الملأ. لدينا أوامر بألا نتساهل مع هذه الممارسات البذيئة، فهناك عدة أطفال يأتون إلى هذا المكان، عدة تلاميذ، هل تفهم، يا سيدي، وقد أجازفُ بفقد وظيفتي إن بدوت متفهماً أكثر من اللازم: لم أكن قادراً لأتكهن بأنك شخص محترم.

الشريط الرملي، الماء بلون الغائط، القلق المزدحم في أشجار الأوكاليبتوس، الطيور المجهولة التي تمر سريعة بين الأغصان، الوحل العفن والسرطاني على الضفة مثل حليب متخثر، وهناك في الخلف، طيور البطّ، المحلّقة الآن نحو المدينة. أود لو تهيئين لي الفاتورة، من فضلك، سنعود اليوم إلى لشبونة: طُرُقٌ بطيئة، عارية، قرى متناثرة، الصمت المزعج، السميك، يغطي على هدير المحرك، الذي يُستشعرُ مثل تشنج في المعدة: أريد أن أنفصل عنكِ، أريد أن أنفصل عنكِ، أريد أن أنفصل عنكِ، تردد الأمواج الصغيرة الهادئة الرمادية على الشاطئ وهي تنكسر على جوانب المراكب الراسية. ويوم الأحد سأذهبُ لأبحث عن طفليّ، أتجول معهما في حديقة

مؤسسة كولبنكيان، أتمدد فوق العشب، مغمض العينين، تحت شجرة صفصاف، بينما هما يلعبان الكرة، أو يثرثران، أو يتشاجران، أو يسقطان، أو يبكيان. يُفَكِّرُ لم أنشغل بهما قط، لم أهتم بهما قط، كانا دائماً شيئاً مبهماً، غامضاً ومحرجاً في حياتي، كائنين غريبين ينبغي إطعامهما، إلباسهما، تسليتهما، تلقيحهما، وكان يجب أحياناً الاستماع إلى كوابيس شكاواهما التي تهز المنزل الناعس، تمنعني من الراحة، من نسيان ذاتي، من الغوص في بئر مستنقعات نومي. كان مقبض السكين يضغط على ضلوعه، ورأس الشفرة ينخز خصره: واقفاً فوق حصى مدخل النّزل، كان يسمع همس عنكبوت الجمهور، السعال المتفرق، كشط الأحذية، الأحاديث، الهمسات، بعض الضحكات، وكان يجتهد حقاً لتمييز الوجوه التي تجعلها العتمة مجهولة، ويجد صعوبة في متابعة حركات الأضواء الكاشفة هناك في الأعلى، التي تُمطر عليه بضوئها المفرط الذي لا يرحم. كانت أخواته يتزاحمن في قلق قرب ستار الركح، يشجعنه بحركات صغيرة من أياديهن وأخته الموسيقية، بوجه مطلي بالمكياج والدموع، تبتسم له. لا يمكن أن أفشل في عرضي، فكّرَ، يجب أن أقدم عرضاً محترماً. رافقهما الحارس حتى مخرج الدفيئة، صغيراً، تافهاً، مسالماً، يرتبك في اعتذاراته.

- سيدي، أرجوك، لا تُبلغ عني في الإدارة. إنني أتوتر لأي سبب تافه، أمر مؤسف جداً. وقد بدأتُ علاج أعصاب بتعويض من صندوق الضمان الاجتماعي.

فتش يائساً جيوبه، أخرج من سرواله قارورة أقراص صغيرة مع فتيلة قطن تحت غطائها:

- وصفوا لي هذه المهدئات، وشرح لي الطبيب أنه لا يوجد

أقوى منها، ثم منعني من الكحول، والتبغ والقهوة. ورغم هذا، فقدتُ الآن أعصابي معكما، كما ترى. (وكانت عيناه، مثل كلب مهزوم، تُحدقان فيه، تتوسلان إليه وترجوانه).

نهضت توشا: سوف تدفعُ الثمن، فكّرتُ، عندما تبتسمُ بهذا الشكل، فإن الحل الوحيد هو أن يتمسك المرء بالصّاري الكبير:

- اكتُب على ورقة اسمك ورقمك. والدي برلماني في الجمعية الوطنية، وسيتحدث لا محالة مع رؤسائك. إنه فخور ببناته ولا يقبل أن يتعرضن للإهانة. وقد تجاوزت فظاظتُك كل الحدود.

صار الرجل أكثر فأكثر صغراً، ثم بدأ حركة ركوع على سرواله البالي. كانت رموشه المتناثرة ترتعش.

- آنستي، كوني رحيمة بي، إن فقدت هذه الوظيفة ضاعت حياتي. لدي خمسة أفواه أطعمها، زوجتي لا يمكنها أن تشتغل بسبب ضغط الدم، تنتفخ في كل لحظة وحين، لا تتحمل ساقيها مثل عمودين، تقضي أياماً كاملة في السرير مثل قطعة خشب، ويجب أن أدفع أجراً لمن يعتني بالأطفال. (فتخيل حشداً من الأطفال المتسخين في حيّ من أحياء الضواحي) ولا نملك مالاً حتى لاقتناء منزل لائق، نسكن كوخاً معاراً، ابنتي الكبرى مريضة، إن طردوني فإنني مفلس لا محالة. (الأصابع السمينة تُحلّق، الشفةُ السفلى يبدو أنها على وشك أن تنفجر بالنحيب، دُمَلٌ قرمزي على وشك أن ينفجر في جبينه.)

أؤدي عرضاً لائقاً على الأقل، فكَّرَ، لا أخيّبُ ظن الجمهور، لا أخيّبُ الانتظارات القلقة لأخواتي. أَرْيوبْسْ، صاح مع انحناءة نحو الجمهور وهو ينزل من حصى الشريط الرملي قرب النّزل، الذي تغطيه الطحالب، والشظايا، والسلال المحطمة، وقطع الخشب

المتعفنة. شعري القصير لمهرج مسكين، سروالي الواسع، معطفي القماشي يموج مع الريح. ابتسامة توشا تتسع، وهي تومض على الدوام، في فرح منحرف.

- كان عليك أن تفكر في الأمر مسبقاً بما أنك تبدو منشغلاً بأسرتك. (كان صوتها الحاد يمزق أحشاء الحارس فينهمر الدم المتخثر على الرصيف، وسرعان ما يشربه صفٌّ من الشجيرات المتعطشة) ما يهمني هو اسمك ورقمك: إنه من غير المقبول أن يوجد أشخاص بوقاحتك.

رفع عينيه نحو أعلى واجهة النّزل الذي يجعله المنظورُ يبدو منحرفاً، كأنه على وشك أن ينهار فوقي كتلةً واحدة، وكما في بيْت ممرضة التوليد، حاول أن يتكهن موقع شرفة الغرفة من بين سلسلة من الشرفات المتشابهة، كلها بستائر نازلة، نفس الكرسي ونفس المائدة المسندة إلى الدرابزين بنفس الإهمال الصدئ: هذه؟ تلك؟ الأخرى بعدها؟ وسرعان ما انفجرت تصفيقات حماسية من الجمهور وفي الوقت ذاته كان القزم يصيح محاولاً أن يطفو فوق نهر التصفيقات المضطرب:

- تصفيقات من أجل آخر نظرة حنين على نافذة المرأة الحبيبة، فكرة تليق بروميو، نظرة غرامية يلقيها أبيلار[١]. لاحظوا الرزانة الرائعة للفنان، أداءه الجسدي المدهش، الذراع المترددة، المتأهبة لترتفع في إشارة وداع مأساوية، التي تعطيه وهم الارتفاع بضعة سنتيمترات لكنه يظل متصلباً، ملتصقاً بالجذع، في حزن العاجزين اليائس، جامداً بشكل مثير للمشاعر. فقط أريدُ أن أشدد على أن هذا

(١) أبيلار هو عاشق هيلويز في أسطورة الحب التي تعود إلى القرون الوسطى. (المترجم)

العرض المسرحي الصعب، رغم قصر مدته، قد قدم لكم حصرياً من طرف «**المخروطات المهلبية الانفجارية بيمْبامْبومْ**»، التي بعد خمس دقائق من إدخالها، سيدتي، تستقبلُ بمرح زوجكِ، عشيقكِ، محبوبك، بشهب نارية جميلة تتكون من نجوم فضية تصعد عبر فخذيكِ في نافورة ماء برّاق حتى يُتوّجُ ذلك بانفجار يعادل خمسمئة غرام من ثالث نتريت التولوين ستدفع السرير في دوامة من الأغطية المُشيّطة والحديد الملتوي نحو ثلاجة المطبخ. لا تنسي، سيدتي: «**المخروطات المهلبية الانفجارية بيمْبامْبومْ**» تجعل من الحب مغامرة مختلفة: إنها تُحوّلُ رتابة علاقتك الجنسية إلى محطات تاريخية لن يستطيع أن ينساها أي أحد من جيرانك.

- آنستي، آنستي، آنستي - توسل الحارس، صغيراً جداً ومُخْضرّاً، وهو يحاول أن يخرج جذع قلم وقطعة ورقة منكمشة من الجيب العلوي لبذلته، اللذين تناثرا على الأرض تزامناً مع قائمة أرنب وحبّة تين من البلاستيك، والتفّ كل شيء حول حبل صفارته. كان وجهه ينتفخ وينكمش من الرعب في إيقاع مثل فم سمكة، وعيناه الضيقتان ترمشان، باهتتين من الخوف. كان الجرثومُ يحتضر عند باب الدفيئة داخل مستنقع صغير من العرق، والرّمص، والروائح الكريهة، والعفن الممتزجة وتوشا تحدق فيه، متهكمة، من أعلى إلى أسفل بقسوة متباهية لا ترحم.

كانت دعائم النُّزل الصدئة منغرسة في الرمل، مشكّلة ما يشبه سقيفة تتراكم فيها أكوام من الأغصان، والمراسي والحبال التي التهمها الماء، بقايا مراكب، مخاريط رماد، وصناديق قمامة كبيرة قرب جدار من الطوب. عجوز متنكر في هيئة مهرج (تعالت همسات وسط الجمهور حين كشفه الضوء، مبالغاً في إبراز أسمال بذلته) كان

يؤجج في الصباح الرمادي جمرات موقد بمروحة قصبية وقطع فحم تشبه قطع بلور برتقالية تشتعل من حين لآخر كما لو أن مصابيح صغيرة تضيئها من الداخل. في أي سيرك اشتغلنا معاً؟ فكّرتُ، عبر أي قرى من قرى النواحي مررنا داخل مقطورات محطمة، تجرها سيارات أمريكية من دون رفارف عجلات، رفقة فقماتنا الغريبة، فِيَلتنا القماشية الباهتة، كلابنا الصغيرة التي ترتدي فساتين إشبيلية غارقة في الحزن، فرسان نهر سخيفة، وطاويط الكوابيس، في أي مطاعم قذرة مبرقعة ببقع من الخردل وذباب بأرجل ضخمة أكلنا حساء الجنود، نرقب من النافذة المتسخة حشرات الصيف، أي عرض ممل تقاسمناه ليلاً في سيرك فارغ، يحضره رجل إطفاء وثلاثة جنود يتابعونه بضجر؟ انحنى والدي على الكرسي حتى لامسَ أنفُه أنْفي:

- يجب فتح بطونها لمعاينة كيف تشتغل - ألحَّ وهو يمدّ لي سكيناً لقطع الكتب - هل أنت متأكد أنك لا تريد أن تجرب؟

هل كان أبي هو ذلك العجوز المقرفص تحت النُّزل، فكَّرَ، وسط الصمت الشاسع للأشجار والخليج؟ هل كان مهرجاً بأظافر مصقولة وبذلة ألْبَكَة لا تميزُ فيها الكاتبات ورجال الأعمال مواقع الترقيع، الاتساع المثير للضحك، الجيوب المليئة بحبات الإجاص المطاطية الصغيرة التي يجب الضغط عليها لتنبجس منها دموع زائفة؟ أخرج المتسكع طائر دوري ميتاً من كيس، ثبّته في خشب مشحوذ وتأهب ليشويه دون أن يقتلع ريشه على موقد من طين. انتشرت رائحة اللحم المحترق في الظل مثل بقعة. أمسك الحارس توشا من معصمها وراح يتوسل إليها يائساً:

- أقسم لك بحق رفات أختي التي ترقد في القبر - صاح - إنني لم أقصد إهانتك.

السيد إسْبيرانْسا، زهرةُ قرنفل مكان العروة، تقدم خطوتين إلى الأمام، رفع الميكروفون، جرّب الصوتَ وهو يضربه بطرف سبابته المقوسة على شكل مطرقة، ثم أعلن:

- إنني أوافق على انتحاره كنوع من العقاب، ولو كان قاسياً بعض الشيء، لأنه لم يقدم لي قط أي مساعدة، مهما كانت بسيطة، لأدفع سومة الكراء. إن العوازل الذكرية دونالد، العدو رقم واحد للنمو الديمغرافي، هي التي توصلت هذا الشهر إلى اتفاق مع السيدة سارا.

أخرج من جيبه كأس نبيذ مملوءة عن آخرها ورفعها نحو الجمهور:

- بصفتي أؤدي صوت باريتون يحظى بسمعة وطنية ودولية، بصفتي رجلاً أعتز برجولتي، أقترح رفع نخب على شرف العوازل الذكرية دونالد، المصنوعة في البرتغال، المدهونة بزيت الزيتون وزيت النخل، مع أو بدون تاج من الشَّعْر، لا تتمزق، في أربعة ألوان، أحمر، حبري، نيلي، وأزرق فيروزي، بالإضافة إلى النوع الأسود الملائم، الذي يُنصحُ به خصوصاً للأرامل الجدد، الجنود برتبة عقيد، وأمناء المكتبات الأعقّاء. وأغتنم هذه الفرصة لأحذركم من خطر التقليد وأنصحكم بأن تتأكدوا دائماً بأن تطلبوا من الصيدلاني أن يريكم أن طائر البطّ الشهير مطبوع فعلاً بحروف ناتئة في الطرف المبطّن. مع دونالد الصغير، ستكونون، متوسطين وكباراً، مطمئنين لعلاقة جنسية آمنة، كما صرح بذلك مؤخراً للصحافة، والإذاعة والتلفزيون، الدكتور نيلسون دي جيزوش جونيور، المؤسس العظيم لمجموعة «**صناعات دونالد الجنسية**» والرئيس الأبدي والشرفي لمجلس إدارتها، عند مغادرته قصر الفاتيكان، في روما،

بُعيد استقباله على انفراد من لدن قداسة البابا الذي عبَّر له عن سروره الأبوي ووده الحار نظراً لنبل نشاطه، الذي يسمح بالاستغناء عن استعمال حبوب منع الحمل الآثمة، وتفضل بقبول عازل من الذهب الخالص، موجه للتخفيف من التقشف الحاد لمكتب عمله. كما سنحت للدكتور نيلسون دي جيزوش جونيور فرصة إهداء أعضاء حاشية البابا عوازل من نوع دونالد ملفوفة في علب فاخرة، يكسوها بنفسجي الكاردينالات وبها مقبض منقوش في القاعدة، ومقابل ذلك تمّ تعيينه فارساً من فرسان القبر المقدس وتلقي اللقب الشرفي كحارس من حراس العقيدة المسيحية. فضِّلوا دونالد، العازلُ الكاثوليكي.

مرَّ منزلقاً مركبٌ بخاري أمام النّزل باتجاه المصب، يتبعهُ تاجٌ من النوارس الجائعة التي عكّرت في الوقت ذاته، رفقة المحرك الذي يسعل، الحركةَ الخفيفة في أشجار الأوكاليبتوس. عدّلت السيدة سارا بشكل أفضل الدبوس المزيّن للمرحوم زوجها الذي يغلق تقويرة فستانها في حركة استحياء لا توافق ستمئة عام من عمرها.

- هذه هي الغرفة الصغيرة - قالت بهمس قادم من وراء القبر - يجب دفع سومة كراء ستة أشهر الأولى مسبقاً.

منزعجاً، أخذتُ أسحب كُمّ فستان توشا، لكنها تحركت بعنف، فاخترق مرفقُها معدتي، وصعدت قطعة من لحم الخروف التي تناولته في الغداء إلى فمي في اشمئزاز بعطر الفلفل الحار والثوم. كانت تحيط بها هالة مشعة من الانتقام، بل حتى شعرها كان يبدو صلباً ومتكهرباً من الطعم السادي لانتصارها، وطرف لسانها يطل، سخياً، من فجوة شفتيها. يفكّرُ كم كنت جميلة تلك الظهيرة، يا إلهي.

- اغربْ عن وجهي أيها التافه - قالت مصفّرةً وهي تشير

بإصبعها إلى الممرات التي غزتها النباتات، إلى العلب المصبوغة بالأبيض، إلى المسافة الرملية، والأشجار الصوفية الرطبة - اغربْ عن وجهي قبل أن أغير رأيي.

جمعت السيدة سارا الأوراق المالية في منديلها، أدارت له ظهرها وتوجهت نحو الباب تجرجر خفّها، وهي ترفع بصعوبة ساقيها النحيفتين. وضعت يدها على المقبض وحدجته من العتبة بتكشيرة لاذعة:

- أنبهك أنني لا أقبل الزيارات.

- يا لها من بنت عاهرة كبيرة، زوجتُك السابقة - قالت ماريليا بينما رمادُ سيجارتها اللامتناهي يسقط ويتفتّت على حجْرها. من الطابق العلوي في شارع أزيدو غْنيكو كان أحدهم (صوتُ رجُل) يصيح بجمل غير واضحة نحو الشارع - ماذا كان بإمكان هذا البئيس أن يفعل لو كنتُما في ورطة؟

يُفَكِّرُ إن كانت توشا بنت عاهرة، ألستُ ابن عاهرة مثلها؟ بينما كان الجمهور يصفق للنُّخْب من أجل عوازل دونالد والعجوز يقلع ريش طائر الدوري قبل أن يدخله بحُبّ بين شطرين من قطعة خبز:

- هل قدموا لك الأكل؟ سأله والدُه.

- لا تهم الساعة، هل فهمت؟ - كررت السيدة سارا وهي تتحسس دبوسها بأصابعها النحيفة البيضاء جداً التي يحركها قلق دائم. (لا بد أنك تعانين من ضغط دم مرتفع، من السكري، من البوْلة، من آلام العمود الفقري والمفاصل). أنا لا أتحمّل الزيارات.

ابتعد خفّها في الرواق، وأطلقت غرغراتٌ مرهقةٌ لحناً في العلّية. نفضت ماريليا الرماد عن تنورتها فوق الأرض، مستعينة في

ذلك بسيرة أنطونْيوني[1]، ففكّرتُ إن كنت ابن عاهرة فلماذا أنتِ معي بحق السماء؟

- كلما وقعتَ في ورطة تظل غير مبال مثل ثور من خزف - قالت توشا بنبرة لوم وهي تنزل بسرعة عبر الحديقة نحو محطة قطار الأنفاق مارْكيش بومْبال - وفي يوم آخر، في علبة ليلية، لو لم يكن أخي هناك لكسروا عظامك.

مستمراً في المضغ، نهض المتسوّلُ وذهب ليتبوّل على دعامة، يحرك عضوه في رجّات غير مبالية: لكنها حين تعرفت عليه بشكل أفضل، نسيت السيدة سارا المنع، وكانت تدعوه لتناول الشاي في صالة صغيرة سداسية الشكل تعج بصناديق صينية وقطع أثاث قديمة حيث ساعة حائطية خفيّة تدق بانتظام ساعات لا تنتهي أبداً، وكانت تقدم له قطع بسكويت صارت رخوة، ترفع بتقتير غطاء علبة أحذية من الورق المقوى، ويوم جاءت ماريليا لتُعيد لي بعض الكتب، أرادت بكل قوة أن تتعرف عليها، فأمضيا وقتاً طويلاً، الفنجانان في أياديهما، مدفونيْن في أرائك ضخمة غير مريحة، من دون نوابض، يرفضان قطع البسكويت ويستمعان للسيدة سارا تتحدث عن فترات أكثر سعادة، تداعب بأصابعها كالمومياء صورة ذات لون حبري لزوجها الذي كان يدعى بورفيرْيو ألْفش، متقاعد من «شركة الهاتف»، وكانت قد دهسته، منذ قرون خلت، حافلة نقل في شارع إنفانتي سانطو. وشيئاً فشيئاً، استأنس بالنُّزلاء الآخرين، شخص أسود متوسط العمر، مهذب للغاية، فوق كل الشبهات، موظف في «بنك التنمية»، ومشجع كبير، لأسباب غامضة، لفريق سبورتينغ كوفيلْيا،

---

(١) مايكل أنجيلو أنْطونْيوني (١٩١٢-٢٠٠٧)، مخرج سينمائي وكاتب إيطالي. (المترجم)

قائدٌ في خطوط البحرية التجارية الذي كلما عاد من رحلة كان يوجه ضرباً مبرحاً لزوجته، مسألة مبدأ، شرح لي مرة بجدية عند موقف الحافلة، دون أن أفهم وسط دهشتي بأي مبدأ يتعلق الأمر، السيد إسْبيرانْسا، باريتون ذائع الصيت عالمياً يسكن غرفة مظلمة تطل على الفناء الخلفي، زوج من توأمين عازبتين، دائماً مع بعضهما، تضعان خاتمين يحملان شعارات النبالة، مستخدمتين سابقتين في محلات «غرانْديلا» تتناولان معنا الشاي كل يوم ثلاثاء في صمت قبري، تنسجان من دون توقف مناديل في حركات متناظرة، والأب مينْدوسا الذي كان يمص أقراصاً برائحة النعناع كي يكف عن التدخين، ينثر من حوله رائحة صيدلية منعشة، يعيش مختنقاً بياقة من السليلويد ويتحدث عن الرّب كما لو كان رئيس عمل متسلطاً، مفرطاً في التشدد. بدأتُ أشعر بالراحة هناك، يُفَكِّرُ، لكني انتقلتُ إلى شقة شارع أزيدو غْنيكو خلافاً لما نصحني به القائد البحري، الذي قام يوم أمس، وفق المبدأ، بكسر يد زوجته وشجعني في زاوية من الرواق وهو يصر أسنانه غضباً، اضربها ضرباً قوياً على مؤخرتها، ثم همس في ياقة معطفي نصيحته الأخوية الغاضبة المضطربة.

- لا بد أن زوجتك السابقة كانت بورجوازية لا تطاق - استأنفت ماريليا كلامها وهي تنفض عن تنورتها لفافة رماد أخرى وتحمل سيرة فيسكونتي، بينما كنتُ أمد لها بخجل منفضة على شكل قط برونزي، أفكر في أزمات الربو الليلية التي كانت تداهمني في هذا المستودع من الغبار الذي لا يوصف، أستيقظ ليلة بعد أخرى، أجلس على السرير، لاهثاً، النجوم تلتصق بالنافذة في تناغم مُعلّق، ومن حولي يتكبّب حيّ كامْبو دي أوريكي بمحلاته الصغيرة وعماراته الباهتة. خلعت ماريليا حذاءها وراحت تحكّ أصابع قدميها بتأمّل.

- كم من الوقت تحمّلتَ كل هذا؟

أكمل العجوز قطعة الخبز وظل كالأبله جامداً، يحدق في الموقد حيث كانت الجمرات، الباهتة أكثر فأكثر، تموتُ في الظل المربع للسقيفة، ترمي شرارات صغيرة تحتضر. خيط سائل بُنّي ينزل ببطء من ركن فمه، بينما هو ينْكُشُ أسنانه بإصبعه الصغير فيما يشبه فتاحة زجاجات. تردّد الشاب السكير: كانت أضواء العلبة الليلية تُشعل وتطفئ بالتناوب وجههُ، شعره غير المرتب، وقميصه الممزق الذي تنقصه بعض الأزرار. أمسكه حارسان من ذراعيْه وسحباه نحو الحانة.

- إن أنت أزعجتها ثانية - أخبره شقيق توشا، بطولياً، وهو ما يزال واقفاً، يعدل ربطة عنقه التي مالت قليلاً - كسّرتُ أنفَك.

أنتِ لم يكن لك أحد، يا ماريليا: أمك بالكاد حدثتني مرة عن أخ غير شقيق يفوقك سناً بكثير، هاجر إلى كندا، شخص يشبهك، يداه على وركيْه، داخل إطار فوق التلفاز، قرب امرأة ذات هيئة أجنبية وبينهما طفل يبكي، بفم مفتوح بشكل مفرط. بحث الضوء الكاشف عن المتسكع صاحب العصفور الذي أنزل الآن سرواله وراح يقذف، بساقين منفرجتين، حيّة مرمر كرنفالية، فانفجر الجمهور ضاحكاً. كان شعره الأصفر يهتز كأنه آلاف اللواقط من الأسلاك الحديدية، وردفاه الضخمتان الزائفتان من القماش تخفقان في رعشات مثيرة للضحك. من مكان ما وسط الظلام، همس الصوتُ المائج لأخته الصغرى في الميكروفون:

- قُدّم لكم هذا المشهد الممتع برعاية جوارب السيدة بينيلوب، فتبينيلوبّي، سيدتي، لتشعري بالفرق من خلال النظرات الرقيقة في عينَي زوجك، إنه الثوب الذي يحول ساقيْك إلى لحظات حقيقية من

الغواية. خفيفة وناعمة الملمس، غنية بألوانها وانعكاساتها، داكنة، بالدانْتيلا، منقطة، أو فقط بألوان الجلد، تُمثّلُ جوارب بينيلوب وحدها ضمانة لحب كبير. مشبعةً بعطر خفيف من الزنْبق والأزهار البرية (الذي لا يتغير رغم عمليات الغسيل المتتالية) مع مجموعة من أربطة الساق الحمراء المزينة بورود حريرية جميلة، جوارب السيدة بينيلوب، فتبينيلوبّي، سيدتي، لتشعري بالفرق من خلال النظرات الرقيقة في عينَي زوجك، يُنصحُ بها خصوصاً في المواعيد الغرامية الأولى، زيارات أعمام عازبين أو أرامل، جواباً عن الإعلانات الشخصية الخاصة باللقاءات الغرامية وطلبات الزواج، كما يُنصحُ بها للزوجات اللواتي يبحثن يائسات عن السعادة في عش الزوجية ويلجأن إلى التقرب من قديس الشهداء، أو إلى الخرجات الجماعية في الحافلات، يوم الأحد، يحملن طناجر ودفوفاً إلى دير باطالْيا أو إلى **«متحف العربات»**. بينيلوب، جوارب لمن تحرص على أنوثتها، بينيلوب، الحل لتجاوز عُقَد خجلك، راحة الشعور بجاذبية لا تقاوم، الشيء الكمالي الذي سيجعلك موضوع حسد، محط إعجاب وموضوع رغبة الجميع. فتبينيلوبّي، سيدتي، لتشعري بالفرق من خلال النظرات الرقيقة في عينَي زوجك.

بدأ يسير على طول الضفة في الاتجاه المعاكس لمصب النهر. كان نعْلاَ حذائه يسحقان الرمل كما لو أنهما يدوسان ورق الصنفرة أو قطعاً من زجاج، ريحٌ باردة تتسلل إلى داخل سرواله، داخل ياقة قميصه، بين ثنايا ملابسه. والماء الذي ينطوي وينكمش في طيات جلدية كبيرة يبدو كأنه يتصاعد منه دخان مثل غسيل، بورجوازيون أغبياء، قالت ماريليا، مغرورون أغبياء، قالت ماريليا، أتساءل فقط كيف تحمّلتَ كل هذا لمدة طويلة جداً، وكانت أفيْرو هناك، غير

واضحة المعالم من بعيد، بُنّيةً تحت سماء بُنّيةٍ وقرب ماء بُنّي، تهتزُّ في عري الصباح. أن أؤدي عرضي بنجاح، على الأقل، فكّرَ، بينما السكينُ ينخز عند كل خطوة شحم وركيْه، على الأقل لا أُحرج مدير الأعمال.

- يقترب الفنان من نهاية عمله من دون ارتكاب أدنى خطأ تقني - صاح القزم، بنبرة ارتياح في صوته، متوجهاً إلى الجمهور الذي بدأ يعزف عن متابعة العرض - إنّ مسْك الختام الرائع هذا الذي سينال إعجابكم لا محالة، لم يتحقق حتى الآن سوى في لندن، سنة ١٩٣٦، من طرف الفنان العظيم والخالد، أرسطو سْزاداغادانس، النجم اليوناني في السيرك الوطني لبلاده.

غيرت ريحُ النسيم اتجاهها فتفرقت طيور البطّ في البحيرة: جزء من الطيور حلق ليحط هناك في الأسفل، وهي ما تزال مفزوعة، تتحسس الهواء بأجنحة مبسوطة، ريشُ أعناقها ينتصب فيما يشبه غضباً أو إنذاراً. ينبغي أن أتصل بالعيادة، يُفَكِّرُ، ينبغي أن أحاول معرفة ما يجري.

- هل تريدين الزواج مني؟ - سأل توشا بينما كانا ينزلان سلالم قطار الأنفاق حيث تتناثر القشور، والأوراق، والنفايات، وشمع اللعاب اللزج. الفمُ الإسمنتي المربع ببقايا ملصقات وكلمات آمرة كتبت بطباشير ملتهبة على الجدران ابتلعهُما كما يتبلع نفقٌ «قطار الأشباح» عرباته المترنحة، وفي الداخل، في العتمة المضاءة بمصابيح نيون طويلة، تتزاحم الحشود المعتادة في قلق.

- أنا؟ أتزوّجُ منك؟ - سألتهُ توشا متعجبة ضاحكة، وهي تجلس، عارية تماماً، فوق سرير صديقتها. كان الوقت صيفاً، وكنتِ تضعين في قدميك نعلين من البلاستيك الأزرق، خلعتِ مؤقتاً لباس

البونشو، نهداك يرتعشان من التسلية، كان جسدك معلقاً مثل آلهة الصين في الضوء المغبر للغروب. يُفكّرُ كاحلاكِ الضخمان، يداك البدويتان، قهقهاتُكِ الحادة، الشديدة، الذكورية، تعبر جذعكِ، تنتشر في صدركِ، وتهزُّ وركيْكِ - أنا؟ أتزوجُ منكَ؟ - تابعت مندهشة - ألا تكفيكَ تجربة واحدة، أيها الشقيُّ؟

لم تأخذني أي واحدة منهما على محمل الجد، فكّر وهو يوجه ركلات إلى علبة مصبرات صدئة كان قد أخرجها من الرمل بطرف حذائه، لم تصدقني أي واحدة منهما. قضى عامين يُلاحق توشا، ملحّاً، يكتب إليها رسائل قوية طويلة، متحمسة وبليدة، عامين وهو يقسم لها بعشق خالد، إلى أن قام ذلك الشخص المتزوج الذي كانت تربطها به علاقة سرية عاصفة بالهجرة إلى مدينة ريو دي جانيرو دون أن يودعها، فغضبت توشا وقالت له نعم، بوجه زجاجي من الدموع، فتحوّل مُجمّلُ الرموش إلى زوجين من فطائر الحبر، متوسلتين ومثيرتين. بعد بضعة أشهر كان يقطعُ الجناح الأوسط من الكنيسة بخطى متثاقلة، يرتدي سترة طويلة، وشكلٌ أبيض خفيف، شبه غازي، يتمسك بساعده، بينما من هذه الجهة وتلك كانت الرؤوس الريشية المضحكة لعماته تنحني نحو صفّ المقاعد لترينه بشكل أفضل، تسحقهُنّ آلة الأرغن التي تتكسر من أعلى في أمواج ثقيلة لمسيرة نصر.

- أتزوج منكَ، يا لها من فكرة - همست ماريليا، مفكرة، وهي تقول لا برأسها بينما كانت تبحث عن علبة السجائر في مخروط الملابس التي رمتها مختلطة على الأرض - أقسم لك إنني كنت أنتظر منك أي شيء سوى هذا الاقتراح. ثم إنني لم أفهم بعد إن كنت بورجوازياً أو مجنوناً، أو كلا الأمرين معاً، رغبةً في التنويع.

ومن جديد، كما في المرة الأولى، شهور وشهور من الإلحاح العنيد، من الحصار المستمر، المتواضع ومن دون هدنة، من النظرات الرقيقة من دون ردّ، من التحبب المفرط، والتوسل المُبالغ والدرامي. عرفتُ عنها عدة علاقات عابرة، دون أهمية، زملاء نحاف من الكُلّية، رفقاء منحرفون من **الحزب**، نحّات ذو لحية رمادية يضع نعالاً، متسخ بشكل لافت، كان يبدو بردائه كأنه يمشي فوق الماء ويوزع على رواد **مدرسة الفنون الجميلة** معجزات تجريدية: ولمَ لا أنا، يُفكّرُ، ما الذي يملكه هؤلاء الآخرون ولا أملكه أنا، لماذا، يا إلهي، لا تأخُذْنني على محمل الجد، لماذا لا تنظرن إليّ بعيون مدورة، مندهشة من الرغبة؟ ذات مرة، في قاعة الانتظار عند طبيب الغدد الصمّاء، قرأتُ في مجلة برازيلية مقالاً بعنوان «الجاذبية الجنسية للبُدُن» مع خلاسيات يرتدين البيكيني وقباقب يعانقن بشهوانية أشخاصاً مدورين يشبهون بيضاً مسلوقاً ومقشراً: كان النص يطري على غواية الذقون المضاعفة، راحة البطون الضخمة في ممارسة الجماع، متعة لفّ الساقين بكاحليْ فيلٍ، كُتبت شهادات بحروف مائلة، ودُونت أبيات شعرية رومنسية هائجة تشعلها كتل الدهون بهيجان السونيتات، ففكرتُ **لا** داعي لاتباع أي حمية، لا داعي لفقدان الوزن، لن أبتلع أقراص الطبيب كي أصير نحيفاً مثل علامة تعجب، سوف آخذ بضعة كيلوغرامات أخرى لتأتي أسرابٌ من الفتيات الشقراوات في فساتين السهرة بتقويرات واسعة، جميلات يضعن مكياجاً مثل ممثلات السينما اللواتي يزيّن علب العلكة، لينتشرن من حولي كالفراشات، منبهرات. وفي انتظار ذلك، يُفَكّر، أظن أن ماريليا تزوجتني بسبب والديها (فمن البورجوازي؟) اللذين كانا يهددان بالموت من الأسى إن هي استمرت في العيش مع رجل

غارق في الخطيئة القاتلة. بكيا طوال مدة الحفل في مقر البلدية، يمخطان بضجيج، متأثرين، عند كل جملة ينطق بها موظف الشؤون المدنية، ثم تناولنا الغداء نحن الأربعة في محل للحلويات في أرّيوش، أمها استمرت تذرف دموع تأثر على الشاي بالليمون ووالدُها، بياقة انفكّت أزرارُها وربطة عنق بألوان حمراء وصفراء، يشرب جعة بعد أخرى في صمت حزين. تناولنا حلويات بالقشدة، كعكات أكثر صلابة وقطع بسكويت جافة مثل شرائح حجارة بركانية. في الموائد المجاورة، رجال وحدهم ونساء مع كلاب صغيرة فوق الرُّكَب يشربون مبردات في وقار جنائزي، والندل يصيحون بطلبيات الزبائن في حجرة صغيرة لا بد أن بداخلها كائن يوفر حلويات بالقشدة وقنان صغيرة من شراب البرتقال. افترقوا في الشارع أمام واجهة زجاجية، مع مزيد من النخير، بعض الدموع وشيء من النحيب المخنوق في منديل، أخذنا الحافلة نحو شارع أزيدو غْنيكو في مجموعة من المنازل نحو الأسفل، وحين التفتُّ رأيتُ العجوزين يركضان معاً نحو محطة الترام، هو بقامة طويلة وهي قصيرة جداً، تحاول أن تضبط خطواتها على إيقاع خطوات زوجها، ولم يسبق لي قط أن وجدتها مسنَّيْن للغاية، هشَّيْن ومثيريْن للعاطفة كما في تلك الظهيرة. حين وصلنا، أغلقتِ على نفسك لوقت طويل داخل الحمام، وحين خرجتِ تحاشيتِ بعناية أن تنظري إليّ: كان جفناك منتفخين وأنفك أحمر، جلستِ على الأرض تتصفحين كتاباً، وحين حاولتُ أن أقبلكِ دفعتني بكل قواك كأنك تكرهينني، فقررتُ أن أكتب لمجلة عيادة طبيب الغدد الصمّاء وأشرح أن «الجاذبية الجنسية للبُدُن» ليست سوى مزحة مشؤومة. لحسن الحظ، بعد ذلك، تحسنت الأمور، من دون شك بسبب نفس غياب السبب الواضح

الذي يجعل السماء تنجلي، فذهبنا لتناول العشاء في مطعم صيني في شارع دوكي دو لولي، يعج بآسيويين منهمكين وبشموع ورقية على شرف قديس أنطونيوس شانغاي، نجحتُ في أن أُضحككِ بطريقتي الخرقاء في استعمال عيدان الطعام، ثم هيّجني لحم الخنزير المغموس فقضيت طريق العودة بكامله أفكّرُ في ممارسة الحب معكِ، لكن، لسوء الحظ، تعطل المصعد بين طابقين، لم تشتغل صفارة الإنذار، فبقينا نوجه لكمات للقضبان حتى الرابعة صباحاً وفي الأخير ظهر الرّجُل الذي يرتدي منامة بنفسجية من الطابق الأول على اليمين، تتبعه زوجته بقميص نوم، اتصلا بصهر لهما خبير بشؤون الميكانيكا، الذي جاء في قميص نوم ملطخ بالزيت، شدّ وحلّ لوالب من دون جدوى، بينما كل أهل العمارة، منتعلين خفافاً، منزعجين ومتضامنين، كانوا يشجعوننا ويواسوننا. قدمت لنا سيدةٌ عصير الكاكاو مع قصبة شرب، وكانت أخرى، بعينين مغمضتين، تتلو سبحتها على ركبتيها فوق ممسحة الرجل، على الساعة السابعة وصل رجال الإطفاء وسط هالة من صفارات الإنذار، سيارات الإسعاف، خوذات لامعة، حبال، خراطيم وسلالم، والخبير في منامته، أسود من قدميه حتى رأسه، يضرب بالمطرقة في عمق القبو، رجال الإطفاء تحت أوامر شخص بدم بارد وصدر تزينه ثلاث ميداليات تشبه سدادات قناني المياه الغازية وملابس داخلية تطل من تحت سرواله، كسروا القضبان بملْحام، فحرقوا المعطف اللائق الوحيد الذي كنت أملكه بحرارة جهنمية (كان شعرُنا يحترق مثل قوائم حشرات)، كنا على وشك أن نخرج عندما قام أحدهم بفتح خرطوم الماء فوق الأرضية، فاستقام واقفاً في انتصاب لا يمكن التحكم فيه، سرعان ما طرحَ أرضاً تلك المرأة المُصلّية التي

سرعان ما راحت تتدحرج في السلالم فتكسرت ناحرتُها، تبلل السكان وهربوا في صيحات عالية أمام الماء المتدفق، وأنَّ رئيس الديكور مَنْ يا تُرى شغّلَ هذا الهراء، بيد أن النافورة ضربتهُ مباشرة في وجهه فاندفع إلى الخلف نحو داخل شقة صاحبة عصير الكاكاو، اصطدم ظهره بصوان في الرواق، فكسّر متسولاً خزفياً يشبه مانويل دي أرْياغا[1] من دون معطف، مرآةٌ ضخمة، داخل إطار منحوت متسوس، سقطت على خوذته وتهشمت ألف شظية، صاحبُ العمارة، يداه فوق رأسه، كان يصيح آه يا عمارتي العزيزة حتى جاء السيل البشري والمائي الذي يجري في السلالم فجعله يختفي، يحرك ذراع غريق، في مسبح من دون قعر عند الطابق الأرضي حيث أعادت النباتات دورتها في غابة من الشعب المرجانية الذابلة، عندما ارتخى الخرطومُ وسكت، ثم تمدد من جديد في لفات دائرية بريئة من القماش، كان هناك أشخاص ممددون في كل مكان في إغماء مبلل، صعدنا الطابق الذي كان ينقصنا بخطى لقلاق حتى لا ندوس الضحايا الذين يبصقون فقاعات، وقّعنا عريضة موجهة إلى سفير البابا نطلب فيها بإعلان القداسة الفورية للمرأة صاحبة السُّبحة، قائدُ رجال الإطفاء انتعش بفضل جرعات عصير الكاكاو الذي توفره السيدة المكلفة بتوزيعه في كؤوس سخية على كل الفريق، وراح ينفخ في صفارة لا يسمعها أحد، ضجيجٌ من السيارات يتناسل في الشارع، أغلقنا الباب، خلعنا ملابسنا، نظفنا أسناننا، عبأنا المنبه، أطفأنا الضوء وسمعنا عبر بخار النوم السائل، بالإضافة إلى صيحات

(١) مانويل دي أرْياغا هو أول رئيس للجمهورية البرتغالية بين سنتي ١٩١١ و١٩١٥، مباشرة بعد نهاية النظام الملكي. (المترجم)

صفارات الإنذار وأنينها كما قطرات الماء التي تقط في الظلام، المطرقةَ العنيدة للصهر الميكانيكي الذي تابع داخل بئره، غير مبال مثل ورم، عمله العنيد كالخلد.

- نتزوجُ معك؟ - سألتهُ توشا وماريليا معاً بصوت واحد غاضب.

- سيداتي سادتي، أيتها الفتيات أيها الفتيان، أيها الجمهور المختار الذي يشرفنا بحضوره وحماسه - أعلن القزم وهو يُسكتُ بوليرو رافيل بكُمّه الممدود - نتشرف بأن نقدم لكم «الزوجتان». تصفيقات على «الزوجتان»، من فضلكم.

بدأ صدى طبلِ الفرقة الموسيقية يتردّدُ، وفجأة اشتعل ضوءٌ كاشفٌ لينير قبة السيرك القماشية (بالكاد كانت تظهر نجمة عبر رقعة ممزقة)، أرجوحة تتمايل خفيفاً، وفوق العُقلة، بأحذية باليه وملابس سباحة لامعة، كانت ماريليا وتوشا تُحيّيان بيدين طليقتين الجمهور الذي يصفق، بينما مسحوق طباشير لاعبي الجمباز يتطاير من كُفوفهما. رفع فريق الفرقة الموسيقية عصا مكنسته في إهْليج متسلط، سكتَ الطّبلُ بعد صدى أخير، أما الجمهور، المشرئب بأعناقه، فراح يتأمل الفنانتيْن هناك في الأعلى، بينما كان هو يمشي على الرمل، يداه في جيبيه وأنفه في الأرض، في رطوبة الصباح المُربكة.

- لم نرغب في الزواج قط - قالتا معاً بصوت واحد - كان هذا الزواج خطأً مؤسفاً من جانبنا.

- حتى الطفلان - أضافت توشا التي كانت أردافها تطقطق تحت الملابس - جاءا إثر وضع من دون آلام، لكن هو لم يكن يتنفس قط وفق الإيقاع الصحيح، أفسدَ عليّ كل نوبات المخاض، وكاد الرضيعان، كما أخبرني الطبيب بعد ذلك، يولدا منغوليّيْن. فهل

تتخيلون أنتم طفلين يتدلى لسانهما ويسيل لعابهما هناك في البيت، يدمدمان بأشياء لا يفهمها أحد؟ أنا، فيما يخصمني، كنتُ سأتخلى عنهما فوراً في عيادة.

- في البداية - قالت ماريليا - اعتقدتُ أنه بورجوازي يمكن إنقاذه، اشتراكي بالقوة قادر على أن يتحول، عن طريق القراءة، والاتصال واتباع النماذج، إلى الإيديولوجية المجيدة للطبقة العاملة. كان العيش معه بالنسبة لي يشكل جزءاً من العمل النضالي، إلى أن أثبت لي الرفاق علمياً عكس ذلك خلال اجتماع عقدتهُ الخليّةُ، أي عقليته الرأسمالية المتحجرة، نخبويته الفظيعة، وأنانيته المطلقة. وطبعاً، قمتُ بنقدي الذاتي أمام الحزب.

- طبيبي النفسي - قالت توشا - أثبت لي بالدليل والمنطق أن زْوي كان مازوخياً سادياً من الدرجة الأولى وأنه كان يرغب في أطفال غير أسوياء. فقط الانفصال عنه مكنني من أن أتجاوز بطريقة غير عصابية عقدة أوديب: لو اتبعت رغبته لكنتُ ما أزال الآن في المرحلة الفَمويّة.

- بطريقة ما أجبرني على الإجهاض بالإهمال - قالت ماريليا بنبرة اتهام - عندما كنتُ أقول له إنني لا أريد أطفالاً فقد كنت أختبرُه أكثر من أي شيء آخر. وكان دائماً يجيبني إن طفلين يكفيانه، وإنه لا يريد مزيداً من التعقيدات. كانت تسري في دمائه تلك الأنانية التي تميز الطبقات المهيمنة.

- لم يسبق له قط أن جاءني بالفطور إلى سرير النوم - اشتكت توشا - يبقى دائماً متمرغاً في الأغطية مثل ضفدع فوق لوْح، يفتح فمه منتظراً. وإن كانت هناك قشدة فوق الحليب يمتنع عن شربه.

- كان يتخيل أن النساء ولدن فقط لخدمته - أضافت ماريليا -

معي كان دائماً يبتلع قطع الخبز المحمص في الجهة العليا، الأكثر دفئاً، ويترك لي الأخرى.

- كنتُ أزيل الأشواك من سمكه وأقشره - قالت توشا - ومع ذلك، إن وجد شوكاً أو قشرة يصيح محتجاً. لحسن الحظ أن الصغيرين لم يرثا عنه تصرفاته على مائدة الأكل.

- لم يكن يأكل الدجاج، مثلاً - قالت ماريليا - فقط شطائر لحم بالرّز ومرق الطماطم. سنوات وسنوات من الرّز بمرق الطماطم يمكن أن تصيب أياً كان بالجنون.

- لم يكن يلوي أبداً أنبوب معجون السنان - قالت توشا - كان يضغط عليه بأي طريقة قرب السدّادة فينشرُ نصف المحتوى على الفرشاة حتى أنه يكاد يختنق بالوعة المغسل.

- كلما تبوّل - قالت ماريليا - كان يرشّ بنقط الحافة البلاستيكية. وحتى أجلس عليها، كان يتعين عليّ أولاً أن أمسحها بورق صحي.

- لم يرافقني قط إلى السوق الممتاز - قالت توشا، رأسُها إلى أسفل، مُعلَّقةً من ركبتيها على العُقلة، بينما ماريليا، وهي تمسك بيديْها يديْ توشا، تتأرجح في الفراغ - ومن يقول السوق الممتاز يقول محلّ الجزارة، يقول المخبزة، يقول الخياط، يقول محلّ بيع اللعب، يقول كل شيء. أنا من كنتُ آخذ السيارة إلى الورشة لتفريغها من الزيت.

- كان يشترط أن يوجد الناس حسب ما يوافقه هو - قالت ماريليا وهي تدور حول نفسها في شقلبة مضطربة شددت عليها الفرقة الموسيقية بإيقاع قوي وصفق لها الجمهور بحماس. (فوق الحلبة، يضيئُه نورٌ كاشفٌ، كان القزمُ يبدو أكثر قِصَراً، يفتح ذراعيه، يتقدم

ويتراجع كأنه سيتلقاها على الأرض إن سقطت من عل) - كان بحاجة إلى تفرُّغ دائم، إلى عطف غير محدود، إلى ولع غير مشروط، فمن يتحمل وضعاً كهذا لوقت طويل؟

- لم يكن يطوي حتى قمصانه - قالت توشا بحنق - في الصباح، كان عليّ أن أختار له الملابس لأنه يبدو مخيفاً إن لبس وفق ذوقه. بل تساءلتُ إن لم يكن مصاباً بعمى الألوان.

- ظل دائماً محافظاً من النوع الرديء - قالت ماريليا وهي تنزلق على طول حبل حتى بلغت الحلبة، حيث رفعت ذراعيها وأدارت جسدها لتشكر الجمهور على حماسه. ذلك الجمهور الذي كان القزم يشجعه على أن يتقدم بخطى صغيرة نحو وسط الحلبة - لقد نخره سرطان الرأسمالية تماماً، كان شبحُ الدِّين يُكبّله، وصراعُ الطبقات يصيبُه بالفزع. لحسن الحظ أن الحزب أنقذني من عدواه وبيّن لي الطريق الصحيح التي ينبغي أن أسلكها.

- ما إن انفصلتُ عنه حتى تمكنتُ من الشعور بالسعادة - قالت توشا - وهي تنزلق بدورها على طول الحبل وتقترب، يدفعُها القزمُ، من ماريليا التي كانت تنتظرُها بابتسامة عريضة متواطئة على فمها القرمزي. مجموعةٌ من العشاق القدامى، ينحنون على درابزين إحدى المقصورات، كانوا يصفقون لهما بإعجاب كامل، ففكّرَ من دون حزن، وهو يحدق في أشجار أوكاليبتوس أفيْرو، البيضاء تقريباً وسط الضباب ويبدو أن أغصانها البعيدة تذوب في الغيوم، أشعرُ أنني بعيد جداً من كل هذا. وكان طرف السكين على إبطه يشل حركاته مثل عقدة على حافة جرح.

- كل طيور الضيعة هنا - قال والدُه بينما كانت قطع الورق المقوى التي صُلبت عليها الطيور ذات المحاجر المدورة اللزجة

والقوائمِ المقوسة، السوداء والحمراء، تتراكمُ مختلطةً فوق السجاد. كان الشعر على صدغيْه قد بدأ ينفكُّ عن الدهان، وخصلة شاردة ترقص على قوقعة أذنه. كان المصباحُ المصمم بشكل فني فوق مكتبه يترك الآن في العتمة النصف الأعلى من وجهه وعينيه الناقدتين المتفحصتين.

- أما زلتَ ترغب في أن أفتح بطونها وأشرحها لك؟ - سأله وهو يبحث عن سيجار آخر في العلبة الفضية.

وكلما انتشر الصباح واتسع كان هناك إحساس كأن المرء يتحرك في ضوء علية، داخل بيضة زجاجية، فيما يشبه بلوراً مُتقيّحاً يغير الأصوات، يضم الأشجار وفق ترتيب مختلف، يقسّم الريح ويجلب معه رائحة الخليج الخفيفة، التي تشبه رائحة جثة متعفنة: اختفت توشا وماريليا خلف الستائر وهما تجريان يلاحقُها الضوءُ الكاشف، هدأت مقصورة العشاق القدامى، كان طائر عقعق ينعق فوق شُجيْرة، ربطوا ذقن أُمّه بمنديل في العيادة، كانت السماء تبدو كأنها تتشكّلُ من أدراج سائلة متتالية تبرقشُ الخليج وتتناسخ فيما بينها كأنما في لعبة لا تنتهي، كان والدُه يفحصُ بعناية مقطباً حاجبه فراشةً تتحوّلُ شيئاً فشيئاً إلى طائر حسون بحدقتين جاحظتين من الخوف، التفت ليلاحظ بناية النّزل هل تكونين قد استيقظتِ، هل تستحمين الآن؟ ظنّ أنه سمع هدير محرّك سيارة في الطريق، الزوجان الإنجليزيان، زبائن يَصِلون، أنتِ؟ من ذا الذي يأتي ليدفن نفسه في هذه الأجواء في سفينة نوح تقودها امرأة عدائية في مكتب الاستقبال؟ أيها القائد، بوليرو رافيل، من فضلك، أمرَ القزمُ بصوت ذي نبرتيْن مُلحّ بشكل يثير الضحك، ترتدين ملابسكِ، تتناولين الفطور، تشعلين سيجارة فوق السرير وتجعيدة على الجبين، أومأ صاحبُ المكنسة بحركات

قوية فاستأنفَ النشازُ الفظيعُ ضجيجَ الصّنوج، وقام كارلوس، خطٌّ رائعٌ يقسم تسريحة شعره، بجزمة عالية ولباس براندبرغ، بطرد آخر فرس مزين بالريش بطقطقة من سوطه، أسند قدمه إلى حافة الحلبة المقشرة من القِدم وهو يستعرض الطرف اللامع من المهماز، رمى الجمهور بنظرته المتحدية المعتادة، الملحة، واثقاً من نفسه، لا يطاق، وهناك كانت الابتسامة الصغيرة المنفرجة لوجبات العشاء في بيت والديْهِ، المزاح المعادي للشيوعيين من دون دعابة، السيقان المشبكة في الأريكة الجلدية كأنه يملكها، وكأس الويسكي الأبدية بلون البول في يده:

- كيف حال **الحزب**، أيها الرفيق؟ - سأل وهو ينحني ليأخذ قطعة بسكويت بالجبن مدّها إليه شخصٌ من الجمهور فابتلعها بسرعة فورية لا تعبير فيها مثل حرباء. إنني أكره سالفتيْك على شكل شوكة، فكّرتُ، أكرهُ رائحة عطركَ، أكره ربطات عنقك الحريرية، أكرهُ العفوية الخنوعة التي تتحدث بها مع والدي، طريقتك الوقحة في النظر إلى أفخاذ الفتيات، وكيف تنحني نحوهن لتهمس بجمل لا أفهمها من ركن شفتيْك المُستهينتيْن.

- أمي - قالت أخته باكية - تصوري، اتصلوا بي ليخبروني أن كارلوس يقابل فيليبا، صديقتي في الثانوية.

ترك كارلوس نفسه ليسقط بكل ثقله فوق الأريكة، بين زوجته وفتاة أخرى من نفس السن تقريباً، لها هيئة غجرية، دون أن يترك السوط الذي ظل يتلوى فوق السجاد، جال حول المائدة الخشبية المصقولة واختفى في الفم المظلم للرواق. الضوءُ الكاشف الذي كان ينيره أظهر خيطاً ضيقاً من العرق عند منبت شعره وكانت شفته العليا تلمع أيضاً، تحيط بها بقعة لحيته الكثة.

- إنني هنا معكم اليوم - أعلن بنبرته الرتيبة، الخشنة التي تجعل جمله قبيحة بشكل مزعج - على إثر دعوة كريمة وجّهها إليّ النادي الرياضي «اليد الحديدية»، الوحيد في البرتغال الذي يتوفر على أساتذة متخصصين قادرين على أن يحولوا جسدكَ، مهما كان نحيفاً، مهما كان هزيلاً، مهما كان ضعيفاً، مهما كان أحدبَ، إلى تمثال مذهل وغني بعضلاته التي ستجعل منك، في الشاطئ، طوال فترة الصيف الحارة القريبة، ليصير مركز اهتمام مغرم لنظرات النساء، وموضوع حسد الأصدقاء. انخرطْ في نادي «اليد الحديدية» لتصبح مهاب الجانب، مرغوباً، محترماً، مطلوباً، محبوباً بفضل صلابة وحجم وشكل عضلات ذراعيْكَ. هل تريد أن تحسن وضعيتكَ المهنية، أن تكتسب علاقات جديدة، أن تتلقى دعوات أكثر لحضور الحفلات، والكوكتيلات وأعياد الميلاد، أن تشغل مناصب ذات سمعة اجتماعية لا جدال فيها، أن تغوي المرأة التي تجري وراءها فعلاً منذ عدة سنوات بدل أن ترد عشوائياً على إعلانات لقاءات صغيرة في الجريدة لتجد نفسك في صالون شاي مشبوه رفقة نساء في منتصف العمر، حزانى بلا حدود، يحركن في قعر الفناجين سُكّر وحدتهن، مع رواية لهارولد روبنس[1] فوق المائدة الحجرية؟ إن نادي «اليد الحديدية»، الذي يسيره أساتذة متخصصون، من بينهم العظيم جاسينتو دا كونسيساوْ أوغوستو، سيّدُ العضلات في شبه الجزيرة الإيبيرية سنة ١٩٥٩، المتزوج حالياً من أميرة سويدية، سيقدم لكم، بالإضافة إلى كل ما ذكرتُه، الرغبة في الحياة، القدرة على فتح سدادات قناني الجعة بمجرد نقرة واحدة بالإصبع الأصغر

---

(١) هارولد روبنس (١٩١٦-١٩٩٧)، كاتب أمريكي، اشتهر برواياته الشعبية. (المترجم)

أو تحطيم باب منيع بدفعة مرفق خفيفة. بفضل حصصه الرياضية التربوية، التصحيحية، المطبقة، الإيقاعية، أو للمحافظة على الرشاقة، بفضل حمام بخاري فنلندي، قاعتين لممارسة المسايفة، والملاكمة، ألعاب العصيّ والكاراتيه، بفضل تدليكه الخاص على يد القدير جولْيو «ذو الأصابع الذهبية»، قسم الحمام التركي والدُّش الاسكتلندي، ومطعم «اليد الحديدية» المتخم بالفيتامينات، حيث تتشكل الوجبات من ثلاثة وعشرين نوعاً مختلفاً ومكملات من الأقراص، والكبسولات، والقوارير القابلة للشرب، التي يمكن حقنها عبر العضلات أو في الشرايين، أنواع من الشراب المحلى، علب الهباء الجوي، مراهم، مقويات وتحميلات، إن نادي «اليد الحديدية» يمثل في بلادنا مبادرة فريدة تسعى أن تقدم للبرتغاليين الصحة، العافية، القدّ الجميل وما يستحقونه من عضلات، ليطرد بعيداً جداً الشبح الفظيع للأمراض الجسدية، النفسية أو النفسية الجسدية، الضغط المرتفع جداً، الذبحة القلبية، دوالي الحبل المنوي، ضمور الجمجمة، تضخم الرأس، مرض الزهري، مرض السيلان، الحمى المالطية، حمى التيفوئيد، الطفح الجلدي، الحوَل، الصّلَع، انتفاخ العيون، تضخم الغدة الدرقية، الروماتيزم، آلام الرأس، آلام الأذن والحنجرة، نتوء الحدقة، السعال التشنجي، ما قبل التشنجي وغير التشنجي، القبْض، التواء المفاصل، الأظافر المنغرزة، داء البواسير، تصلب النسيج الجلدي، الخوف، القلق، انفصام الشخصية، كسور عظم الفخذ، الأرق، إدمان الكحول، النقاط السوداء، المخدرات، داء الحَفر، التفكير في الانتحار أو محاولة القيام به (تغيّرَ لونُ الضوء الكاشف: صار الآن أخضر مثل الخس واستمر بوليرو رافيل في طريقه بلا رحمة، تطردُه مثل ديك

حبشي، مكنسةُ القائد المحمومة) وبالحديث عن الانتحار، سيداتي سادتي، وأنا أشير بالخصوص إلى العرض الذي يقدمه صهري في هذه اللحظة - (ثلاثون أو أربعون متراً أخرى وسأتمكن من رؤية النوارس عن كثب، تلك التي تطفو فوق الماء وتلك التي تحط فوق قطع الفلين التي تُصَوّي الخليج وتمشط ظهرها بالمنقار) - أما بخصوص فعل التحرير أو الجنون أو الأمل أو الحماقة البسيطة التي سيحاول القيام بها هذا الفرد البدين في غضون بضع لحظات (بالنظر إليه من النافذة، كان ظلّاً صغيراً يتقدم بعناد فوق الرمل في الصباح الرمادي، ظلّاً تافهاً يختفي بعيداً حيث تتشابك أشجار الصنوبر والضباب، مثل بطل سينمائي عند نهاية الفيلم، شيئاً صغيراً ينضب، يبدو أنه يكبر، يتبخر)، فإن رأيي الشخصي المحض، حدسي، رهاني، اقتناعي العميق، سيداتي وسادتي (همسَ جملةً في أذن الفتاة ذات الهيئة الغجرية التي بدأت تضحك فسحبها من أذنها بمظهر من يلوم لوماً لاهياً)، فهو أنه سيفشل، من دون شرف ولا مجد، في تحقيق إنجازه أو بالأحرى مشروع إنجازه، تماماً كما فشل حتى الساعة في تحقيق أي شيء في حياته.

- خدشة بسيطة في المعصم ولا شيء غير هذا - قالت الشابة السمراء وهي تُصلصل الأساور في ذراعها. نضع عليها ضمادة سريعة وسيكون على أحسن حال، سوف ترون.

- إن كارلوس على حق تماماً - قالت أخته الصغرى وهي تحدق في الآخر بحقد - لو أن والدي ارتكب حماقة ومنحهُ وظيفة داخل المقاولة قد يكون ذلك كارثة مدوية.

- هذه الحكاية مع فيليبا لا أهمية لها إطلاقاً - أجابت الأم - أطلقي له العنان شيئاً ما وسيمل منها في الحين.

- من الواضح أنه سيفشل في المحاولة - كرر كارلوس وهو يداعب ركبة الفتاة الشابة بإصبع إبهام متثاقل - لاحظي أنه لم يحقق شيئاً ذا شأن خلال ثلاثين سنة.

- يكفي النظر إلى عمليات زواجه - أعلن صوت طبيب التوليد من وسط الجمهور وسرعان ما لاحقه ضوء كاشف أحمر كان يُبْرِزُ ويُغرقُ في الظلام صفّاً بعد آخر المتفرجين الذين كان بعضهم يسارع للقيام بحركة من يده آملا في وجود كاميرا خفية - يكفي التفكير في الحماقات المتتالية التي ارتكبها.

- ربما مزيداً من طيور الحسون، أليس كذلك؟ - اقترح والدُه بلطف وهو يتابع فتح جوارير الخزانة يرمي على الأرض صفائح من الورق المقوى مليئة بالطيور الميتة. طيور الحسون، الخُضيْريّ، العندليب، الهدهد، أبو الحناء، الشحرور، الكناري - راح يعدد عشوائياً -، كل ما تشاء من الطيور.

أي حماقات؟ فكّرَ جالساً فوق الرمل، وسط الأعشاب، ينظر إلى الماء الكثيف، البخاري، الساكن في نهر فوغا. الانفصال عن توشا، إجهاض ماريليا، أنه لم يشتغل في المقاولة كما كانت رغبة والده، بل إنه لم يقبل أصلاً، فهل كان ذلك من باب الكبرياء؟ من باب الانسجام؟ (لكن، الانسجام مع أي شيء؟)، لماذا رفض لمجرد حدس طفولي متمرد منصباً شرفياً في الإدارة؟ أي حماقات؟ فكّرَ محتاراً، يفتش في الفراغ المفاجئ، المقلق، الشاسع لذاكرته إلى حدّ ما تدركه ذراعُ التّذكُّر.

كان البردُ يحْلقُ الشجيرات وأغصان أشجار الصنوبر، يهزُّ أشجار الأوكاليبتوس، يُجعّدُ جلد الماء مثل جبين يتأمّلُ. من حين

لآخر، كانت حافلة تتدحرج على الطريق التي لا يراها، ثم يتناقص الضجيج، بطيئاً، نحو المدينة، يلاحقُه غضب الكلاب.

يُفكّرُ أي حماقات؟ فيبْرُزُ فجأة أعمى الضيعة (بفضل المساهمة اللطيفة للمخروطات المهلبية بيمْبامْبومْ)، يمشي بمحاذاة السقيفة يبحث بعكازه عن المقعد الحجري حيث اعتاد أن يجلس عند نهاية الظهيرة، وجهه مرقّط بالمصفاة الخضراء للأوراق وبالظلال وبقع الضوء التي تُشتّتُها الشمس وتجمعُها، كأنها تفكك وتعيد باستمرار بناء مُرْبِكة غير منسجمة (تصفيقات على الشبان المكلفين بالمؤثرات الخاصة، صاح القزم، فصفق الجمهور بحرارة) حتى اللحظة التي لامس فيها طرف العكاز الحجر الكلسي، فقدّم ذراعه متردداً نحو المساحة المسطحة، وضع ركبتيْه في زاوية قائمة، استوى، فشملت نظاراته من الميكا، مهددة ومدورة، كل الضيعة باهتمام صامت. كانت ريح أغسطس تجلب إليه رائحة عذبة من البستان، وآلاتُ كمان العشب تموج في المشاتل.

- ليحْيا النادي الرياضي «اليد الحديدية» - صاح كارلوس بينما كان إبهامه يختفي تحت تنورة فيليبا، مشكلا نتوءاً يزحف نحو الفخذين.

مستلقياً فوق الرمال، يسند رقبته على مرفقه المطوي، كان ينظر إلى السحب تسافر، هناك في الأعلى باتجاه البحر، تكاد تكون صلبة في كثافتها المطاطية، تتمدد وتنكمش مثل دخان سجائر المتفرجين قرب صف المصابيح الصفراء في السيرك، بينما بردُ فبراير يُصلّبُ وجهه كأنه يلفُّه بعجين طيني مزعج. كان يسمعُ نَفَسَ الأشجار، النعيق المتفرق للبطّ، حمامة برّية تعبرُ أشجار الأوكاليبتوس، يعاينُ الجزْر البطيء والمياه تنسحب شِبْراً بعد آخر من الرَّمل المغطى

بالأنقاض، والطحالب، وجثث القطط المنتفخة، يتخيّلُ ماريليا تحزم حقيبتها في النّزل، ترمي بداخلها عشوائياً، دون أن تطويها، ملابس الجوارير، تكنس بيدها أمْشاطاً، فُرَشاً وأنابيب نحو حقيبة أدوات الحمام، تاركة المعالق الفرغة تتأرجح فوق قضيب من الألومينيوم، وأثناء ذلك، دون أن تتغير تعابير وجهِهِ، دون أي حركة، دون أن يحرك شفتيْهِ تقريباً، قال الأعمى:

- هل أنت هنا، أيها الفتى؟

وفكّرتُ كيف أتى إلى أفيِيْرو، كيف استطاع، يا إلهي، أن يكتشفني هنا؟ هل جئتَ تتعثر بالأشجار والقصب حتى تعرَّفْتَني بالشّم كما تتعرّفُ الكلاب العجوزة أسيادها؟ يفكّرُ لا أعرف حتى إن كنتَ ما تزال على قيد الحياة، منذ مدة طويلة لم أعد أسألُ عنك والدَيَّ، منذ مدة طويلة لم يعد أحد يقضي العطلة في الضيعة، لا بد أن الأُشنة تنمو في الأثاث، على المناديل، على الستائر، على الابتسامات بلون اليود في الصُّوَر، في غرفة العلّية ذات الأرضية الخشبية غير الثابتة، التي تغزوها النباتات المتسلقة، واللبلاب، وديدان الخشب الجائعة، ربما يكون المنزل قد غرق في الماضي إلى غير رجعة مثل تلك المراكب المشدودة إلى صخرة وهي تتفكك من حين لآخر في نهر التاج، ربما تنمو أزهار الدهلية والنرجس في الصحون، ربما نما بهقٌ غريب فوق أغطية الأسرة، في المناديل، في عفن الملاءات، كانت ماريليا تسحب أحزمة الحقائب، وقريباً جداً سوف تتصل بمكتب الاستقبال تطلب أن ينزلها مستخدم إلى الأسفل أو ستحاول وحدها أن تجرّها عبر الرواق، يعرقلها لباس البونشو، تساعدها خادمة النظافة، سوف تؤدي الفاتورة، تطلب سيارة أجرة تأخذها إلى محطة القطار، تقول للمرأة غير الودّية زوجي سيتبعني لاحقاً بالسيارة، كم

يوماً ستبقى هناك السيارة دون أن يلمسها أحد، فكّرَ، في اللحظة التي اخترقت فيها زقزقةُ نورس رأسهُ من أذن إلى أخرى (تماماً مثل إبرة، قال القزم للجمهور، إبرة دقيقة جداً، حارقة، مؤلمة) وكانت الريح تهزُّ، غاضبة، أشجار الأوكاليبتوس، لمست يدُه من دون قصد طرفَ السكين (انتشرت همسات في المقصورات، وامتدّت إلى الألواح المهترئة في الشرفة)، تردد، ابتعد، وكان سجّاد المكتب الآن ممتلئاً عن آخره بالطيور ذات المناقير المفتوحة، القوائم المسمّرة والعيون المدوّرة، التي كان هو ووالده يُعايِنانها واقفيْن باهتمام مفتون.

- هل أنت هنا، أيها الفتى؟ - سأله الأعمى مرة أخرى بنبرةٍ ببّغاء.

- حماقات بعد حماقات بعد حماقات - قال الطبيب من بعيد - مئات من الحماقات التي يكون ثمنها باهظاً.

سمعَ ضجيجاً على يساره، ودون أن ينظر أدرك أن الأعمى كان قد جلس إلى جانبه، بنظارتين سوداوين مُوجّهتيْن نحو الماء، تعكسان مركباً صغيراً يُبحرُ مرتعشاً في الزجاج. كيف يمكن أن تكون أمي، فكّرَ، ما الذي حدث خلال هذه الأيام في العيادة، كم من السترات المخططة الفظيعة نسجت بنتُ العم منذ يوم الخميس، وهي تعد الزُّرود بشفتيها المتجعدتين؟

بيتُ الضيعة المهجور، البئر المهجورة، أشجار التين المهجورة، التي ينزل منها على الأرض قطرةً قطرةً حليبٌ وردي لا نفع فيه، الغابة الزرقاء تطفو هناك في الخلف أثناء فترات الظُّهر الصيفية، كثيفةً، طويلة، قرمزية، تعجُّ بالطيور الجامدة الخرساء التي تنتظرُ الليل فوق الغصون، كأنها علامات موسيقية لا صوت لها، كرسي طويل من القماش يبهتُ في الفناء، وحيداً تماماً كما البوابة

الصدئة، غرف المنزل الحزينة، المكان الهندسي، الأكثر وضوحاً، اللوحات على الجدران الفارغة، آلة خياطة يعلوها الغبار داخل علّية، مكنسة خلف ستائر متسخة. كان ينتقل من غرفة إلى غرفة دون أن يلمس الأرضية الخشبية تقريباً (تصفيقات على الفريق الفني والتقني المكلف بالديكور، طلب القزمُ بصوت جهوري)، يتفحص، في الضوء الخافت والخيالي للأحلام، أشياء الماضي القديمة الأكثر شحوباً، أكثر غموضاً، أكثر صغراً، مشحونة بمعنى من المعاني الخفية التي لا يفهمها، التي لن يفهمها أبداً، قطعُ أثاث مفتوحة على مصاريعها تتدلى منها قطع ملابس شاحبة، لوحات مائية ذابلة، ستائر نخرتها العثة تنسلخ عن حلقاتها، أسِرّةٌ من دون أفرشة تقلّصت إلى هياكل ألواح، دوائر كراسي تعجُّ بأشباح هامسة بأفواه خفية تتحدث بصوت خفيض، برؤوس تنحني وقورةً بعضها نحو بعض تتبادل أسراراً غامضة، نزَلَ إلى الطابق الأرضي في دقة معطّرة، عبر المكتب الزجاجي، ومزهريات كبيرة بها نباتات ذابلة تشرئبّ بأعناق طويلة من حافة طينية، قاعة الأكل حيث توقف الزمن في الساعات الحائطية التي ظلت معطلة منذ الأزل، خففي من شدِّ اللجام حول عنقه، قالت الأمُّ لأخته الصغرى، وسرعان ما تنتهي حكاية فيليبّا هذه، الغرفة الضيقة ذات اللوح الخشبي حيث تتراكم الآن دراجات هوائية تغطيها بيوت العنكبوت، براز الفئران، قاذورات مختلفة، المطبخ بمائدته الخشبية ذات الغطاء الرخامي، المغسلة من الألومينيوم تحت النافذة، الثلاجة المقشرة، الموقد من دون مخارج نار، بلاطات الجدران تتخللها شقوق وعظايات حيث يكثر أقحوان الغياب، ثم خرج إلى الحديقة غير المرتّبة، حيث كانت جزّازَةُ العشب مسندة إلى الحائط والأحواض الإسمنتية من دون ماء يُغطيها سجادٌ من غبار الإهمال.

مستلقياً فوق الرمال، على بعد مئتي متر من النّزل، وسط زقزقة النوارس التي صارت أقرب فأقرب (لن أفتح عينيّ، فكّر، لن أنظر إليها ما لم أبلغ البئر وما لم يُعِذْني والدي إلى المنزل منفرج الساقيْن فوق ظهره)، سمعَ صرير حذائه يدوس الأوراق اليابسة المتراكمة في الفناء دون أن تكنسها أي مجرفة، ثم حصى الممرات الذي ينْسحقُ تحت كعبيْه وصوتُ الطبل الصّلب الكامد للتراب، الجذور التي تتحول فحماً، الأعشاب المطاطية مثل سلاميات تنكمش وتتمدد، تحتج واهنة عند كل خطوة. فكّرَ **سوف تمطرُ**، كما تمطر في هذه الليلة التي أخطُّ فيها نهاية كتابي، مستلقياً إلى جانبكِ في الصمت الكبير للغرفة، ساقٌ فوق ساقيْكِ والنَّفَسُ الهادئ لنومكِ على كتفي يتنفس على الإيقاع البطيء لكلماتكِ، كما تمطرُ في الورق، كما تمطرُ في السرير، كما تمطرُ على أفخاذنا المتشابكة، كما يمطرُ ابنُكِ داخل بطنكِ، ويناديني بصوت مَرّيخي شفّاف كصوت قناديل البحر، فكّرَ **قريباً** سأضع قلم الحبر ودفتر الملاحظات فوق طاولة السرير، وألفّ نفسي حولكِ، سأطفئ الضوء، ذراعُكِ المدوّرة ستطوّق عنقي وسيكبر قضيبي بعشق فوق مثلث عانتكِ المتساوي الأضلاع كما تكبر السُّحب في صباح أفيْرو وتنشر أجنحتها في بازلت السماء، كما تكبر الأعشاب في الضيعة المهجورة، كما تكبر أصابعي فوق صدركِ، فوق ظهركِ، فوق كرسي خصركِ الممتلئ المدوّر، كما يكبر رُضابكِ فوق لساني بينما أقدامنا تتشابكُ وتنفكُّ في حركة أسرع فأسرع. هل أنتَ هنا، أيها الفتى؟ سأله الأعمى وعكازُه تتحسس الرمل من حوله بخفة لاقط مفاجئة، بينما كارلوس يفتش داخل تنورة فيليبّا وهو ينظر إليها بحدّة ونظرة مأساوية بعينين منفوشتين بشكل مفرط كالرجال الذين يفرقون شعرهم في الوسط كما في البطاقات البريدية القديمة،

سمعَ محرّكَ سيارة أجرة ماريليا يهدرُ فوق الطريق باتجاه النّزل، رائحة الماء تقترب، لاهثة من التعب، برزت شجرةُ تين البئر خلف شُجيْرة، مجرّدة من أوراقها ومن كل حياتِها، جافةً، بلون الرماد، تقلصت إلى مفاصل عقدية من القطرات عند غصونها، لمحَ ظلَّ البئر، البكرة الصدئة والدّلو القديم، فكّتْ فيليبّا أزرار قميصها، حرّرت نهديها الموشومين بالأحزمة، عقدةَ جلد سرّتها، اللوح المسطح الناعم لبطنها الذي كانت ترفعُه عظام الحوض نحو الخصر، راح كارلوس يلحس خاصرتها، يتلمّس صدرها، يبحث عن فتحة سرواله بيده المتحررة (تلك التي تحملُ خاتماً به أذرع، فكّر، ذلك الحجر المغرور المثير للضحك) ، قطعة بوليرو رافيل التي تؤديها الفرقة الموسيقية صارت هادئة متواطئة، السيد إسْبيرانْسا، مرتدياً بذلة سهرة الآن، أخذ الميكروفون برفق، أمالهُ نحو فمه وأشار إلى الزوجين اللذين كانا يتدحرجان شبه عاريين من الأريكة إلى السجاد، أمام لامبالاة الأُسرة:

- هذا المشهد الإيروتيكي البسيط، في مستوى أحسن الدُّور في باريس، لندن، نيويورك ومانيلا، الذي أداه فنانون موهوبون من أهل البلد، لم يتدربوا في مدرسة أخرى غير مدرسة السيرك، قُدّم لكم من طرف منتوج محلي جداً، برتغالي خالص، بفضل اكتشاف جديد أنجزه فريق علمي من وطننا، إنه آخر واحدة من عجائب تقنيات كويمبرا: مرهم «مضخة القذف»، المتوفر الآن أيضاً على شكل رذاذ بطلب من عدة زبائن، الدواء الذي يُكبّرُ عضوكَ الذكري بثلاث سنتميترات ونصف، خلال أسبوعين فقط وبفضل استعمال سري صباحاً عند الاستيقاظ وليلاً عند النوم، عند أي لحظة تنظيف الأسنان، ويمكن أن تستعمل نفس الفرشاة ونفس الكمية من المنتوج، بوصة واحدة كأكبر

قدر لكلا العلاجين. إنكَ تسألُني، يا سيدي، وأنت على حق: كيف لي أن أحصل على هذه المعجزة، كيف لي أن أصل إلى هذا الكمال الذي كان شيئاً يستحيل تصوره إلى غاية الآن، كيف لي أن أحصل في بيتي، بكل سرية وراحة، على هذه الرغبة الخفية في الحياة، على تكبير قضيبي، المبالغ، الرائع والعجيب؟ حسناً، إن المعهد الجامعي المستقل لكويمبرا، الحاصل على وسام فارس من جماعة المسيح والذي أُعلنَ هيئة ذات نفع عام، ووسام الاستحقاق الفلاحي، شريك شرفي لهيئة «**الاتحاد الأوروبي من أجل الجماع المسيحي**» وعضو كامل العضوية في «**الجمعة الإيبيرية للدراسات حول الفرج**» يكشف لك، من خلال وسيطه المتواضع، عن سرّه العجيب: أُشْنة نهر مونديغو البنفسجية، نبات نادر جداً يقطف على ضفاف هذا المجرى المائي الشاعري قرب المصب، في فجر مناسب يوافق يوم ثلاثاء المرفع[1] أو أربعاء الرماد[2]، الذي، بعد أن يُسحق ويعجن، ثم يُحمّض، ويُجفّف، ويجمّد، ويقطّعُ شظايا، ويركّز، ويُخلطُ بدم حيض العذراء، ولعاب الأطفال، وزيت الحوت وعصير الجوارب، يمنحُ عضلات العانة صلابة الفولاذ، يعطي الخصيتين معدل حجم يبلغ سبعة وخمسين سنتيمتراً مكعباً، ويؤدي بفضل مفعوله الرّهيب، أكرر، مفعوله الرّهيب، إلى غيبوبة سكرانة، محمومة، مطيعة وخاضعة لدى النساء. مع «مضخة القذف»، صديقي العزيز، ستحمل في بطنكَ مدفع قتال جنسي حقيقياً.

---

(١) ويسمى أيضاً ثلاثاء الاعتراف لدى المسحيين، وهو اليوم السابق لبدء الصوم الكبير. (المترجم)

(٢) هو أول يوم من زمن الصوم المسيحي ويرمز إلى التوبة. (المترجم)

كارلوس، بملابس داخلية، أخرجَ أنبوباً من جيب معطفه وعرضه من حوله، كما يفعل مصارعو الثيران، تحت وابل من التصفيقات، بينما على الأرض كانت المرأة ذات الهيئة الغجرية ترفع ذراعاً متوسلة نحو مرهم «مضخة القذف».

- حتى لو طلب مني الطلاق راكعاً على ركبتيه - قالت أخته الصغرى لأمه وهي تمسح بعناية وجهه بمنديل حتى لا تفسد الماكياج على عينيها - لن أقبل ذلك بسبب الصغار: لا أريد أن يحدث لهم نفس ما حدث لطفلي زْوي.

- سيداتي سادتي، أيتها الفتيات أيها الفتيان، ممثلو السلطة الحاضرين، أيها الجمهور المحترم - صاح القزمُ بنبرات ارتعاش مأساوية في صوته بينما الضوء الكاشف يكنس قبة السيرك في كل الاتجاهات وبوليرو رافيل يواصل بشراسة مسيرتهُ العنيدة، يدفعُه القائد ذو المكنسة بشعره المستعار الذي ينزلق دفقات صغيرة على رقبته، كاشفاً عن جمجمة صلعاء لزجة من العرق وخصلات شعر متناثرة باهتة ترفرف في حالة فوضى - نتشرف بأن نعلن لكم أن العظيم زْوي س. سيقومُ بعد قليل بتنفيذ عرضه الشجاع. لأول مرة في البرتغال، وبفضل تكرُّم الجهات الراعية لنا، سيضحي فنان بنفسه أمامكم في عرض غير منقول على شاشة التلفزة إطلاقاً، حتى يمنحكم بضع لحظات من التسلية الممتعة، بعيداً عن الهموم، بعيداً عن قلق الحياة اليومية وضجرها.

من جديد، عبرت سيارة الأجرة الطريق هناك في الأعلى باتجاه أفييْرو، وبدا كأن هدير المحرك ملفوف في رطوبة الصباح مثل أنين غريق فوق الرمال يحاصرُه فضول الناس بأسئلة، صيحات تعجب، اقتراحات وتنهُّدات. فكّرَ بعد كم من الساعات ستصلُ إلى لشبونة؟

فكّرَ ماذا سيقول والداكَ وهما يريانكَ عائداً؟ تخيّلَ دُموع أُمّه وأسئلتها، الصمت البقري والمحير لأبيه، العشاء ثلاثتهم أمام التلفاز المشتعل، ينظر إليهم مقدّمُ الأخبار عند وقفات القراءة بعينيه المحتضرتين كأنه مسيح يحمل صليبه، تخيل عمّه المتقاعد الذي يأتي دائماً بعد الأكل ليشرب في ركن من المائدة في تثاقل كأسه من ماء الحياة، جامداً عند عتبة الباب، يوسع ربطة العنق بإصبعه (ما الذي يحدث، ما الذي يقع، لمن هي هذه الحقائب في الرواق؟)، يتردد في الدخول، في الجلوس، في الحديث، في إخراج ورق اللعب من جيبه من أجل صبره المعتاد الذي لا ينتهي، يبلل إبهامه بطرف لسانه قبل أن يفرق الأوراق فوق غطاء المائدة.

- أن يكون المرء مراقباً في وسائل النقل العمومي في لشبونة - قال بتباه، وهو شبه واقف على أطراف أصابع قدميه في خُفّين من جلد الظبي الجبلي - كان عملاً بمسؤولية كبيرة وقتئذ.

رغم إلحاح الضوء الكاشف الذي يعمي عينيه (ربما يستطيع شعاع شمس أن يخترق الضباب ويلامس وجهه بضوئه المغبر والحزين) كنتُ أراه، تافهاً، متواضعاً، باهتاً، يتأرجح، مندهشاً، في وقائه المطري الواسع الذي يعج بأوراق لعب من الخدم والمانيل، قرب أكثر مستخدمي السيرك تواضعاً، أولئك الذي يقومون بتحريك قضبان قفص النمر، يضعون شباك العُقلة، وينقلون بالدّحرجة المنصات المشروخة، الحمراء والبيضاء، المخصصة للأسود، ثم فكّرَ كنتُ دائماً متعاطفاً معكَ، يا عزيزي، فكّرَ ذات أحد عندما كنتَ مريضاً زُرتُكَ في بيتك؛ رواقٌ ضيق، غرف صغيرة مثل غرف الدمى، قطع أثاث قليلة مغطاة بالجرائد، سلالم ضيقة، وهناك في الأعلى أنتَ، هزيلاً، شاحباً، بلحية لم تحلق، ترتدي منامة فوق سرير قطني

متهالك، وبجانبه طاولة صغيرة مليئة بقوارير شراب تغطي صورة امرأة متجهمة، صارمة، قبيحة جداً، تجول بعينين جاحظتين أرجاء الغرفة. كان صدى ضجيج طرّادة مرحاض معطلة يُدوّي باستمرار في رأسنا، يتسبب في ارتعاش يوميّةِ «ميشْلانْ» المعلقة على الجدار، كانت ستائر النافذة منقّطة بالوسخ والعمارات تبرز في الخلف، مبهمة ومائجة، كأن ريحاً غامضة تهب على واجهاتها الورقية. كانت هناك مجلة قديمة مفتوحة فوق السرير، أريكة مترهلة في زاوية يحمي مسندَها غطاءٌ على شكل مُعَيّن مصغر بفعل الزمن، شريطٌ لقتل الحشرات ربط بخيط إلى مصباح السقف. جلستُ على حافة الفراش (يا لهما من يدين نحيفتين، يا عمي، فكّرتُ، كيف تقاوم للوقوف على قدميك بجسد كهذا؟)، رائحةُ البيت غير المحددة، المشكَّلة من تضافر عدة روائح يصعب تحديدها، كانت تطفو في الغرف وتغزو مزعجة الخياشيم، عظامُه تُمطّطُ جلدَ وجهه مثل الوجوه الحادة والمتوترة للموتى، وكأنه يستمعُ لأصوات أشباح لا ترى، أخرج العجوز مِحْراراً من تحت إبطه، رفعه أفقياً عند مستوى أنفه ليقرأ الشريط الفضي الصغير، تسعة وثلاثون درجة ونصف، قال بصوت غُرابٍ خافت، كانت النوارس تزقزق أكثر فأكثر بالقرب منه، يسمعُ الخفقان السريع لأجنحتها، يشتمّ رائحة الملح في ريشها، وفي لحظات غزا انعكاسٌ بحري داخل جفنيْه، أن يكون المرء مُراقِباً في وسائل النقل العمومي في لشبونة، همس الأرملُ، عملٌ جد معقد، هل تعرف ذلك؟ كان قرب البئر تحت شجرة التين، بقعة الغابة تتأرجح هناك بعيداً، الشعرُ المستعار لقائد الفرقة الموسيقية سقط وانتشر مثل قنديل بحر فوق المنصة، المكنسة تدومُ في هيجان يائس، العازفون يقفون مثل ألسنة لهب حول آلاتهم المجنونة، لمست عكازةُ الأعمى ركبتهُ

هل أنت هنا، أيها الفتى؟ سألهُ الصوت الببغائي الذي يذوب في العصيدة الرطبة للصباح فوق الخليج، نظر إلى داخل البئر، انحنى على الخرزة المهدمة، لم يكن هناك من ماء في القعر، فقط بقعة وحل صغيرة تلمع وسط خصلات من الأعشاب وشظايا حجر، برزَ والدُه على يساره يفوح برائحة مزيل الروائح والعطر وقال له هل رأيتَ الطيور؟ مشيراً إلى سجّاد من الشُجيْرات، والفواكه المتعفنة، والحصى، والبراز اليابس فوق الأرض، وعندما أمسك طرف السكين، لمَحَهم مُثبّتين بدبابيس على قطع من الورق المقوى، بأذرع مفتوحة وعيون جاحظة من الذهول، أُمَّهُ، أخواته، فيليبّا، كارلوس، طبيب التوليد، ماريليا، السيد إسْبيرانْسا، الأعمى، العم الأرمل، من حين لآخر، كانت الأوراق الجافة لأشجار الأوكاليبتوس تهمس نحوه بسرّ متعدد، غامض، رأى موظفة مكتب الاستقبال غير الودية في النّزل، زملاءه في الكلية، تهكم الطلبة، التكشيرة المتشككة لممرضة التوليد، صمتاً من فضلكم، صاح القزمُ دون أن يطيع أمرَهُ أحد، كان المتفرجون يتضاربون بالمرافق ويتدافعون ليشاهدوا جيداً، والأضواء الكاشفة، المشتعلة بكاملها، تدور في دوامة عشوائية نحو الحلبة، نحو الجمهور، نحو الشرفة، نحو قبة السقف، توقظُ وتُنسي كمّاً من الأشياء والوجوه، والعُقُلات، والحبال، والخيوط، والدعامات من الألومينيوم والخشب، ضغط والدُه على شعره فوق صدغيْهِ ومدَّ إليه سكينا لقطع الورق، سوف أساعدك كي تفهم الطيور، قال، سوف أساعدك على إدراكها، الحصانُ القماشي الذي يُشكِّلُه اثنان من أبناء العمّ مرَّ راكضاً نحو المنزل، رأى نفسَهُ فوق صفيحة ورق مقوى تحمل لافتة ورقماً، رأى الزّغَب فوق صدره، والمنقار، والقائمتين، والقزحيتين الجاحظتين من الفزع، والجناحين المنشورين حول

الذراعين، انحنيْتُ بفضول نحو ذاتي، وكانت النوارس الآن تصيح بصوت حاد في جدران جمجمتي، أشجار الأوكاليبتوس تتأرجح، أوّلُ سرب من العصافير غادر البستان نحو الغابة محلقاً من دون انتظام، ابْقُرْ بطْنَ هذا، قال والدي وهو يشيرُ إليّ بإصبعه، ابْقُرْ بطْن هذا كي أشرحهُ لك، ثم فتحَ عينيه، وحاول أن ينهض بصعوبة من الرمل، أن يرتفع في الهواء المشبع، ويلتحق بالنوارس التي تحوم حول جسده الممدّد، بيد أن السّكين، والدبّوس، السكينُ تشده مثبتاً إلى قطعة الورق المقوى، وبينما كانت عيناه تفرُغان وهو يكفّ تدريجياً عن سماع تصفيقات الجمهور، استطاع أن يميز وراء حلبة السيرك المتألقة بالأضواء ملامح المدينة في الجهة الأخرى من الخليج وهي تتضاءل ببطء حتى اختفت نهائياً وسط الضباب الباهت للصباح.

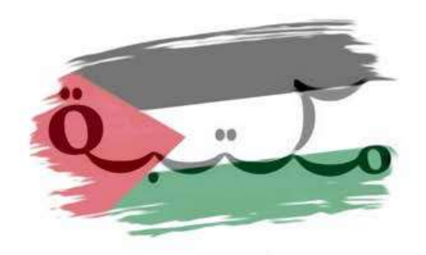


محتويات



هذا الكتاب

كنا في المزرعة فإذا بسرب من الطيور يطير من فوق شجرة الكستناء قرب البئر نحو تلك البقعة من الغابة التي استحالت زرقاء مع بداية الليل. كانت الأجنحة تخفق بحفيف أوراق تُحرّكها الريحُ، أوراق صغيرة، دقيقة، متعددة، مثل أوراق قاموس، كنتُ أمسكُ يدكَ، وفجأة سألتُكَ اشرح لي ما هي الطيور. هكذا، ليس أكثر من هذا، اشرح لي ما هي الطيور، طلبٌ محرجٌ لرجل أعمال. لكنك ابتسمتَ وقلت لي إن عظامها تتشكل من زبد الشاطئ، وإنها تتغذى على فتات الريح وإنها، عندما تموت، تطفو وظهرها إلى أعلى، عيونها مغمضة مثل النساء العجائز أثناء العشاء الرّباني.



الغلاف : سكينة صلوّن



